

كتاب (١)

الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن



عبدالمعطي يوسف

عبد الباقي يوسف

الارتقاء
في درجات تلقي معاني
القرآن

الكتاب: الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

المؤلف: عبدالباقي يوسف

الطبعة: الأولى/ ٢٠١٤

تصميم: قوباد ياسين طه

رقم الايداع: ()

جميع الحقوق محفوظة مجلة (الحوار)

الموقع الإلكتروني <http://alhiwarmagazine.blogspot.com>

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

كتاب مجلة (الحوار)

سلسلة فكرية ثقافية تصدر دورياً عن مجلة (الحوار)، وقد اخترنا كتاب (الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن) للكاتب والروائي السوري الكوردي المعروف (عبد الباقي يوسف) ليكون باكورة هذه السلسلة، التي نتمنى أن تكون خطوة أخرى على طريق تحقيق أهداف (الحوار) في إشاعة الفكر البناء، والمساهمة في إغناء ثقافة الحوار، والتعريف بالشعب الكوردي ثقافة وتاريخاً وحضارةً.

فهرس

القسم الأول:

نور السماء إلى ظلمة الأرض

مقدمة

الفصل الأول: كتاب التحولات الكبرى

الفصل الثاني: حدود الله .. حدود الناس .. في القرآن

الفصل الثالث: خصائص العلاقة بين الإرسال الإلهي والتلقي

البشري

الفصل الرابع: قارئ القرآن وفقه الموقف

الفصل الخامس: معالم الطريق ومنعرجات الفوضى

الفصل السادس: التلقي القرآني وترويض النفس

القسم الثاني:

فضل القرآن على الإنسان

استهلال

الفصل الأول: حاجة الإنسان إلى القرآن

الفصل الثاني: ارتقاء قارئ القرآن في درجات متعة العطاء

الفصل الثالث: قارئ القرآن ومهارة قوة الملاحظة

الفصل الرابع: القرآن الكريم ومنهج الحياة

الفصل الخامس: مشكاة قراءة تدبرية لـ سورة البقرة

خاتمة الكتاب

القسم الأول

نور السماء إلى ظلمة الأرض

مقدمة

القرآن الكريم هو دعوة للإنسان، كي تستيقظ حواسه على مدركات الحياة، فيشعر بجدية وحميمية ومسؤولية العلاقة بينه وبين مقومات حياته، وبذات الوقت يحافظ على حياة الآخرين.

يحتاج الإنسان إلى تعدد القراءات، حتى يبلغ مراحل متقدمة من الارتقاء إلى تلقي رسالة القرآن. عند ذلك يغدو القرآن مرشداً له في وقائع حياته، في علاقة جمالية تكاملية بينه، كمتلقٍ لرسالة القرآن، وبين الله، مرسل هذه الرسالة.

مع المواظبة على القراءة، يتخذ قارئ القرآن منهاجاً تربوياً من قراءاته القرآنية، إنه يتلقى التربية القرآنية، ويرتقي بها، فيغدو كائناً نافعاً، أينما وقع نفع.

تبلغ العلاقة التبادلية بين القرآن وقارئه، مراحل نورانية متقدمة، فيجنبه القرآن الوقوع في الكثير من المهالك، وينير أمامه طُرقات الفلاح.

جهدتُ في هذا البحث، ما يسر لي الله تعالى، كي أتناول صلب العلاقة بين مقومات حياة الإنسان، وبين القرآن الكريم، الذي كلما يُقرأ، ترسخت تعاليمه في النفس، وبذلك يتمكن الإنسان أن يتجاوز القراءة الظاهرة لهذا الكتاب المبارك، إلى تلقي معانيه، ومن خلال هذا التلقي القرآني، يرتقي بسلوكه الإنساني، على قدر ارتقائه في درجات

تلقي معاني القرآن، فيبلغ مرحلة يقرأ القرآن في جل أوقات حياته، يقرأه في حله وترحاله، إذ يتحوّل القرآن إلى رفيق دائم له، يلازمه في كل مكان، ذلك أنه بلغ مراحل استثنائية متقدمة من مراحل تلقي معاني القرآن. فإذا كان سعيي في هذا البحث إلى تبيان أن ليست كل قراءة قراءة، كما أن ليست كل لا قراءة، لا قراءة، وهنا فإنك عندما تنظر إلى شخصين: أحدهما يمسك القرآن، ويقرأه، والثاني يقف إلى جانبه دون أن يكون القرآن بيده، فهنا يمكن أن يكون حامل القرآن، الذي يقرأه، بعيداً كل البعد عن قراءة القرآن، في حين أن الثاني الذي لا يحمل القرآن، يكون في حالة متقدمة من قراءة القرآن. ولذلك ترى، بعد أن ينصرف هذان الرجلان بما يتركان لديك من انطباع، أن الأول كانت قراءته ظاهرية، في حين أن الثاني كانت قراءته تدرية، حيث ترى القرآن متجسداً في أفعاله وسلوكياته، وأنت تشم منه عبق مسك القرآن.

سعتُ في هذا الكتاب إلى تناول تفاصيل وقائع الحياة اليومية، التي يجلو فيها أثر القرآن على سلوكيات الناس، فقد أشرتُ إلى مدى ما يمكن أن يفعله القرآن الكريم من تحولات مفصلية كبرى في حياة الإنسان، ثم تناولتُ كيفية استنباط حدود الله، وحدود الناس، في القرآن الكريم. ثم شرحتُ أثر القرآن الكريم على مفهوم الإنسان للكلمة، وكيف يوظف نعمة اللسان المتكلم في استخدام اللفظ الحسن، ذلك أنه يستشعر عظمة المسؤولية تجاه لسانه. ثم يأتي الفصل الذي يليه، ليبين أن هذا القارئ يتحوّل إلى صاحب موقف في الحياة،

ولذلك أعقبه فصل: (معالم الطريق، ومنعرجات الفوضى)، بالنسبة لذلك الذي يهجر القرآن، سواء أكان يقرأه، أو لا يقرأه.

ثم انتهى بي مطاف القسم الأول، من هذا الكتاب، بفصل: (التلقي القرآني وترويض النفس)، وذلك وفق تسلسل تناول المواضيع. وهنا لا بد من القول إن كتابة الرواية قد قدمت لي الكثير في تسلسلية الفصول، والتركيز على تكاملية مضامين هذه الفصول، بحيث تتحوّل الفصول إلى حلقات متداخلة مع نسيج بعضها البعض. وفي اعتقادي لولا عملي الطويل في مجال الرواية لما كان ذلك ميسراً، ولربما جاء البحث في منأى عن هذا التركيز، كما أن ذلك جعل تناول الموضوع بلغة أدبية قريبة إلى المسرود الروائي، بحيث بدأت تتجلى فيه مقومات التشويق، فبات كل فصل يفضي إلى فصل آخر، على قاعدة بنية الكتاب الفنية، وفق الفكرة التي اشغلت عليها زهاء تسع سنوات، فقد بدأت كتابته في سورية، وقد انتهى مطاف الكتابة به في أربيل، عاصمة إقليم كردستان العراق.

في القسم الثاني من الكتاب، جاء فصله الأول: (حاجة الإنسان إلى القرآن)، ثم تلاه فصل: (ارتقاء قارئ القرآن في درجات متعة العطاء)، ذلك أن هذه الحاجة إلى القرآن لا بد أن تفعل لدى القارئ المتدبر الماهر، سلوكيات إيجابية في حياته اليومية، وفي صلب إيقاع علاقته الإنسانية، وبطبيعة الحال، فإن ذلك لا بد له أن يتلائم بما يتمتع به المرء من رهافة حساسية إنسانية، فجاء فصل: (قارئ القرآن ومهارة قوة الملاحظة)، وتلاه فصل: (القرآن الكريم ومنهج الحياة).

ثم رأيتُ أن أختتم فصوله بـ (مشكاة قراءة تدرية لـ سورة البقرة)، تناولت فيه أطول سورة من سور القرآن الكريم، حيث قمت بشرح وتفسير آيات من هذه السورة، متعمداً ترك آيات أخرى، ثم أعدتُ الشرح والتفسير لآيات، متعمداً ترك غيرها، وذلك بهدف تخفيف القارئ على القراءة التدرية التأملية، التي تكون له عوناً على الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن الكريم.

إن القرآن الكريم يهب فرصاً ذهبية لقارئه المواظب المتدبر، كي يتلقاه على أوجه عديدة، حتى يمنحه كنوزه ولآلئه الثمينة، التي لا يمنحها إلا لأولئك الذين تعلقت أفئدتهم بأنوار القرآن الكريم، فيقرأوه قراءات استثنائية استثنائية متقدمة، يستخرجون من نفحاتها المباركة أنوار سمو المعاني الإلهية، التي تتجلى لهم بين ثنايا السطور، إنهم يتجاوزون القراءة الظاهرية اللفظية، يغورون، ويستجلون نفائس المعاني الثمينة، يستخرجون روح الحكمة من ثنايا السطور، فيكون ذلك مبعث سكينه لهم في الدنيا والآخرة.

لقد قال الله تعالى لآدم: ﴿اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ طه/١٢٣. الهدى هو بيان الله الذي أتى إلى الإنسان عبر الرسل، وقد تكلم هذا الهدى بالقرآن الكريم.

الذي يضل في الحياة، فإنه يبتعد عن هدى الله، ومن يمضي بهدي الله، فإنه لا يضل ولا يشقى. هذا الهدى الذي نتعرف عليه من خلال قراءة القرآن.

قارئ القرآن المتدبر، يتمتع بحالة هائلة من الاتزان البدني، والنفسي، والاجتماعي، والعقائدي، والفكري، والاقتصادي، يقرأ وقائع الحياة قراءات قرآنية. يتلقى الأنباء السارة والحزينة، وفق المخزون القرآني الكامن في أعماقه، إنه كائن لا تزحزحه أعتى الرياح، يستمد حصانته من صلب علاقته القويمة بالقرآن.

يقرأ العيون قراءات قرآنية، يقرأ الوجوه قراءات قرآنية، يقرأ الأحداث الكونية قراءات قرآنية، بل حتى يشاهد ألوان الفنون مشاهدات قرآنية، فيتمكن من قراءة إسقاطات تاريخية حقيقية، وهو غارق في تفاصيل حياته اليومية، إنه شخص غني، ينطلق من كنوز معرفية وتأويلية وفكرية، تجعله متمكناً بشكل جيد من بيضة القبان.

عندما تقول (الإنسان) الذي في الأرض، لا ينتهي ذلك قبل أن تذكر (الله) الذي في السماء، وعندما تقول (الله) الذي في السماء، فلا ينتهي ذلك قبل أن تذكر (الإنسان) الذي في الأرض.

يؤمن الإنسان، الذي يعيش في الأرض، بعلاقته الوثيقة مع السماء، فهو - وخاصة في أوقات الشدة - يرفع بصره إلى السماء، وحتى رزقه الذي في الأرض، يأتيه رغداً من السماء، وهو كائن أرضي مسكون بالتأمل في السماء، سواء شاء ذلك أم أبي، وباحث في كل لحظة عن أسرار لا يعلمها، سواء رغب بذلك أم لم يرغب. وبالمقابل، فإن الإنسان يحظى بعناية الله، منذ اللحظة الأولى التي سواه فيها، وربما يكون من أكثر المخلوقات حظاً على الإطلاق، فهو يتمتع بكل نعم الأرض، ولديه طاقات هائلة للاستمتاع حتى بألفاظ حديث شائق، أو

بافتراة ثغر، أو بنظرة، أو بقراءة شيء، أو بالصعود إلى الحافات، أو لأقل: حتى بالحزن.

كل ما يقوم به الإنسان، خلال اليوم واللييلة، يحقق له الموانسة والانسجام والتآلف.

وقد جعل الله كل شيء في خدمة أن يحقق المنفعة للإنسان.

إلى جانب ذلك، فقد وهبه مطلق الحرية في أن يعيش حياته، وفق الطريقة التي يرتبها، وجعل كل شيء في خدمته، بل زين النعم، لتحمل إليه المزيد من السرور:

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ آل عمران/ ١٤.

دون أن يطالب بشيء يمكن أن ينفع به السماء، لأنه لا يملك هذا النفع، فكل شيء أتاه من السماء، التي فيها خزائن كل شيء.

إذن الإنسان الذي في الأرض، ليس لديه شيء يقدمه لربه الذي في السماء، لأنه لا يملك خزائن كل شيء، ولا يملك الجديد الذي يمكن أن يهديه إلى ربه، وحتى العبادة، فهي ليست أكثر من محاولة شكر من الإنسان لله، الذي وهبه كنوز النعمة، هذا الشكر الذي لا ينفع الله بشيء، لأن الناس جميعاً لو عصوه، حتى لم يبق عابد واحد على سطح الأرض، لما ضره ذلك بشيء، ولو عبدوه جميعاً، حتى لم يبق كافر واحد، لما نفعه ذلك بشيء، إنه في غنى عن عبادة الناس له، وهم الذين لا يستغنون عن عبادتهم له. وهنا يود الإنسان أن يكثر من

العبادة والقربات إلى الله، حتى يغفر له ذنوبه، ويبارك له صحته وماله وعياله، وحتى يُبقي له أثراً حسناً في الحياة، ويخرجه منها مخرجا طيبا. كلما يزداد الإنسان إيمانا بالله، فإنه يزداد توازنا في الحياة. علاقة الإنسان بربه هي كعلاقة الأرض بالسماء، السماء التي لا تحتاج الأرض حتى تكون سماء، بيد أن الأرض تحتاج السماء حتى تكون أرضاً، وليس بوسعها في أي حال من الأحوال أن تستغني عن السماء، التي تهبطها كل مقومات الحياة والاستمرارية، بيد أن الأرض لا تقدم للسماء شيئا، ولا تملك أن تقدم للسماء شيئا مجديا يمس مقومات الاستمرار.

وتتفق العقائد جميعاً بأن الله هو رب الناس كافة، وهو يبقى بوجه لهم التشريعات، ويبين لهم عنايته الفائقة بهم، حتى يشعروا بطمأنينة، وهم يعتنقون هذه العقائد:

يا بن آدم لا تخافن من ذي سلطان، مادام سلطاني باقياً، وسلطاني لا ينفد أبداً، يا بن آدم لا تخش من ضيق الرزق، ما دامت خزائني ملاءنة لا تنفد أبداً أبداً، يا بن آدم لا تأنس بغيري، وأنا لك، فإن طلبتني وجدتني، وإن أنست بغيري فتك، وفاتك الخير كله، يا بن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وقسمت رزقك فلا تتعب، و في أكثر منه فلا تطمع، ومن أقل منه لا تجزع، فإن أنت رضيت بما قسمته لك، أرحت قلبك وبدنك، وكنت عندي محمودا. وإن لم ترض بما قسمته لك، فو عزتي وجلالي لأسلطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البر، ولا ينالك منها إلا ما قد قسمته لك، وكنت عندي

مذموما .

يا بن آدم خلقت السموات السبع، والأرضين السبع، ولم أعي
بخلقهن، أيعيني رغيف أسوقه لك من غير تعب.
يا بن آدم أنا لك محب، فبحقي عليك كن لي محبا. يا ابن آدم لا
تطالبني برزق غد، كما لا أطلبك بعمل غد، فإني لم أنس من عصاني،
فكيف من أطاعني، وأنا على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط*
وبات الإنسان يبحث عن الغيب، من خلال إيمانه، واستقباله
للرسل، الذين حملوا دين الله عبر التاريخ البشري، دين الله الذي يقدم
له الكثير من النور، حتى يشعر بحالة من الاستقرار والسكينة الإيمانية.
يقول الله:

﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين
يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله
يهدي به من يشاء، ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ ١ .
﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور
وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ ٢ .
﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا

* روي أن (كعب الأخبار) وجد هذه الكلمات مكتوبة في (التوراة) فكتبها، وهو كعب بن
ماتع بن ذي هجن الحميري، أبو اسحق، تابعي، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في
(اليمن)، وأسلم في زمن (أبي بكر).

١ سورة الزمر/ ٢٣ .

٢ سورة يونس/ ٥٧ .

خسارا ﴿٣﴾.

﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا. وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما﴾ ٤.

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾ ٥.
﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ ٦.

﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ ٧.

٣ سورة الإسراء / ٨٢.

٤ سورة الإسراء / ٩، ١٠.

٥ سورة ص / ٢٩.

٦ سورة القمر / ١٧.

٧ سورة الحشر / ٢١.

الفصل الأول

كتاب التحولات الكبرى

يملك القرآن الكريم مقدرة هائلة على إمكانية التجدد، وهو لا يكتفي بذلك، بل يتجاوزه ليجدد قارئه كذلك، عندئذ لا يكتفي القارئ بأنه يقرأ كتاباً متجدداً فحسب، بل يشعر بأنه يتجدد مع كل قراءة جديدة لهذا الكتاب. ولذلك فإن القرآن يمتلك المقدرة على تغيير الناس بشكل نافذ، بحيث ينقل شخصاً ما من تاريخ عريق في الإلحاد، إلى تاريخ عريق من الإيمان، من إنسان سلمي يقف على تاريخ من الجور، إلى إنسان يشرق بنور إيجابيات الفطرة الإنسانية. إنه كتاب التحولات الكبرى في حياة الإنسان، إلى جانب أنه كتاب التحولات الكبرى في سلسلة المنجزات البشرية على مختلف الصعد.

من صلب علاقته مع القرآن، يمارس القارئ وقائع حياته، ويستقبل مجريات الحياة بترحاب.

علمتُ ذات يوم أن شخصاً كان قد حجز تذكرة سفر، لكنه لظرف ما تأخر دقائق معدودة عن الموعد، فانطلق الباص دون أن يلحق به، فاستنفر الرجل، وأصبح يكيل السباب للسائق، الذي لو لبث ثلاث دقائق للحق به، ثم اضطر هذا المسافر أن يحجز في رحلة أخرى تنطلق بعد ساعتين، ركب الرجل الباص مستاءً، لكنه وبعد مسافة فوجئ بوقوف الباص، ونزول السائق والمرافق، لحقهما بعض

الركاب في النزول، عند ذاك نزل هو الآخر ليرى ما الأمر، وإذ بدأت الباص الذي فاتته، في حادث مروع، وقد أسعف جميع من كان فيه. للتو أدرك بأن الله لم يشأ له أن يصعد تلك الحافلة، وتحول الاستياء إلى تسييح بحمد الله، الذي: "إذا أراد أمراً هياً أسبابه".

ترى هذا الشخص بعد ذلك يستوعب حديث الله، ويدرك مشيئته، وهذا يخفف عنه حالة الاضطراب التي دهمته لدى تأخره عن الباص، إذا تكرر الأمر مرة أخرى. وتراه إذا ذهب في طلب حاجة، وأخفق فيها، لا يستاء. إذا تعرّض لمصيبة حمد الله عليها، لأنها أزاحت عنه ما هو أعظم، حتى يصبح هذا الإنسان في حالة إصغاء دائمة لآيات الله في نفسه، وفي سائر خلق الله.

تكمن مهمة الإنسان، في سعيه ليكون أهل دنيا، تاركاً فيها شيئاً مجدياً، يشير إلى وجوده ذات مرحلة في هذه الدنيا، إلى جانب سعيه الدائم كي يكون من أهل الجنة. وربما من الخطأ الفادح أن يظن البعض أو يذهب إلى أنه يبتغي الجنة على حساب الدنيا، أو أنه يبتغي الدنيا على حساب الجنة، فهو يسأل ربه أن يكون وجهه مبيضاً يوم تبيض وجوه، وتسود وجوه: تبيض وجوه في الدنيا والآخرة، وتسود وجوه في الدنيا والآخرة.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"إن شئتم أنبأتكم ما أول ما يقول الله عز وجل للمؤمنين يوم القيامة، وأول ما يقولون له؟"

قلنا: نعم يا رسول الله.

قال: "إن الله عز وجل يقول للمؤمنين: هل أحببتم لقائي؟

فيقولون: نعم يا ربنا.

فيقول: لم؟

فيقولون: رجونا عفوك ومغفرتك.

فيقول: وجبت لكم مغفرتي".

إن كل قراءة للقرآن الكريم تقدّم للقارئ ما لم تقدمه قراءة سابقة، وتبث إليه أنواراً لم تبثها قراءة سابقة، فيتعرف على الله بما لم يتعرف عليه من قبل، ويغدو مقرباً إليه بما لم يكن مقرباً من قبل، وهذا بذاته يفعل في نفسه الطاقات الإنسانية، فيمسي مستمتعاً بممارسة مزايا إنسانيته، واعلم بأن الله - تقدّست أسماؤه - لم يكن ليأمرك بإعادة القراءة، لو لم يصيبك نفع من كل قراءة، وأن كل قراءة جديدة تذقك حلاوة لم تذقك إياها من قبل.

بركات فاتحة الفاتحة

أول ما يقع نظرك من كتاب ربك، وأنت تستفتح قراءة الكلمة الأولى، البسملة المباركة، التي هي فاتحة فاتحة الكتاب، ثم هي فاتحة كل سورة من سور القرآن الكريم، عدا سورة التوبة. وهذا من شأنه أن يبث إليك شعوراً أولياً بأنك تلج متن القراءة التدبرية، مستعيناً باسم ربك، الذي ييسر لك مكرمة تلقي القراءة، التي لا يتلقاها إلا القارئ المتدبر، بما ييسر له الله من هذه

المزية.

انظر إلى كل حرف من حروف البسملة التسعة عشر، التي ميزها الله بمرتبة أن تكون فاتحة فاتحة كتابه الحكيم، تأمل لفظ الجلالة، انظر جمالية تنسيق الكلمات الأربع.

كل تأمل، كل نظرة، كل قراءة تحقق حلاوة: بسم الله الرحمن الرحيم. لم يرشدك الله لتقول: بسم الله، فقط. أو: بسم الله الرحمن، فحسب. رغم أن الرحمن أشمل في سعة الرحمة من الرحيم، ذلك أن الرحمة العالمية الشاملة للناس جميعاً: مؤمنين وكفاراً، تتحقق في (الرحمن)، وهو أول اسم من أسماء الله الحسنى بعد لفظ الجلالة، في حين أن (الرحيم) تقتصر رحمته على المؤمنين فقط، دون أن تشمل من هم دونهم، وهي إشارة أولى بأن الناس جميعاً - على مختلف معتقداتهم - يحتاجون إلى رحمة الله بالدرجة الأولى، وهم أولوية الرحمة من ربهم: ﴿الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الحشر/٢٢، وهي إشارة للناس بأن يتزاحوا فيما بينهم، ويتحابوا، ويتسامحوا، وهم يشكلون في نهاية الأمر حلقة العائلة الإنسانية المشتركة، على مختلف مشاربهم ومآربهم وألوانهم وقومياتهم وألسنتهم، وهذا ما تغتنى وتمتاز به العائلة الإنسانية.

الرحمن، ذروة الرحمة الواسعة، التي من شأنها أن تسع كل شيء، تسع السموات والأرض، وما بينهما، تشمل ذنوب الإنسان، حتى لو كانت كزبد البحر، وهي رحمة تتسع لا لتغفر الذنب فقط، بل تتجاوز ذلك لتحيل الذنوب إلى حسنات، فيها يستبدل الله ذنوبك

حسنات، فيتحول كل ذنب من ذنوبك برحمة الرحمن إلى حسنة، وكلما كانت ذنوبك كثيرة، غدت حسناتك أكثر.

وهذا من شأنه أن يجعل شخصاً يعتقد بأنه سيكون من أهل الجنة، وذلك لأنه اهتدى بهدي الله، واستغفر لذنبه، فيكون لسان حال هذا الشخص بأن الله إن استبدل كل تلك الذنوب العظيمة حسنات، ستكون في كفته حسنات راجحة في ميزان الحساب، وهو قد آب، وهداه الله الصراط المستقيم.

وهذا بذاته يجعل باب التوبة مشرعاً أمام أولئك الذين ثقلت بهم ذنوبهم، فانتبهوا في لحظة هدي مباركة، وتابوا عما قد سلف، وفتحوا صفحة جديدة من صفحات حياتهم، وتحولوا إلى أناس صالحين نافعين في المجتمع، سواء من صميم ملة الإسلام، أو من خارجه.

هؤلاء الذين شعروا بأن الإسلام يجعلهم يتخلون عن ماضيهم المقيت، ويجعلهم أناساً صالحين متزينين، متصالحين ومتسالمين مع أنفسهم، فيدخلون ملة الإسلام، التي ترحب بأي دالف إليها برحمة الرحمن رب العالمين، وهم يدلّفون إلى الإسلام، لا حاجة الإسلام إليهم، أولأنهم يبتغون تقديم نفع للإسلام، بل لأنهم لمسوا حاجتهم القصوى إلى الإسلام، وأنهم وجدوا في الإسلام ما احتاجوا إليه. هنا يمكنك أن تتأمل عظمة وسعة الرحمة، التي لا موضع لليأس بها، مهما اتسعت رقعة ذنوب الإنسان.

ورد في صحيح البخاري: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، سمعت أبا صالح، عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله

عليه وسلم: يقول الله تعالى: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم.

إذا تقرب إلي العبد شبراً، تقربت إليه ذراعاً، وإذا تقرب إلي ذراعاً، تقربت منه باعاً، وإذا أتاني ماشياً، أتيتته هرولة"، رواه البخاري ومسلم.

ومما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم في هذا التوجه: "ادعوا الله تعالى، وأنتم موقنون بالإجابة". رواه الترمذي .

ولعلي أذكر هنا أنه عندما ترك المنافقون النبي وأصحابه في (غزوة أحد)، قال الله عنهم: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ آل عمران/١٥٤ .

وعن المنافقين والمشركين، يقول عز من قائل: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الفتح/٦ .

ولذلك، فإن التائب عن ذنبه، إضافة أنه يكون كمن لا ذنب له، فإنه يظفر بحسنات لم يفعلها، ولم يبذل جهداً ولا طاعة بها، وما ذلك إلا لفرحة الله بأوبة هذا العبد إلى ربه تائباً خاشعاً يلتمس المغفرة عما قد سلف، ذارفاً دموع الندم مدراراً، وهو يتوسل إلى ربه أن يصفح عنه، فمهما بلغت ذنوب العبد من عظمة، فإنها لا تفوق سعة رحمة الله، ولا تملك سوى أن تخضع لرحمة الله، بل تتحوّل إلى حسنات كذلك يُجازى بها ذاك المذنب، لأنه توسل إلى الله نادماً، دون أن يقنط من رحمة الرحمن الرحيم .

إن وجه القراءة التدريجية لأي القرآن، يبيث إليك إشارة كي تصفح عن أولئك الذين تجاوزوا على حدودك، تصفح عمّن شتمك، عمّن سبب لك أذى، حينما يأتيك معتذراً طالباً الصفح، فلا يكون قلبك قاسياً: ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة/٧٤.

حينها تدرك بأنك ارتقيت درجة جديدة في درجات تلقي معاني القرآن، وأن قراءاتك لأيّه تجاوزت ظاهر الألفاظ.

على هذا النحو يبقى الإسلام كبيراً، وواسعاً، ومستوعباً الناس كافة، على مختلف معتقداتهم وميولاتهم ونزعاتهم، وبذلك يحقق سمات العالمية الإنسانية بامتياز.

لذلك أبقى الله عزّ وجل هذا الاسم لذاته، ولم يصف به أحداً من عباده، حتى الأنبياء منهم،

وعندما شاء جلّ جلاله أن يصف نبيه، لم يقل رؤوف رحمن، بل قال: رؤوف رحيم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة/١٢٨.

بل حتى من تجراً واتخذ له اسم الرحمن، فقد جعله الله كذاباً، كما الأمر بالنسبة لـ(مسيلمة)، الذي لصقت به صفة الكذب، لأنه تجراً وتجاوز على هذا الحد، وقال بأنه رحمن، فلا يُقال: مسيلمة، حتى يُقال: الكذاب.

فالإنسان يجوز له أن يكون رحيماً، كما يصفه الله، وهي رحمة

إنسانية محضة، بيد أنه لا يمكن له أن يكون رحماناً، بأي مقياس من المقاييس، وذلك لشمولية معاني ودلالات هذا الاسم، المقتصر على الله وحده عز وجل.

يمارس الإنسان الرحمة في سلوكه اليومي، وفق المقياس البشري، والطاقة والمقدرة البشرية على الرحمة، فيقال: "مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ". مَنْ لَا يَرْحَمُ نَفْسَهُ، وَلَا يَرْحَمُ غَيْرَهُ، لَا تَسْتَوْجِبُ لَهُ رَحْمَةَ اللَّهِ، وعندما تكون الرحمة بين الناس في الأرض، تحل عليهم رحمة الله من السماء، فالذي تُعرف عنه مواقف الرحمة يأمنه الناس، ويتوسمون فيه الخير، لأن في قلبه بركات من رحمة الله، يرحم بها الناس بالتسامح، والعطفية، والصلح، والمحبة. وعلى الأغلب، فإن وجه هذا الإنسان الرحوم يستنير بما بث الله إلى فؤاده من أنوار رحمته، فيمسي وجهه مناراً، كما لو أنه مصباح إلهي. لقد أكرمهم الله، فعبروا عن شكرهم لله، بأن أكرموا الناس، وأحسنوا إليهم، وغدوا أصحاب فضل وفضيلة بين الناس.

تؤدي البسملة، كذلك، وظيفة الفاصلة بين السور القرآنية، فعندما تنتهي من السورة، تبدأ بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) في قراءة السورة التالية، فتكون مفتاح كل سورة، تفتح بها باب الولوج إلى قراءة السورة الجديدة.

إذا تأملت في ذلك، سيتجلى لك: بأنك دون رحمة الله، ستقرأ القرآن دون أن تبلغ شيئاً منه، ودون أن يصيبك شيء من هديه، فالرحمن برحمته الواسعة، التي وسعتك ووسعت كل ما أنت به من

ذنوب، يسر لك أمر القراءة، وأمر تلقي جوانب من مدلولات هذه القراءة، التي تستنير بها ظلمات نفسك. وقد أخرج (الحاكم) في (مستدرکه) ما رواه (أبو داود) بإسناد صحيح: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه: بسم الله الرحمن الرحيم.

ونظراً لمنزلة البسملة، فقد أوصى النبي بها في قوله: كل أمر لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم، فهو أجزم. وقد روى (مسلم) في قصة عمر بن أبي سلمة - ربيب النبي صلى الله عليه وسلم - أنه قال: قل: بسم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك. وفي رواية الفريقين، يقول صلى الله عليه وسلم: كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله، فهو أبتر.

وهي فاتحة خير، يُستحب أن يفتح بها الإنسان كل أمر هو مقبل عليه، فهي تضيف البركة على نتائج ما يقوم به الإنسان. وذكر الله يجنب الشيطان، وما يمكن له أن يوسوس به، ومن شأنه أن يكون حصانة للإنسان، كي يقوم بعمله بشكل جيد، وبالتالي يلقي نتائج هذا العمل الذي بدأه واستفتح به باسم ربه، ويشمل ذلك حتى الجماع، لأن المرء عندما يعاشر حليلته، فإن نتيجة ذلك تكون الولادة بمشيئة الله، ولذلك أوصى النبي بالبسملة عند الجماع. ففي رواية للشيخين عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال: "لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقَدَّرَ بينهما ولد، لم يضره الشيطان أبداً".

وفي الحديث القدسي، قوله تعالى: "أنا الرحمن، خلقتُ الرحم، وشققتُ لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته". أخرجه (الترمذي)، وصححه، عن عبد الرحمن بن عوف. لذلك، فإن ختمة القرآن الكريم تكون متكاملة مع استفتاح كل سورة بقراءة البسملة، باستثناء سورة التوبة.

فاتحة القرآن الكريم

تفتتح قراءتك لسور القرآن بفاتحة سوره، التي تكون لك معيناً لتلقي ما ستقرأ من سور، حتى تبلغ ختمة القرآن. (السبع المثاني) كما قال عنها الله: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ الحجر/٨٧، تقع في سبع آيات: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾.

الكلمة الأولى التي تبدأ بها فاتحة السور هي: الحمد. إنك تعبر عن حمدك وشكرك لله الذي أنزل هذا الهدى، وأكرمك بقراءته، لتستنير به ظلمات نفسك. ﴿الحمد لله رب العالمين﴾.

يأتي لفظ الجلالة بعد الحمد، دون اسم من أسمائه الحسنى، ذلك أن هذه الأسماء الحسنى مصدرها لفظ الجلالة: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الأعراف/١٨٠.

إن قراءتك المتأنية لمعاني ودلالات قراءة البسملة، جعلتك تقبل على حمد الله، رب العالمين. ومعنى لفظ الجلالة (الله) يعني: المألوه،

المعبود حياً وتعظيماً. والرب هو مَنْ جُمعت فيه ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير.

لم تقل: الحمد لربي رب العالمين، بل: الحمد لله رب العالمين، ذلك أن الله هو رب العالمين، وهذا يشمل كل خلق خلقه الله، فعندما ترى حيواناً، تدرك بأن الله ربه، وكذا عندما ترى نباتاً، أو جهاذاً.

إن الحمد هو الله وحده، ذلك أنه صاحب الفضل على الخلق جميعاً. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، ولك الخلق كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله. (رواه البيهقي في السنن).

تدرك هنا مساواة خلق الله جميعاً في عبادة الله، فكما أن الناس جميعاً هم عيال الله، فإنها أرض الله التي تأوي عياله.

وفي الحديث عن (أنس بن مالك) رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة، فيحمده عليها، أو يشرب الشربة، فيحمده عليها^٨.

وحتى لا تنسى، تذكر الآيات بـ الله الرحمن الرحيم، كما قرأت في البسملة، فيأخذ ذلك شيئاً من الترسخ في نفسك، فمعرفة الأولية لله هي أنه الرحمن الرحيم، هكذا أخبرتك البسملة، وهكذا أخبرتك فاتحة القرآن.

الرحمن الرحيم: الرحمة هنا لمن يملك مقومات ما يرحم، فإن قلت عن شخص بأنه كريم بالمقياس الإنساني، فذلك يعني أنه يملك ما

^٨ صحيح مسلم، كتاب الذكر (٢٤٣٧).

يمارس من خلاله خصلة الكرم، فالذي لا يملك شيئاً ليس بوسعه أن يمارس الكرم. - والله المثل الأعلى - فيخبرك الله بأنه مالك يوم الدين، إنها ملكية مطلقة، ليس لما في الدنيا فحسب، بل لما في الآخرة، ويوم الدين هو يوم الجزاء، فهو يجازي الناس برحمته في الدنيا والآخرة، فتبلغك إشارة بأنه لا يكون رحماناً في الدنيا فحسب، بل يكون رحماناً في الآخرة كذلك، فكان تذكيرك بذلك من خلال (مالك يوم الدين). الرحمة هنا لمن يملك خزائن كل شيء، لمن هو بالغ القوة والحبروت والمقدرة على الرحمة، يملك أن يهب كل شيء، كما يملك أن يحجب كل شيء، ومن يملك يوم الدين، لا يتحقق له ذلك قبل أن يكون مالكاً يوم الدنيا من قبل. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: يقبض الله تعالى الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض^٩.

ترهو إشراقة شكر وإيمان وطمأنينة في نفسك، حتى تقبل على عبادته عن طوع، فتقول: (إياك نعبد)، لأنك لا تجد غيره معيناً لك على العبادة. و: (إياك نعبد، تدفع الرياء. ثم تردف: (وإياك نستعين)، وهي تدفع الكبرياء.

تلمس هنا تحوراً من الاتكال على غير الله، والخوف من غير الله، وذلك يحقق علاجاً من أمراض الكبرياء، والعجب بالنفس، أو بالآخرين، فتستعين به كي يهديك: (الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم)، لأن الإنسان لا يحظى بنعمة هدايته إلى الصراط

^٩ صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين (٢٧٨٧).

المستقيم، إلا إذا أنعم الله تعالى عليه، وهذا يشير إلى أن الإنسان دون هداية الله، إنما هو سائر على صراط ملتو، فلا يطلب الهداية إلى صراط مستقيم، إلا ذاك الذي يكون على صراط غير ذي استقامة، فلو كان على صراط مستقيم لقال: ثبتنا على الصراط المستقيم. يقول النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس: يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله . (رواه أحمد والترمذي).

(صراط الذين أنعمت عليهم)، من قبل، بأن هداهم إلى المسار الصحيح. (غير المغضوب عليهم)، الذين غضب الله عليهم بأن لبشوا دون هداية. (ولا الضالين)، أو يكلهم إلى أنفسهم ليكونوا ضالين. ثم تقول: آمين، سائلاً الله عز وجل الاستجابة، وهي ليست آية من سورة، تلفظها دون كتابتها في الصحف.

إنها كنز من كنوز عرش الرحمن، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن الله: أعطيت لك ولأمتك كنزا من كنوز عرشى: فاتحة الكتاب، وخاتمة سورة البقرة.

بذلك فقد تميزت سورة (الفاتحة) بأنها من أكثر سور القرآن الكريم قراءة في الناس، ذلك أنها تُقرأ مع كل ركعة من الصلوة، ويستعين بها الناس في مختلف مناسباتهم.

جاء في حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، إذا قال: (الحمد لله رب العالمين)، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: (الرحمن

الرحيم)، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: (مالك يوم الدين)، قال الله تعالى: مجدّني عبدي، وإذا قال: (إياك نعبد، وإياك نستعين)، قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي نصفين، وإذا قال: (اهدنا الصراط المستقيم)، قال الله تعالى: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل.

إذا نظرنا إلى هذا التقسيم، سيتبين لنا أن الآيات الثلاث:

﴿الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين﴾، هي لله. والآية الرابعة: ﴿إياك نعبد، وإياك نستعين﴾، هي الوسط بين الله وبين العبد. ثم تأتي الآيات الثلاث الأخيرة، وهي للعبد: ﴿اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين﴾.

سورة مترابطة، متكاملة، لا تقبل التجزيء: أولها رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة.

عندما يبلغ الإنسان الصراط المستقيم، فإنه يبلغ الطمأنينة، وليس من سبيل إلى الطمأنينة الروحية، سوى سبيل الصراط المستقيم. ومما ورد عن منزلة الفاتحة في الأحاديث النبوية: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال:

بينما (جبريل) قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم، سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا

أعطيته^{١٠}.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنزلت في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان، مثلها. وإنما سبع من المثاني، والقرآن العظيم الذي أعطيته. (متفق عليه)
وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: يا جابر، ألا أعلمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه؟ فقال له جابر: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله، علمنيها. فعلمه الحمد أم الكتاب.

وعن أبي سعيد بن المعلى، قال: كنت أصلي، فدعاني النبي صلى الله عليه وسلم، فلم أجبه، قلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، قال: ألم يقل الله: (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم)، ثم قال: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد؟ فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله، إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن.
قال: (الحمد لله رب العالمين)، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته.^{١١}

كما أن سورة الفاتحة شفاء، ورقية، وقد ورد في الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: كنا في مسير لنا، فنزلنا، فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحي سليم - لديغ - وإن نفرنا عُيِّب، فهل منكم راق؟ فقام

^{١٠} رواه مسلم وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب/ ١٤٥٦.

^{١١} صحيح البخاري، فضائل القرآن (٥٠٠٦).

معها رجل ما كنا نأبنه برقية، فرقاه، فبرأ، فأمر لنا بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية، أو كنت ترقى؟ قال: لا، ما رقيت إلا بأمر الكتاب.

قلنا: لا تحدثوا شيئاً حتى نأتي أو نسأل النبي صلى الله عليه وسلم، فلما قَدِمنا المدينة ذكرناه للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: وما كان يدريه أنها رقية، اقسموا واضربوا لي بسهم^{١٢}.

ومما ورد من أحاديث ضعيفة عن الفاتحة:

– "فاتحة الكتاب تجزي ما لا يجزي شيء من القرآن، ولو أن فاتحة الكتاب جعلت في كفة الميزان، وجعل القرآن في الكفة الأخرى، لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات"^{١٣}.

– "فاتحة الكتاب شفاء من السم"^{١٤}.

– "فاتحة الكتاب وآية الكرسي لا يقرؤهما عبد في دار، فيصيبهم ذلك اليوم عين إنس وجن"^{١٥}.

– "فاتحة الكتاب شفاء من كل داء"^{١٦}.

يتحوّل القرآن الكريم، في درجات قرائية ناضجة استثنائية، إلى مرآة، ينظر فيها القارئ إلى خفايا نفسه، كأنه ينظر إليها أول مرة،

^{١٢} صحيح البخاري، فضائل القرآن (٥٠٠٧).

^{١٣} ضعيف جدا. سلسلة الأحاديث الضعيفة / ٣٩٩٦.

^{١٤} سلسلة الأحاديث الضعيفة / ٣٩٩٧.

^{١٥} ضعيف. ضعيف الجامع الصغير / ٣٩٥٢.

^{١٦} ضعيف. ضعيف الجامع الصغير / ٣٩٥١.

كأنه يكتشف ما يكتنفها أول مرة. يدرك كم أنه لم يكن يعلم شيئاً عن نفسه، لم يسبق له أن نظر إلى نفسه. هذه القراءة تجعله يعيد النظر بكل مقومات حياته، يعيد ترتيب بنية مفاهيمه، وعلاقاته، وفق المراحل المرتقية التي ارتقى إليها في تلك القراءة الاستثنائية المجيدة.

وليس بالضرورة أن يرتقي مع كل قراءة، بل قد تكون قراءة سلبية، في بعض القراءات، فينحدر من درجة سابقة كان قد بلغها، لأن القرآن ليس كتاباً سهلاً، وليس بوسع الإنسان أن يبني علاقة قرائية نورانية معه، إن لم يستعد لذلك بدنياً وروحياً ومكانياً، ولا يفتح القرآن الكريم مرآته للقارئ، إلا إذا كان متأهباً ومتأهلاً لهذا الفتح، حتى لو قلب صفحات القرآن في الشهر مئة مرة، إنه فقط يقلب الصفحات، ويلفظ ظاهر الكلمات، دون أن يقرأ القرآن، بل قد يكون في مرحلة متدنية من المقام الإنساني، يقرأ فيها القرآن، والقرآن يلعنه. وبناء على ذلك، يمكنني أن أرى أن مفهوم الطهارة يتسع، ولا يكون وقفاً على طهارة الأعضاء، ومفهوم اللبس يتسع، ولا يكون حصراً على لمس الصفحة بإصبع، ومع ثورة الإنفوميديا الحديثة، يمكننا أن نرى أن الإنسان يمكنه أن يختتم القرآن بواسطة حاسوب محمول صغير، دون أن يلمسه، وبالتالي يمكنه أيضاً أن يكون على غير طهارة، لأنه لا يمس القرآن مس الإصبع للصفحة، وتكون قراءته صحيحة، لأن التعبد بقراءة القرآن لا ينحصر في القراءة الورقية، بل قد يختتم شخص القرآن دون استخدام الصفحات، وكذلك دون استخدام أي وسيلة حديثة، لأنه يقرأ القرآن الذي حفظه من القاب إلى القاب وفق

دقة تسلسله.

إذن، يمكن أن يكون ذلك للمرأة الحائض، التي لا يجوز لها مس القرآن، كما ورد في (سورة الواقعة): إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾.

ولكن هل ستشعر المرأة الحائض، وهي تقرأ القرآن من الحاسوب، أو عن ظهر قلب، بكل تلك المزايا الإيمانية، وهل هي مستعدة بدنياً ونفسياً لتدخل حالة القراءة القرآنية؟ وكذلك الأمر بالنسبة لرجل نهض للتو من فراش حليلته، وراح يجلس على الشرفة، يريد أن يكمل ختمة القرآن؟!

إن الإنسان عندما ينهض صباحاً ليتجه إلى عمله، لا يفعل ذلك بشكل مباشر من الفراش وإلى الطريق، للذهاب إلى عمله، بل يحتاج إلى تهيئة واستعداد، حتى يغدو في حالة مهياة للخروج إلى أداء هذا العمل.

إنه يتمطى قليلاً، حتى يتهيأ للنهوض، ثم يجلس قليلاً في الفراش يمازح أهله، ثم ينهض للاغتسال، ثم قد يستعين بالاستماع إلى ما يشاء، ثم يتناول الطعام، ثم ينزع ثياب النوم، ويرتدي ثياب العمل، فتأتي السيارة التي تأخذه إلى عمله، أو يخرج ذاهباً بما يرى من وسيلة. إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لشخص يريد أن يصنع باباً، أو نافذة، أو يصوغ أسورة، أو يطلي غرفة، أو ما إلى ذلك. أفلا يحتاج إلى تهيئة للاتصال مع ربه، ألا يحتاج إلى وضوء، وتنظيف بدن وثياب،

وصفاء ذهن، عندما يشرع في الصلاة، عندما ينوي الصوم، عندما يجلس ليقراً كتاب الله.

إن التهيئة هنا تمنح النتيجة، كما أن اللا تهيئة تحجب النتيجة. يكون الإنسان هنا على درجات متقدمة من التأدب والأدب، وهو يقف بين يدي ربه، أو وهو يتلو كتاب ربه، فيحرص أن يكون طعامه حلالاً، ويكون ثوبه حلالاً، ويكون ما في بيته من مال حلالاً، ويكون على صلح مع جواره، وعلى صلة برحمه، مؤدياً لحقوق المجتمع عليه، صالحاً في تربية ولده، طيباً في علاقته بامرأته، عفواً مع الناس، كريماً بالعطاء، باراً بالوالدين.

إن القرآن الكريم هو دليل الإنسان إلى معرفة الله، وإلى معرفة مقاصده في تشريعه، ومن ذلك انفجرت ثورة التفسير، التي يسعى المفسر من خلالها إلى محاولة لبيان مقاصد الله، وهذا بذاته يمنح غنى وديمومة وحيوية لثورة التفسير، فلو أعاد المفسر قراءة القرآن، لأعاد قراءة ذات التفسير، ولانغلق باب التفسير في السنوات العشر الأولى من بدء مرحلة التفسير، وللبث تفاسير روّاد أقطاب ثورة التفسير قاعدة ثابتة لا تسمح بتجاوزها. بيد أن كل قراءة - بما أنها جديدة - تفتح أمام القارئ المفسر شرحاً جديداً، ومكتشفاً جديداً، في منظومة التفسير القرآني، يُضاف إلى منجزات ثورة التفسير، على يد المفسر المعاصر، الذي يستند في منهجية التفسير إلى مواكبة المنجز البشري.

لذلك فإن منجزات التفسير القرآني، هي محاولات تفسيرية، وفق

وجهات نظر وتصورات أئمة التفسير أولئك، وهي ليست تفاسير ثابتة ولا مغلقة لأبواب تفسير جديد، في مرحلة زمنية قادمة، لأن المنجز الإنساني يتسع أن يقدم تفاسير جديدة لرسالة الله الأخيرة هذه إلى البشرية.

الفصل الثاني

حدود الله .. حدود الناس في القرآن

في عالم الجغرافيا نحن محكومون بالحدود التي تفصل بين سكان الأرض، ولولا هذه الحدود لما كانت هناك بلدان، بل كانت الكرة الأرضية بلداً واحداً لسكان الأرض أجمعين، وهذا ينافي طبيعة البشر، الذين يتنوعون في ألوانهم ولغاتهم وأعرافهم، هذه الطبيعة التي تجعلهم يميلون إلى التكتلات الاجتماعية، ويشكلون دولاً لها حدودها ونواميسها، التي لا يقربها أحد، وتعد من المقدسات التي لا يجوز المساس بها.

حين ترغب بدخول دولة، عليك أن تقوم بكل الإجراءات القانونية، التي تخولك الدخول إلى تلك الدولة من بابها العلني المشروع، وبمباركة حراسها الذين يستقبلونك في مدخل دولتهم، ويمنحونك تأشيرة دخول إلى أرجائها.

وإن قمت بكل الإجراءات القانونية التي تخولك الدخول، بيد أنك اقتحمت حدود تلك الدولة، ولم تدخل من بابها المعلن المشروع، حتى لو حصلت على تأشيرة دخول من حراسها، فإنها ستوجه إليك عقاباً على عدم احترام نواميسها.

كذلك في العلاقات الاجتماعية اليومية نرى أنفسنا محكومين بالحدود، فلو دعاك شخص عزيز إلى زيارته، فقبلت الدعوة، وبغته

رآك تعتلي سطح داره، وتقفز إلى الداخل، هنا ستكون قد اخترقت عليه حرمة حدود بيته، فيكون من حقه أن يستاء، أو يوجه إليك عتابا قاسيا، مهما اتسمت علاقتك به بالحميمية.

ورد في مقدمة كتاب / المستطرف في كل فن مستظرف /:

أن الله واحد لا شريك له، فرد لا مثيل له، صمد لا ند له، أزلي قائم، أبدي دائم، لا أول لوجوده، ولا آخر لأبديته، قيوم لا يفنيه الأبد، ولا يغيره الأمد، بل هو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، متنزه عن الجسمية، ليس كمثله شيء، وهو فوق كل شيء، فوقيته لا تزيده بعدا عن عباده، وهو أقرب إلى العبيد من جبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد، وهو معكم أينما كنتم، ولا يشابهه قربه قرب الأجسام، وكما لا تشابه ذاته ذوات الأجرام، منزه عن أن يحده زمان، مقدس عن أن يحيط به مكان، تراه أبصار الأبرار، في دار القرار، على ما دلت عليه الآيات والأخبار.

حي، قادر، جبار، قاهر، لا يعتز به عجز ولا قصور، ولا تأخذه سنة ولا نوم، له الملك والملكوت والعزة والجبروت.

خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، ولا تحصى مقدوراته، ولا تنهاه معلوماته، عالم بجميع المعلومات، لا يغرب عنه مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء، يعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر، وخفيات السرائر، مرید للكائنات، مدير للحادثات، لا يجري في ملكه قليل ولا كثير، ولا جليل ولا حقير، خير

أو شر، نفع أو ضرر، إلا بقضائه وقدره، وحكمه ومشئته. فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو المبدئ المعيد، الفاعل لما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا مهرب لعبد من معصيته، إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته، إلا بمحبته وإرادته.

لو اجتمع الإنس والجن، والملائكة والشياطين، على أن يحركوا في العالم ذرة، أو يسكنوها، دون إرادته، لعجزوا.

سميع بصير، متكلم بكلام لا يشبه كلام خلقه، وكل ما سواه - سبحانه وتعالى - فهو حادث، أوجده بقدرته، وما من حركة وسكون، إلا وله في ذلك حكمة دالة على وحدانيته /^{١٧}

لقد بدأ نزول القرآن في مكة المكرمة، وهي بقعة جغرافية تتمتع بمزايا تؤهلها لاستقبال كلم القرآن الكريم الأولى، هذه المزايا التي أهلتها بالتالي لتكون قبلة الدنيا.

الأرض على رحابتها هي مسكن ومأوى الإنسان، وكما أن لكل إنسان خصوصيته، ولكل حقبة تاريخية خصوصيتها، فإن لكل بقعة جغرافية خصوصيتها، التي تميزها عن سائر بقاع الأرض، ويمكن أن تؤدي دورا في صلة الرحم البشري، بما لم تؤده بقعة غيرها.

دوما فإن الناس من مختلف أصقاع الأرض تجذبهم البقاع الجغرافية بالدرجة الأولى، ولذلك فإن أكثر الأماكن زيارة من قبل سكان الأرض، هي تلك الأماكن التي تتمتع بأكثر مساحة جغرافية من الآثار، والأوابد، والمساحات السياحية، وتلك الأماكن التي شهدت أحداثا

^{١٧} لمؤلفه شهاب الدين أبي الفتح محمد بن أحمد الأبيشي.

هامية في تاريخ الإنسان، ولكن تبقى للأماكن الدينية خصوصيتها وقوتها في صلة الرحم الإنساني.

عندما أتحدث عن مكة المكرمة، لا أشعر بأنني أتحدث عن قرية محلية في الوطن العربي، أو حتى في شرق الكرة الأرضية الأوسط، بقدر ما ينتابني شعور بأنني أتحدث عن قرية عالمية، تتمتع بكل مقومات التأثير والتأثير مع العالم، بمختلف تركيباته، وشعوبه، وقبائله، وألوانه.

القرية هنا تختلف عن مفهوم القرية المألوفة، وهي أعلى درجة من مفهوم المدينة، بمقاييس المدن، إنها هنا تشير إلى مكان تجمعي لكل أبناء العالم.

في سيرته الذاتية، يسرد (مالكوم إكس) بعض مشاهداته، عندما زار (مكة المكرمة) حاجا عام ١٩٦٤، يقول: "لقد منَّ الله عليّ فحججتُ البيت، وطفْتُ به، وشربت من ماء زمزم، وسعيت بين الصفا والمروة، وصليت في منى، ووقفت بعرفات، مع عشرات الآلاف من الناس القادمين من كل أرض، والذين يمثلون كل درجات الألوان البشرية، من الشقر ذوي العيون الزرق، إلى الأفارقة السود، فأديت معهم المناسك نفسها، في إحاء ووحدة، كنت أحسب من تجربتي في أمريكا أنهما أمران مستحيلان بين الإنسان الأبيض والأسود".

يسجل هذا الرجل المفكر شهادة بأن هذه البقعة مؤهلة لأن تقوم بدور عالمي، يمكن له أن يجعل الناس أكثر ترابطا، وأكثر إحاء، وأكثر

مودعة.

بطبيعة الحال مهما تحدث المرء، وتوسع به الحديث، عن (مكة المكرمة)، فإنه لا يستطيع أن يقول كل شيء عنها، كونها لا تشبه أي بقعة من بقاع الأرض، وتنفرد بخصوصية تميزها عن سائر القرى في العالم، إضافة إلى أنها ترمز إلى تبادلية العلاقة بين القرية والمدينة، بما في ذلك من تحولات مجتمعية وبيئية، وكذلك توازنية.

الحديث عن (مكة المكرمة)، هو حديث عن الإشراق الأولى للإسلام على هذا العالم.

تتمتع (مكة المكرمة)^{١٨} بميزة ليست لغيرها، من بقاع الأرض.

^{١٨} مكة المكرمة هي منارة المسلمين، وهي منارة الخير والبركة، قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: والله إنك لخير أرض وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت. رواه أحمد والترمذي، وهو حديث صحيح.

ولما استعمل عتاب بن أسيد على (مكة) أوصاه صلى الله عليه وسلم: يا عتاب أتدري على من استعملتك؟ على أهل الله تعالى، فاستوص بهم خيرا.

وقال: إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة: لا يعضد شوكة، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته، إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه.

وكما أن مكة المكرمة تتميز عن سائر بقاع الأرض، فإنها أيضا تتميز بغنى الأسماء التي تتمتع بها دون غيرها، فلها أكثر من ثلاثين اسما، منها: مكة، بكة، أم القرى، البلد الأمين.

والأسماء الأربعة ورد ذكرها في القرآن الكريم صريحا. قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنْ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ).

(مكة) التي هي (قبلة الدنيا) يتجه إليها الناس، من كل بقاع الأرض، لزيارة الكعبة المشرفة، وهي التي تحتفظ ببيت ولد فيه نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، ذاك المكان الذي يسمى (سوق الليل)، وفيها بيت أم المؤمنين الأولى السيدة (خديجة) رضي الله عنها، التي أنجبت فيه كل أبناء النبي صلى الله عليه وسلم، وهي البقعة الوحيدة على سطح الكرة الأرضية، التي يتجه فيها سكانها إلى القبلة من الجهات الأربع.

العلاقة بين مكة والمدينة هي علاقة تبادلية وتكاملية.

في (مكة) نزلت أول آية من آيات القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم تتالى نزول القرآن الكريم إلى أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى (المدينة)، لتؤسس الهجرة لمرحلة انتقالية جديدة من مراحل نشر الدعوة.

لقد لبث في (المدينة)، بيد أن العلاقة بدأت تأخذ تكامليتها، لأن

وقال: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ).
وقال عز وجل: (وَإِذْ كَتَبْنَا مُبَارَكًا مُّصَدِّقًا الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا).

وقال تقدست أسماءه: (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين).
ومن أسماء مكة التي وردت في القرآن الكريم أيضا: الوادي، معاد، البلدة، البلد، القرية.
ومن أسماء مكة المكرمة التي لم ترد في القرآن: الباسة، الناسة، النساسة، الحاطمة، صلاح، القادس، كوئي، المسجد الحرام، البيت العتيق، أم رحم، أم زحم، الرأس.

القبلة لبثت في (مكة)، وهذا يرمز بأن الرسالة هي ليست مكية فحسب، بل هي مدنية أيضاً، والمدينة هنا ترمز إلى رحابة العالم، إنها ليست المدينة المنورة فحسب، على قدر ما هي المدينة الكونية. هنا يمكن أن أقول بأن الإسلام منذ هذه المرحلة بدأ في النداء العولمي، من أجل أن يكون عالم الإنسان عالماً واحداً، مع الحفاظ على خصوصيات المجتمعات.

في كتابه "رحلة حاج أمريكي إلى مكة"، يقول (مايكل وولف): "رحلة تعطي الفرصة للحاج ليستعيد شيئاً من المساحة النقية في حياته. هذا كشيء مركزي في هذه الفريضة، هو أمر ثمين جداً، لأننا جميعاً نضيع في هذا العالم". وفي حوار لجريدة "سان خوزيه ميركوري" الأمريكية يقول (وولف): "عندما ترى الكعبة لأول مرة، تنظر إليها بعد أن تكون قد صليت باتجاهها لسنوات، لتجدها رائعة جداً، وجميلة جداً. الناس دائماً يكونون عندما يرون الكعبة، بالرغم من كونها مبنى مربعاً بسيطاً.

عندما تؤدي الطواف تشعر بإحساس عظيم من السمو الروحي، ولكن في الوقت نفسه تحس بالتجمع الهائل والتكامل مع الآخرين، وهذا يجعلك تسمو روحياً، دون أن تشطح عن حدودك الجسدية، واتزانك الطبيعي".

يقول الإمام الغزالي في كتابه "جواهر القرآن" ^{١٩}: سر القرآن،

^{١٩} أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، جواهر القرآن، تحقيق، د. محمد رشيد رضا القباني (ط١، بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٨٥).

ولبابه الأصفى، ومقصده الأقصى، دعوة العباد إلى الجبار الأعلى، رب الآخرة والأولى، خالق السماوات العلى، والأرضين السفلى، وما بينهما، وما تحت الثرى، فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع: ثلاثة منها هي السوابق، والأصول المهمة، وثلاثة هي الروادف والتوابع المغنية المتممة. أما الثلاثة المهمة فهي:

١ تعريف المدعو إليه.

٢ وتعريف الصراط المستقيم، الذي تجب ملازمته في السلوك إليه.

٣ وتعريف الحال، عند الوصول إليه.

وأما الثلاثة المغنية المتممة - فأحدها: تعريف أحوال المحييين للدعوة، ولطائف صنع الله فيهم، وسره ومقصوده: التشويق والترغيب. وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة، وكيفية قمع الله لهم، وتنكيله بهم، وسره ومقصوده: الاعتبار، والترهي. وثانيها: حكاية أحوال الجاحدين، وكشف فضائحهم، وجهلهم بالمجادلة والحاجة على الحق، وسره ومقصوده، في جنب الباطل: الفضح والتنفير، وفي جنب الحق: الإيضاح والتشبيث والتقهير. وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد.

حدود الله هي حدود تحدد للإنسان مسار حياته، أي هي ليست حدود تفصلك عن أذى الله، بل هي حدود تفصلك عن أذى نفسك أولاً، ومن ثم أذى الناس، فأنت شخص متزوج، وليس من مانع في أن تأتي زوجك أتى شئت، بيد أنك ترى حدّ الله عندما تحيض زوجك:

هل إذا تجاوزت حدّ الله، وأتيت زوجك، ستؤذي ذات الله، أم أنك تؤذي ذاتك، وتلحق الأذى بزواجك؟!

عندما ترى ميتة على الطريق، و ترى حد الله من تناول لحم هذه الميتة، بيد أنك تتجاوز حد الله، وتأكل من هذا اللحم: هل ستلحق أذى بالله، أم يلحق أذى بك؟!

عندما يودع شخص أمانة لديك، فيقضي حدّ الله أن تؤدي الأمانة إلى صاحبها، بيد أنك تجاوزت هذا الحد، وأنكرت على المؤمن أمانته: هل تؤذي الله، أم تؤذي نفسك، وتلحق الأذى بمن ائتمنك؟!

يمكن لك أن تأخذ مقاسا في ذلك على سائر حدود ربك، فهذه الحدود تُزال عندما تأتيها ببابها الطيب المشروع العلني، كذلك الدولة التي تشرع لك أبوابها ببسمة ومباركة، عندما تطأ قدماك تلك الأبواب، كالصديق الذي يلقاك بقبلاات، ويأخذك في حضنه، عندما يراك تطرق الباب، وتستأذنه الدخول.

فعندما ترى حدّ الله في الفاحشة، فإنك تجد الإذن في عقد القران، عندما ترى حدّ الله في الميتة، فإنك تجد الإذن في لحم طيب، عندما ترى حدّ الله في السرقة، فإنك تجد الإذن في العمل للحصول على مال.

هذه أمور يمكن لك أن تلمسها وتراها بشكل مباشر، لكن هناك أمور تكمن في الحدود، لا تلمسها إلا بعد رده من زمن، وهكذا كلما يلتزم المرء حدود ربه، فإنه يكتشف بشكل تدريجي أن كل ما نهى الله الإنسان عنه، له فيه مصلحة، وله في ممارسته مفسدة، في ماله وبدنه وجاهه.

حياة لا إله فيها، أرض خالية من نفحات الله، إنسان لا رب له، ينهض الناس صباحا فلا يجدون أثرا لشرع الله في الأرض، يدركون بأن الله تخلى عنهم، ألغى مفعول كتبه ورسله وتشريعه فيهم.

إنهم يعيشون خارج النظام الإلهي، وليفعلوا ما يفعلون، لن يشملهم البعث، الحسنة والسيئة سيان، لا عقاب ولا ثواب، لا جنة ولا جحيم. إنها حياتهم الدنيا، وينتهون إلى عدم.. لتتخيل واقعا كهذا، وما الذي يمكن أن يؤول إليه حال إنسان يقف في قلب واقع كهذا. ستتحوّل الحياة إلى غابة حقيقية، وسيكتشف الإنسان، بأن كل الموانع والسلطات الدنيوية، لا تستطيع أن تصمد في وجه فلتان الإنسان من حدود ربه، ولن يكون بوسع الحياة أن تستمر قرنا واحدا في غياب الله عنها، وهي التي استمرت ملايين السنوات، وازدهرت سنة بعد سنة، قرنا بعد قرن، لحدود الله فيها:

فالأجل أي شيء يقدم الإنسان على حسنة، ولأجل أي شيء لا يقدم على اقتراف سيئة.

لأجل أي شيء يصدق، ولأجل أي شيء لا يكذب.

سيتين للناس بأن وجود الله هو الذي كان يحد من ارتكاب كل هذه الجرائم الكبيرة، والصغيرة، التي باتت ترتكب دون ضابط، سيتين للناس بأن وجود الله هو الذي كان يجعل الغني يزكي بماله على المحتاج، سيكتشف بأنه غير قادر على الاستمرار في الحياة دون رب، ولن تبقى له غير الذكرى مما قد سلف: "إن ربكم عز وجل رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا إلى

سبعمائة، إلى أضعاف كثيرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها - خشية الله - كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة، أو يمحوها الله عز وجل" ٢٠

يكون طويلا على خسارتهم الفادحة التي لا تعويض فيها، وللتو يدركون معنى حديث النبي عن ربهم: "لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، ما ظهر منها، وما بطن".

ويذكرون ما حفظت ذاكرتهم من كلام الله، كأنهم يذكرون لأول مرة، يستوعبون معناه لأول مرة: ((فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء)) ٤.

٢٠ رواية الإمام أحمد عن النبي فيما يرويه عن الله، رواه البخاري ومسلم

الفصل الثالث

خصائص العلاقة بين الإرسال الإلهي والتلقي البشري

شاء الله تبارك وتعالى أن يتخذ رسولاً من الناس أنفسهم، يمشي في الأسواق، ويأكل الطعام، ويحمله أمر إبلاغ رسالته إلى الناس كافة، وقد نجح الرسول في إبلاغها بأمانة، رغم كل ما لقيه من مشاق، وهجرة عن الديار.

تتمتع خصائص هذا الإرسال من خلال ثلاثية هذا العلاقة: بين الله كمرسل، وبين الرسول كمبلّغ، وبين الناس كمتلقين، بمزايا الخطاب اللغوي الذي هو تكريم للإنسان الذي أكرمه الله تعالى بقسمة العقل، ثم وجه خطاباً إلى عقله، هذا العقل الذي تكلم بنعمة اللسان، الذي ينطق عنه، وهو يخاطب عقلاً آخر، فيكون حديث الناس، حديث العقول للعقول.

لقد أكرم الله تعالى الإنسان بنعمة العقل، بحيث يستطيع الإنسان أن يخطو خطوات متقدمة في درجات السلوك والعمل والإنتاج الإنساني، حتى يُعرف برجاحة عقله، والعقل يستنير بالدين، حيث يرتقي الإنسان على قدر ما يتمتع به من دين وعقل.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له : أقبل، فأقبل . ثم قال له : أدبر، فأدبر . فقال عز من قائل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعز علي منك، بك آخذ ،

وبك أعطي ، وبك أحاسب ، وبك أعاقب .
وقال صلى الله عليه وسلم : الجنة مائة درجة ، تسع وتسعون منها
لأهل العقل ، وواحدة لسائر الناس .

تبوأ العقل أهمية قصوى ، بحيث يتم تقييم الناس ومواقفهم ، على
قدر ما يتمتعون به من عقول نيرة ينفعون بها أنفسهم ، وينفعون عامة
الناس . فالذكاء ، والمهارة ، والحكمة ، والحلم ، دليل رجاحة العقل .
ورد العقل في القرآن الكريم في آيات عديدة ، فكان ذلك بمثابة
منارة لتعريف العقل ، ومن هذه الآيات التي أوردها القرآن الكريم في
ذكر العقل :

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة/ ٤٤ .

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ
وَنِدَاءَ صُمٍّ بُكْمٍ عُمِّيٍّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة/ ١٧١ .

﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ آل عمران/ ١١٨ .
﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ الأنعام/ ٣٢ .

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾
الأنفال/ ٢٢ .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ
لَا يَعْقِلُونَ ﴾ يونس/ ١٠٠ .

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ

صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانَ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَتُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿الرعد/٤﴾ .

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الأنبياء/١٠ .
﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾
العنكبوت/٤٣ .

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ يس/٦٢ .
﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الزخرف/٣ .
﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾
الملك/١٠ .

بعد قراءة هذه الآيات، ندرك بأن الإنسان يرتقي في درجات تلقي معاني القرآن الكريم على قدر ما يتمكن من توظيف طاقاته العقلية بشكل إيجابي، فيمسي القرآن بالنسبة إليه كتاب تحولات كبرى في محطات حياته، وعنداك يُقال عنه بأنه إنسان عاقل .

إن هذا الإنسان يتميز بأنه يتمكن من توظيف إمكاناته وقدراته العقلية بشكل يتسم بالحكمة والتوازن، وبالتالي يغدو مثلاً في رجاحة عقله وسداد رأيه.

يتميز الإنسان على قدر ما يتمتع بعقل، ويتميز أكثر على قدر ما يوظف هذا العقل في سائر وقائع حياته اليومية، فالعقل نعمة، وكذلك يمكن أن يودي بصاحبه إلى المهالك، إذا استخدمه في سبيل منحرفة تحتاج إلى شيء من ذكاء ورجاحة عقل.

من هنا لم يكن الحكم على الإنسان العاقل، بل كان الحكم على

الإنسان الذي استخدم هذا العقل في سبيل تقديم النفع للناس. في تعريفه للعقل يقول ابن خلدون: "إن العلوم التي يخوض فيها البشر، ويتداولونها في الأمصار، تحصيلاً وتعلماً، على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه. والأول هو العلوم الحكمية والفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها، حتى يقف نظره وبحته على الصواب من الخطأ فيها، من حيث هو إنسان ذو فكر، والثاني هو العلوم النقلية الوضعية، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول".

كذلك يعرف الكندي العقل بأنه: "جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها"، ويعرف ابن سينا هذا الجوهر بأنه: "ليس مركباً من قوة قابلة للفساد"، ويرى الجرجاني بأنه: "مجرد عن المادة في ذاته، مقارن لها في فعله".

يتحدث الفارابي عن تعريفه لجوهر العقل، فيقول: "إن القوة العاقلة جوهر بسيط مقارن للمادة يبقى بعد موت البدن، وهو جوهر أحدي، وهو الإنسان على الحقيقة".

وفي تعريف لأرسطو يقول فيه: "إن العقل الفاعل هو العقل الذي يجرد المعاني أو الصور الكلية من لواحقها الحسية الجزئية، على حين أن العقل المنفعل هو الذي تنطبع فيه هذه الصور".

في كتابه "الأضواء البهجة في إبراز دقائق المنفرجة"، يذكر زكريا الأنصاري بعض تعريفات للعقل، ومما يورده عن تعريف الإمام الغزالي للعقل: العقل اصطلاحاً يقال بالاشتراك لأربعة معان: أحدها: غريزة ينتهياً بها لدرك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء.

ثانيها: بعض العلوم الضرورية.

ثالثها: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال.

رابعها: انتهاء قوة تلك الغريزة إلى أن تعرف عواقب الأمور، وتقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة وتقهرها.

ويشتهر أن يكون الاسم لغة واستعمالاً لتلك الغريزة، وإنما أطلق على العلوم مجازاً، من حيث إنها ثمرتها، كما يعرف الشيء بثمرته، فيقال: العلم هو الحشية.

أما الرازي، فيقول في مفهومه للعقل بأنه:

غريزة يتبعها العلم بالنظريات، عند سلامة الآلات.

ويرى الإمام أبي إسحاق الشيرازي أن العقل صفة يميز بها بين الحسن والقبيح.

ويقول الإمام الشافعي: العقل آلة التمييز.

وقد أورد بعض التعريفات لحكماء، منها:

- العقل جوهر مجرد غير متعلق بالبدن، تعلق التدبير والتصرف.
- العقل جوهر مجرد عن المادة في ذاته، مقارن لها في فعله، وهو النفس الناطقة التي

يشير إليها كل واحد بقوله: أنا.

- العقل جوهر لطيف في البدن، ينبعث شعاعه فيه كالسراج في البيت.

أما عن موقع العقل، كما يورد:

محل العقل الدماغ، عند أكثر الحكماء، وبعض الفقهاء.

ومحل القلب عند أكثر الفقهاء، وبعض الحكماء، وذكر عن الشافعي استشهاده بقول الله: "ولكن تعمى القلوب التي في الصدور"، وأما فساده لفساد الدماغ، فلا يدل على أنه محل جواز أن يكون سلامة الدماغ شرطاً في اتصاف القلب به عادة.

لا أقول إن العقل يختلف من إنسان إلى آخر، بمقدار ما أرى أن استخدام مزايا العقل يختلف ويتقدم من إنسان إلى آخر، فقد نرى إنساناً بالغ العقل والذكاء، بيد أنه لا يقدم شيئاً مجدياً في حياته، وقد نرى شخصاً متوسط العقل والذكاء، يقدم خدمات جلييلة للناس، ويغدو قدوة في الكثير من المواقف والأفعال.

من هنا يمكن مقارنة العقل ببذرة الزهرة، التي تينع وتنتفتح وتنشر شذاهها في الأفق في تربة ومناخ صالحين، وتلبث في أرضها دون أن تنتفتح في تربة ومناخ غير صالحين.

قيل لبعض الحكماء: بم يُعرف عقل الرجل؟

قال: بقلة سقطه في الكلام، وكثرة إصابته فيه، فقليل له: فإن كان

غائباً؟

فقال: بإحدى ثلاث: إما برسوله، وإما بكتابه، وإما بهديته، فإن

رسوله قائم مقام نفسه، وكتبه يصف نطق لسانه، وهديته عنوان همته.
 أنت قوي بعقلك "العاقل لا تبطره المنزلة السنية، كالجبل لا
 يتزعزع وإن شئت عليه الريح، والجاهل تُبطره أدنى منزلة،
 كالحشيش يحركه أدنى ريح".

في حديث للأصمعي عن مظهر الإنسان ومضمونه، يقول: رأيت
 بالبصرة شيخاً له منظر حسن، وعليه ثياب فاخرة، وحوله حاشية
 وهرج، وعنده دُخْلٌ وخرج، فأردت أن أختبر عقله، فسلمت عليه،
 وقلت له: ما كنية سيدنا؟

فقال: أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين.

قال الأصمعي: فضحكت منه، وعلمت قلة عقله، وكثرة جهله.

وفي ذلك يقول مبشر بن الهديل الفزاري شعراً:

ولا خير في حُسن الجسوم وطولها

إذا لم تزن حُسن الجسوم عقول

استوقفتني تعريفات للعقل لبعض أهل العلم والأدب، وهي

تعريفات هامة، منها:

إن أعجب لشيء، فعجبي لرجال تنمو أجسامهم ، وتصغر عقولهم.

(الأحنف بن قيس).

عقل الكاتب في قلمه، والكلام الحسن مصايد القلوب. (القاسم بن

عبد الله).

دعامة العقل الحلم. (محمد عبد الله الأليلى).

الصدق دعامة العقل. (أبو سهل النيلي النيسابوري).

- خير العاقل مرجو على كل حال، وشر الجاهل مخوف على كل حال. (أبو سهل الجرحاني).
- الحلم غطاء ساتر، والعقل حسام قاطع، فاستزحل خلقك بحلمك، وقاتل هواك بعقلك.
- العقل حفظ التجارب.
- كفاك من عقلك ما أوضح لك سبل غيبك من رشذك.
- أعقل الناس أعذرهم للناس.
- العاقل إذا سكت فكر، وإذا نطق ذكر، وإذا نظر اعتبر.
- دليل عقل المرء فعله، ودليل علمه قوله. (علي بن أبي طالب).
- من نظر بعين العقل، ورأى عواقب الأمور قبل بوادرها، لم يجزع بحلوها. (أرسطو).
- كل شيء يحتاج إلى العقل، والعقل تجارب. (عبد الملك بن مروان).
- العقل مكيال، ثلثه فطنه، وثلثاه تغافل. (معاوية بن أبي سفيان).
- إن فيك عقلاً، وإن فيك جهلاً، فدأو بعض ما فيك ببعض. (محمد بن كعب).
- عليك بالتماس رضا الأخيار وذوي العقول. (عبد الله بن المقفع).
- العاقل من عقل لسانه، والجاهل من جهل قدره. (ابن المعتز).
- كما أن الحقل يجب أن يُحْرَثَ ويُزْرَعَ، قبل أن نأخذ منه محصولاً، فكذلك يجب أن يُعَدَّ العقل ويجهز للنجاح. (توماس جاي هيدسون).
- العقل إنه الشيء الوحيد الذي يقض مضجع المجانين. (أندريه جيد).

آفة معظم الناس أنهم يفكرون بآمالهم أو مخاوفهم أو أهوائهم، لا بعقولهم. (ولتر دورانت).

إن كل شيء مُعدّ، إذا كانت عقولنا كذلك. (شكسبير).
عقول الناس مدونة في أطراف أقلامهم، وظاهرة في حسن اختيارهم. (أفلاطون).

قال أيوب بن القريّة: الناس ثلاثة: عاقل، وأحمق، وفاجر. فالعاقل: الدين شريعته، والحلم طبيعته، والرأي الحسن سجيته. إن سُئل أجاب، وإن نطق أصاب، وإن سمع العلم وعى، وإن حدث روى. أما الأحمق: فإن تكلم، خجل، وإن حدث، وهل، وإن استنزل عن رأيه، نزل.

وأما الفاجر: فإن ائتمنته خانك، وإن حدّثته شانك، وإن وقفت به، لم يركك، وإن استكنتم سرّاً، لم يكتنم، وإن علم، لم يعلم، وإن حدث، لم يفهم، وإن فقه، لم يفقه.

العقول: دينية، وفلسفية، وعلمية، ورياضية، وفنية.

الدينية: تعرف الإيمان بما لا تعلم، ثقة بما تعلم.

الفلسفية: تنتقل من المشاهد إلى المجرد، ومن الأفراد إلى الأنواع.

العلمية: تعرف التجربة، والفرض الذي تبنى عليه التجربة.

الرياضية: كالعلمية، لولا حقائق الذهن التي لا تجربة فيها.

الفنية: ترمز للحقيقة بالخيال، وللخيال بالحقيقة، وتجمع بين مشاهد الواقع، وقيم الجمال. (عباس محمود العقاد).

الغضب ريح تهب، فتطفئ سراج العقل. (روبرت أنجوسول).

لا يَقْدِرُ العقل، ولا اليد، أن يفعلاً كثيراً، إذا تُركا وحدهما، ولا يتم عمل إلا بأدوات ومعونات، يحتاج إليها العقل، كما تحتاج إليها اليد. (فرنسيس بيكون).
أحسن مقياس لعقلية الإنسان، أهمية الموضوعات التي يتجادل فيها.

(جان لافونتين).

ما تمّ دينُ رجل، حتى يتم عقله. (الحسن بن علي).
من لم يتحرر من عقله بعقله، هلك من قبل عقله. (عبد الله بن السماك).

العقل الباطن يستطيع أن يفكر أحكم تفكير فيما يهمننا من الشؤون، وأن يحل أعقد مشكلاتنا، وهو يستعين - حين يعالج شؤوننا - بقدر من الحكمة والتجربة، يفوق كثيراً ما يتاح منهما للعقل الواعي.
(روبرت أوجراف).

- العقل وحده هو الذي ميز بين لذائذ الحياة، وقدرها قدرها من القيمة، وأنزلها منازلها من الاعتبار، وهو الذي صور صورها المرغوبة فيها أو عندها، وحدد قيود وأسباب توفر السعادة، وكل ما قدره يكون حظه في القرب من الحقيقة، أو البعد عنها، على قدر حظ العقل نفسه من القوة والتمييز والعلم والتربية.
- كل ما تقع عليه العين يكون من أسباب السعادة، أو الشقاء، بحسب تقدير العقل. (جان فينوت).
كلام العاقل كله أمثال، وكلام الجاهل كله ملال. (نيسابور بن

أردشير).

غضب العاقل في قوله، وغضب الجاهل في فعله. (مثل عربي).
الجاهل يؤكد، والعالم يشك، والعاقل يتروى. (أرسطو).
دعامة العقل: الحلم، وجماع الأمر: الصبر. (أكثم بن صيفي).
وجّه ناظريك إلى داخلك، وستجد ألف منطقة في عقلك لم تُكتشف
بعد، وكن خبيراً في علم تركيب الكون الداخلي .

(هنرى دافيد ثورو).

إن الحياة القريبة من العظام العقلاء هي أحلى حياة، وسيدفع ذلك
عنك أن تصبح تافهاً. (هنرى دافيد ثورو).

– إذا كان لك عقل، فلك فضل، وإن كان لك تُقى، فلك دين،
وإن كان لك مال، فلك حَسَب.

– العقول مواهب، والعلوم مكاسب. (سقراط)

الفرق بين عقول البشر يتوقف على اختلاف قوة الانتباه فيهم،
أكثر مما يتوقف على اختلاف بقية قوى العقل. (أدجورث).

الرجل العاقل يكيّف نفسه حسب ظروف الحياة، ويحاول غير
العاقل أن يكيّف العالم وفق إرادته، ولذا كان العالم مديناً لغير العاقل
بتقدمه. (جون تاننر).

قلوب العقلاء حصون الأسرار. (ابن المعتز).

إذا قوي العقل، كثر يقينه، وإذا ضعف، كثر شكه. (ابن المعتز).

عدوك ذو العقل أبقى عليك، وأرعى، من الوامق الأحمق. (الزهري).

حق على العاقل أن يتخذ مرآتين: إحداهما في مساوى نفسه،

فتتصاغر بها، وينظر بالأخرى في محاسن الناس، فيجلبهم بها، ويأخذ ما استطاع منها. (عبد الله بن المقفع).

– كل شيء يطأطيء لقوة العقل البشري. (جوستاف لوبون).
من خلال كل تلك الأقوال، التي انتقيتها من جملة قراءاتي، يتبين لنا كيف أن العقل الإنساني، يستنير بالعقل الإنساني كذلك، في عملية تبادلية للخبرات البشرية.

العقل هو ممارسة وسلوك ومواقف عاقلة حكيمة، تعود بالنفع على ذات الإنسان العاقل، وكذلك على الآخرين.

عندما يتمتع الإنسان بعقل سليم، فإنه يستطيع أن يعيش حياة سليمة، وعندما لا يتمتع بعقل سليم، فإنه يعجز أن يعيش حياة سليمة. الإنسان هو عقله، وإنسان بدون عقل، يفقد الكثير من مزايا إنسانيته، ولذلك فلا يُنظر إليه أيضاً على أنه إنسان متكامل، سواء في المجتمع، أو في التشريع السماوي، أو القانون الوضعي .

إن العقل هو مسؤولية جسيمة تقع على عاتق الإنسان، ولذلك فإن الإنسان المجنون يلقي العفو عن سائر ما يقوم به من تصرفات وسلوكيات غير عاقلة، ذلك أن مسؤولية العقل محجوبة عنه، وبالتالي فإنه بالمقابل لا يتمتع بمنزلة من يتمتع ويتحمل مسؤولية العقل .

التلقي القرآني بين العقل واللسان

لا يتلقى قارئ القرآن لباب ما يقرأ مجرد التلقي فحسب، بل إن هذا التلقي ينعكس على سلوكه: من أقوال وأفعال، وهو من خلال لسانه يستطيع أن يوسع دائرة التلقي القرآني، ولذلك ربط القرآن الكريم بين العقل وبين اللسان، فجعل مسؤولية اللسان كمسؤولية العقل، وهنا سوف أتناول مدى تأثير القرآن في بث مسؤولية اللسان عند القارئ المتدبر، إذ يتميز الإنسان دون سواه من مخلوقات الأرض، بلسان بليغ، يمكن أن يرفعه إلى درجات متقدمة في صفوف البشر، ويمكن أن ينحدر به إلى درجات سفلى من درجات الخزي.

الإنسان هو لسانه، واللسان يمثل شخصية حامله، لكن ثمة إنسان يقود لسانه، وثمة آخر ينقاد خلف زلات لسانه. وهناك زلات لسان أحدثت وقائع وأحداثاً كبرى في التاريخ البشري، وكان أصحابها يرددون، في محاولات للتراجع عما قالوا: إنها كانت زلات لسان. لكن الناس يأخذون الأمر على محمل الجد، حتى لو كانت بالفعل هي زلات لسان حقيقية، لأن هذه الزلات لا تنطلق من فراغ، ولها خلفياتها المتوارية، المخفية، كما يتفضل علماء التحليل النفسي بتحليلها، وفق شروحاتهم، وتفاصيلهم المملة أحياناً.

لسان الإنسان هو من الألغاز التي ما تزال البحوث والدراسات، والتحليلات، تدور حولها، دون أن تبلغ مرحلة الاستقرار، وحقيقة الأمر فإن كل بحث يقود إلى بحث آخر، وكل بحث جديد هو فتح باب

أمام منهج جديد، للبحث عن أسرار هذا العضو العجيب، الذي يتخصص به الإنسان، ويتحمل مسؤوليته كذلك، دون مخلوقات الأرض.

يَعْلَمُ الْقُرْآنَ قَارِئُهُ سَبِيلَ التَّعَامُلِ مَعَ لِسَانِهِ، وَيَجْعَلُهُ يَتَعَرَّفُ عَلَى حَرَكَاتِ اللِّسَانِ.

يقول القرآن الكريم لقارئه:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ آل عمران/٧٨.

﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء/٤٦.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ النحل/٦٢.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النور/٢٤.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ الفتح/١١.

﴿إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ المتحنة/٢ .

يتميز الإنسان الحكيم بأنه أول من يصمت، وآخر من يتكلم، ويتميز الإنسان المتسرع بأنه أول من يتكلم، وآخر من يصمت. ولذلك يقال: إذا كان الكلام من فضة، فإن السكوت من ذهب.

يقول الإمام الشافعي:

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الأقران
وهناك الكثير من الأمثلة الشعبية تشير إلى عظمة مسؤولية اللسان، وتحذر الناس من ألسنتهم، سواء أكانت مقصودة، أم كانت زلات، لأن الكلمة تذكر بصاحبها. ولذلك قالت الحكمة الشعبية: "لسانك حصانك، إن صنته صانك، وإن خنته خانك".

ربما لا يعرف الإنسان قيمة لسانه إلا إذا فقده، ولعل فاقده الصوت هو أكثر الناس إدراكاً لقيمة معاني الكلمات.

يسعى (دي سوسير) نحو تعريف للسان، قائلاً بأنه: نسق من العلامات المميزة، التي تتوافق مع أفكار هي بدورها مميزة.

ويرى أن اللسان، من حيث هو نسق اجتماعي، هو ممارسة فردية. ففي اللسان يحذف "الجوهر" السمعي و النفسى، لكي يقع الاحتفاظ، في الأخير بـ الشكل، أي العلاقات المتفاضلة والمتقابلة بين عناصر، سواء كانت صوتيات Phonèmes ، أو قواعد نحوية، كما يفسر (سوسير).

يتألف اللسان من أربع مناطق:

- أقصى اللسان.
- وسط اللسان.
- حافة اللسان، أو حافتي اللسان.
- طرف اللسان.

وقد ورد في الصحاح بأن اللسان: جارحة الكلام، وقد يكنى بها عن الكلمة، فتؤنث حينئذ.

عن (بلال بن الحارث المزني) أن النبي قال: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة". (أخرجه البخاري).

وكان علقمة يقول: "كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث".

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق". (أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما).

وفي رواية لمسلم: "إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين فيها، يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب".

وفي حديث معاذ الطويل، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ (قال معاذ: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه،

ثم قال: كَفَّ عليك هذا. (قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، إلا حصائد ألسنتهم". (أخرجه الترمذي في سننه وقال حسن صحيح، وصححه الألباني).

وفي حديث سهل بن سعد، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه، أضمن له الجنة". (أخرجه البخاري).

وفي آخر حديث سفيان بن عبد الله، قال في آخره: قلت يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه، وقال: هذا. (أخرجه مسلم).

ذات يوم جلس الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، فجاء رجل وشم أبا بكر الصديق وآذاه، فسكت أبو بكر، ولم يرُدُّ عليه، فشمته الرجل مرة ثانية، فسكت أبو بكر، فشمته مرة ثالثة، فرد عليه أبو بكر، فقام صلى الله عليه وسلم من المجلس وتركهم، فقام خلفه أبو بكر يسأله: هل غضبت عليّ يا رسول الله، فقمت؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (نزل ملك من السماء يكذِّبه بما قال لك، فلما انتصرت (أي رددت عليه) وقع الشيطان (أي: حضر)، فلم أكن لأجلس، إذ وقع الشيطان). (رواه أبو داود).

وكانت السيدة عائشة تجلس مع النبي صلى الله عليه وسلم، فأقبلت عليهما أم المؤمنين السيدة صفية بنت حُيَي، فقالت السيدة عائشة للنبي: حسبك من صفية كذا وكذا - تعني أنها قصيرة - فقال

لها النبي: "لقد قلت كلمة لو مُرِجَتْ بماء البحر لَمَزَجَتْهُ (عَكَرْتَهُ)".
(أبو داود والترمذي).

يقول الله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ق/ ١٨.
وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها
تُكْفَرُ اللسان (تذل له وتخضع) تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن
استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا". (الترمذي). وقال صلى
الله عليه وسلم: "لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم
قلبه حتى يستقيم لسانه". (أحمد). وقال ابن مسعود: "والذي لا إله
غيره، ما على ظهر الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان".
كما روي عن النبي "صلى الله عليه وسلم" أنه قال: "لا تكثروا
الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب،
وإن أبعده الناس عن الله القلب القاسي". (الترمذي).
وعندما سئل النبي "صلى الله عليه وسلم": أي الإسلام أفضل؟
قال: "مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ". (متفق عليه).

وقال عقبة بن عامر: يا رسول الله، ما النجاة؟ فقال: "أمسك
عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابتك على خطيئتك". (الترمذي).
يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا مَرُوا بِاللَّغْوِ مَرُوا كِرَامًا﴾ الفرقان/
٧٢. ويقول صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر
فليقل خيراً أو ليصمت". (متفق عليه).

والغيبية تقع عن طريق اللسان، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ
بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ

الله تواب رحيم ﴿الحجرات / ١٢ .

وحدّث النبي "صلى الله عليه وسلم" صحابته من الغيبة، فقال:
(أندرون ما الغيبة)؟

قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: (ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ)، فقال أحد الصحابة: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ فقال "صلى الله عليه وسلم": (إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ) (مسلم).

ويروى أن امرأتين صامتا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكانتا تغتابان الناس، فعلم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال عنهما: "صامتا عما أحل الله، وأفطرتا على ما حرم الله" (أحمد)، أي أنهما صامتا عن الطعام والشراب، وأخذتا تتحدثان وتخوضان في أعراض الناس، فلم يقبل الله صيامهما.

والغيبة عذابها شديد، وعقابها أليم يوم القيامة، قال النبي: "لما عُرِجَ بي، مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس، يَخْمِسُونَ وجوههم وصدورهم، فقلت: مَنْ هَؤُلَاءِ يا جبريل؟ قال: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم". (أبوداود).

لا أظن بأننا نحتاج إلى شيء يمكن أن يعلمنا الكثير، قدر حاجتنا إلى الإصغاء، لا أقول الإصغاء إلى الناس فقط، بل الإصغاء لكل صوت، وكل لسان.

إننا نحتاج إلى سماع مخلوقات الأرض، لا لسماعها فقط، بل لاكتشاف أبنيتها، واكتشاف لغاتها أيضاً.

القطعة عندما تكون جائعة، لا تصدر ذات المواء الذي تصدره وهي تتعرض لضربة اعتداء عليها، سواء من قبل إنسان، أو من قبل حيوان أقوى منها. ولا تصدر ذات المواء الوديع عندما نداعب رأسها برفق. والكلب يصدر نباحاً مختلفاً، بحسب المشاعر التي تنتابه، ويقدر ما يرغب في التعبير عما يرى ويحدث. ولذلك، فإن لغة الصوت ليست واحدة.

كذلك الأمر بالنسبة إلى ضغيب الأرنب، وزئير الأسد، وفحيح الثعبان، ونعيق الغراب، وخوار العجل، ونزيب الطي، وبفوم الفيل، وصرير الجراد، وصهيل الحصان، ونهيق الحمار، ومأمة الخروف، وهديل الحمام، وقعقة الصقر، وزمجرة الضبع، ونبيب التيس، ورغاء الجمل.

ونلاحظ بأن الطعام على النار يُصدر أصواتاً مختلفة، مع كل مرحلة من مراحل نضوجه.

يمكن لنا أن نتعلم من ذلك، بأن علينا ألا نقول جملة قبل حلول موعدها من الحديث، ومن الأحداث والوقائع.

ذكر الإمام مالك في (الموطأ) عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه دخل على أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) وهو يجيد لسانه، فقال عمر: "مه!! غفر الله لك"، فقال أبو بكر (رضي الله عنه): "إن هذا أوردني الموارد".

قال رجل: رأيت ابن عباس آخذاً بثمره لسانه، وهو يقول: "ويحك، قل خيراً تغنم، واسكت عن شرّ تسلم، فقال له الرجل: يا

ابن عباس، مالي أراك آخذاً بثمره لسانك، وتقول كذا وكذا؟ قال ابن عباس: بلغني أن العبد يوم القيامة، ليس هو على شيء أحق منه على لسانه". (أخرجه ابن المبارك وأحمد وأبو نعيم وأحمد في كتاب الزهد).

وقال عبد الله بن أبي زكريا: "عَالَجْتُ الصَّمْتَ عِشْرِينَ سَنَةً فَلَمْ أَقْدِرْ مِنْهُ عَلَى مَا أُرِيدُ"، وَكَانَ لَا يَدْعُ يَغْتَابُ فِي مَجْلِسِهِ أَحَدًا، يَقُولُ: "إِنْ ذَكَرْتُمْ اللَّهَ أَعَنَّاكُمْ، وَإِنْ ذَكَرْتُمْ النَّاسَ تَرَكَنَاكُمْ". وكان طاوس بن كيسان (رحمه الله) يعتذر من طول السكوت، ويقول: "إني جربت لساني، فوجدته لئيمًا راضعًا".

وذكر هناد في كتابه الزهد بسنده إلى الحسن أنه قال: "يخشون أن يكون قولنا: (حميد الطويل)، غيبة"، لأنهم بينوه ونسبوه أنه طويل. وأخرج وكيع في الزهد، وأبو نعيم في الحلية، من طريق جرير بن حازم، قال: "ذكر ابن سيرين رجلا، فقال: ذلك الرجل الأسود، ثم قال: أستغفر الله، إني أراني قد اغتبتته".

وكان عبد الله بن وهب (رحمه الله) يقول: "نذرت أني كلما اغتبت إنساناً أن أصوم يوماً، فأجهدي، فكنت أغتَابُ وَأَصُومُ، أَعْتَابُ وَأَصُومُ، فَنُوتِ أَنِي كَلِمَا اغْتَبْتِ إِنْسَانًا أَنْ أَتَصَدَّقَ بِدَرَاهِمٍ، فَمَنْ حَبَّ الدَّرَاهِمَ تَرَكَتِ الْغَيْبَةَ".

قال النووي في الأذكار: "بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تحصى، والذي أحصيته ثمانية آلاف

عيب، فوجدت خصلة إن استعملتها سترت العيوب كلها، قال: ما هي؟ قال: حفظ اللسان".

قال إبراهيم التيمي: "أخبرني مَنْ صَحَبَ (الربيع بن خثيم) عشرين عامًا، ما سمع منه كلمة تُعاب".

وقيل للربيع: "ألا تذم الناس؟ قال: والله إني ما أنا عن نفسي براض، فأذم الناس؟! إن الناس خافوا الله على ذنوب الناس، وأمنوه على ذنوبهم".

قال حماد بن زيد: بلغني أن (محمد بن واسع) كان في مجلس، فتكلم رجل، فأكثر الكلام، فقال له محمد: ما على أحدهم لو سكت، فتنقى، وتوقى.

وقال بكر بن المنير: سمعت أبا عبد الله البخاري يقول: أرجو أن ألقى الله، ولا يحاسبني أنني اغتبت أحداً.

للقرآن الكريم أثره الجلي على سائر ألوان وأجناس الآداب والفنون الإنسانية، بشكل عام، بحيث يمكنني أن أصنف هذه المنجزات الفكرية الإنسانية إلى مرحلتين انعطافيتين: مرحلة ما قبل نزول آي القرآن، ومرحلة ما بعد النزول، فإذا نظرنا إلى الآداب والمناهج الفكرية الإنسانية، التي اتسمت بالنبوغ، نراها لا تتمتع بالمزايا التي تمتعت بها في مرحلة ما بعد انتشار القرآن الكريم في الناس. وهذا أمر طبيعي في مواكبة الفكر، والمنجز، ومحطات تطور العبقرية البشرية، لأسباب وعوامل ومستجدات التطور.

لقد حصل هذا الانتقال مع سائر الكتب السماوية، فازدهار

الآداب مرّ بمراحل انتقالية مع كل رسالة سماوية، إلى أن انتهت بالمرحلة الانتقالية الانعطافية العظمى الأخيرة، مع رسالة خاتم الأنبياء والرسول.

لقد مرّت هذه الآداب بمراحل انتقالية تطويرية، على أيدي أشخاص اتسموا بقمم العبقورية والنبوغ البشري، من مختلف الحقب الزمنية، والبقاع الجغرافية، ويمكن أن يُقرن عصره بأكمله، باسم أديب ترك بصمة وأثراً على ارتقاء الإنسانية شطر الأحسن، بيد أن ذلك لا يكون بالمستوى المتقدم الذي تحقّقه الرسائل السماوية.

من هنا يمكن القول: إن القرآن أحدث هذا الازدهار الأكبر والأهم، في تاريخ نبوغ الفكر البشري، إذ ليس من أحد - على الإطلاق - يمكن أن يدّعي، أن القرآن لا يعنيه بشيء، لا من قريب، ولا من بعيد، ويعيش في العالم كما لو أنه لم ينزل فيه القرآن. فليس من أحد يمكنه الاستغناء عن القرآن، منذ نزوله، ذلك أن الناس جميعاً يجدون حاجاتهم، وكذلك تاريخهم، وحاضرهم، ومستقبلهم، في صفحات هذا الكتاب.

الآن، ونحن في قمة الانفتاح التكنولوجي، يمكننا ملاحظة فعالية القرآن، في مسير هذا الانفتاح، إلى درجة أننا نراه بطل هذا الانفتاح، ومساهما هاما في تكامله، وتواصله، واستمراريته، إذ ينير معظم قنوات التواصل في الناس، في رحابة العالم أجمع، وليس من شخص في رحابة العالم، مهما تعالي موقعه، وعظمت مسؤوليته، يمكنه أن يستغني عن عالم الإسلام، أو يدعو إلى قطيعة عنه. والأمر ذاته بالنسبة لأهل

المسؤولية في ديار المسلمين، إذ ليس من شخص يمكنه أن يدعو إلى قطيعة عن سائر العالم غير الإسلامي، أو يمتنع عن زيارة ديار عباد الله، في أرضه الواسعة.

إذن، العالم كله يتلاقح ببعضه البعض، ويتصل ببعضه البعض، ويحقق الديمومة، والألق الفكري، والتطور الإنساني، من خلال بعضه البعض، الذي هو كالجسد الواحد: إذا مرض منه عضو واحد، تداعت له بقية الأعضاء بالسهر والحمى.

ليس بوسعك، بأي حال من الأحوال، أن تنعم بطعام طيب موفور، وجارك إلى جانبك يتضور جوعاً.

إن المتقدم يدفع عن المتأخر ضربيته، عندما لا يتوفر لدى المتأخر ما يمكن له أن يدفعه نتيجة تأخره.

للمثل علي هذا، يمكننا أن نرى مثل هذه الظواهر، عندما نجد شخصاً مهمشاً في بلدة آمنة، متقدمة، ينعم أهلها برغد العيش، ودفء المسكن، وحرية القول والعمل والمعتقد، يقوم هذا الشخص المهمش، بإفساد حياة هذه البلدة عليها، وإزعاج سكانها في أمنهم ودفنهم، وهو يقدم على عمل شائن: يؤذي أطفالاً في مدرستهم، أو متنزهين في نزهتهم، أو عمالاً في مصنعهم، أو ركاباً في حافلتهم.

إذا نظرنا إلى سائر الذين يقومون بأعمال شائنة، سواء في جنابات مجتمعاتهم، أو في جنابات مجتمعات أخرى، سنجد شيئاً من الانحراف في سلوكهم، نقع على شيء من نمط التهميش الذي يمضون في دركه الأسفل، أو الفاقة، أو الجهل في شخصياتهم. إذ ليس من كائن طبيعي

سوي، متمتع بسوية علاقات المجتمع، أن يقدم على قتل أطفال في مدرسة، أو يطلق الرصاص بشكل عشوائي في أناس يتسامرون في ملهى، أو اختطاف ضيوف يتسوحون، ويلتقطون صوراً تذكارية في أرض الله الواسعة.

إن المثل الذي ضربه نبي الإسلام، يعطي تصوراً عن عائلية المجتمع الإنساني المتناسك، ولذلك كان يقول: أوليست نفساً؟

إن الجسد هنا هو جسد الإنسان، والنفس هي نفس الإنسان، ذلك أن رسالة القرآن هي رسالة إنسانية عالمية شاملة، أكثر مما هي رسالة مكية، أو مدنية، أو لغوية، أو عرقية.

إنها موجهة للعالم على أنه جسد واحد، إذا مرض منه عضو، تداعت له بقية الأعضاء بالسهر والحمى.

عندما ننظر إلى حي مؤلف من مئة بيت - على سبيل المثل - يقطنه طبيب، ويقطنه لص. نرى أن سائر سكان الحي ينتفعون من الطبيب، بمن فيهم سكان بيت الطبيب، وسائر سكان الحي يتأذون من اللص، بمن فيهم سكان بيت اللص.

إن قرية متأخرة ظلامية، تلقى النفع من قرية متقدمة مستنيرة، وقرية متقدمة مستنيرة، تلقى أذى من قرية متأخرة ظلامية، إذ ليس بوسع أحد الفصل بين عوامل التأثير والتأثير، بين سكان القريتين، حتى لو كانت قرية تعيش في أقصى شرق المعمورة، وقرية تعيش في أقصى غربها. لذلك نرى أن العالم كله منشغل بقضايا بعضه البعض، وهو حقيقة الأمر يجب بعضه البعض، ويتآلف، ويتآزر، ويتكاتف، ويتأنسن،

مع بعضه البعض.

إن أحداث وشخصيات القرآن، هي أحداث وشخصيات التاريخ الإنساني، فنرى فيه أهل النبوة، والحكمة، والصدق، والعدل. إلى جانب أننا نرى أهل النقيض، وهم أناس من أبناء جلدة الإنسان، وليسوا من كوكب آخر، أو ينتمون إلى جنس آخر.

إنهم يشكلون مرتكزات تاريخنا وتطورنا وتحولاتنا الاجتماعية والمعرفية والفكرية. لذلك فإننا نحتاج أن نقرأ القرآن، لأننا بدونه لا نستطيع أن نتواكب، أو نتطور، أو نفعل شيئاً مجدياً في عمارة الحياة والإنسان، يمكن أن نضيفه إلى تراث منجزات أجدادنا، أولئك الذين يظهرون بجلاء على صفحات هذا القرآن المجيد.

من هنا كان أثر القرآن جلياً على مسيرة الفكر الإنساني، وقد اغتنى وخصب وتألق هذا الفكر بنور القرآن، كما لم يتألق من قبل. لقد خرّج القرآن أجيالاً من أهل العلم والأدب، والفن، والفقه، والفلسفة، والفكر، والسياسة، والطب، والفلك. فأخذ الناس يحفظون ويتداولون آيات القرآن بشيء من ضرب المثل، ذلك أن القرآن قد أولى المثل منزلة هامة. وقد حضر المثل بشكل جلي في كثير من الآيات القرآنية، مثل قوله:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ البقرة/١٧.
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ

﴿قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾ البقرة/ ٢١٤ .
 ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا
 دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾
 الرعد/ ٣٥ .

﴿قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
 لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ الإسراء/ ٨٨ .
 ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلئن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ
 لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ الروم/ ٥٨ .
 ﴿كَمِثْلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ
 مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ الحشر/ ١٦ .

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمِثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ
 أَسْفَاراً بئسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ﴾ الجمعة/ ٥ .

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ﴾ الزمر/ ٢٧ .
 ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً
 وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ البقرة/ ١٧١ .
 ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ
 مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هود/ ٢٤ .

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا
 رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿النحل/٧٥﴾

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿النحل/١١٢﴾

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿الروم/٢٨﴾

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿الأعراف/١٧٧﴾

يتبين هنا أن الله تبارك وتعالى بعزته وجلاله، يضرب الأمثال للناس، كمثل قوله:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجَّهُهُ لَا يَأْتِ بَخِيرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿النحل/٧٦﴾

يمكن أن يتخذ شخص ما من هذه الآية مثلاً لشخص، لا موقف، ولا رأي، ولا مقدرة، ولا شخصية لديه، ويتخذة لشخص على النقيض، وذلك في جمع أو مجلس من الناس، دون أن يذكر اسماً بعينه، إنه يتحدث بصفة العموم، بيد أنه يشير إلى شخص بعينه.

المثل هنا هو لغة تخاطب رمزية، تجنباً للصدام المباشر، أو للخرج. إن أهمية المثل تكمن في لغته الرمزية وسعة معانيه، التي تنطبق على أشخاص بعينهم، دون ذكرهم بالاسم، وهنا يبقى المثل مفتوحاً، وقابلاً

لإنسان أي زمان ومكان، فالمثل - مهما بلغ من قدم - يستمد تجدده من الحدث الجديد، والواقع الجديد.

إنه كاللغة التي يتخاطب بها الناس عبر التاريخ، والتسلسل الزمني، ويتفاعلون ويتواصلون من خلال ملفوظها.

لقد أخذت الثقافة الشعبية الشفاهية الكثير من الأمثال من القرآن الكريم، وأضافتها إلى قاموس المثل الشعبي الشفوي، فكان لها القبول والذيع الواسع في سائر أنحاء العالم.

إنها أمثال مقتبسة من آيات القرآن، وهي بذلك تعد شكلاً من أشكال التواصل مع قراءة القرآن، وكذلك دعوة إلى قراءة القرآن، واكتشاف كنوز جديدة فيه.

إنه شكل من أشكال التلقي القرآني الذي يتفاعل في الناس بقوة، ويترك أثره بقوة، ذلك أنه منبثق من بلاغة القرآن، ويتسم بغنى مدلولاته، ولذلك رأيتُ أن أف في هذا المقام مع هذا الشكل من أشكال تلقي آي القرآن، وتفاعله في وقائع الحياة، حتى غدا لغة الناس اليومية في جل شؤونهم.

عندما يُصاب امرؤ بمكروه، يقول له أحدهم، وهو يسعى للتخفيف

عنه:

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ البقرة/٢١٦.

إن ما يميز المثل القرآني هو غنى وسعة معانيه ومقاصده، فهنا، رغم خطاب التهذئة والقبول بما قدر الله وشاء، دعوة إلى الصبر، لأنك لا تكتشف الخير من الذي ظننته أذى، ومقتته، إلا بعد شيء من الزمن،

لتظهر وتبين زهوره.

على هذا النحو، يدربك هذا المثل القرآني، على اتباع سلوك الصبر والتأني، لأن: "في الصبر السلامة، وفي العجلة الندامة". فيغدو الصبر منهاجاً لسائر مقومات حياتك، لتكتسب من ذلك روح الحكمة، حتى ترى كل شيء يمضي في منهج صحيح، وتتقبل ما يواجهك بحكمة، واتزان، وإيمان بقضاء الله وقدره.

فإذا شبت النيران في بيتك، تهدئ من روع نفسك، وتتقبل الحادث، لأنك ربما - لولا ذلك - لمددت سبابتك لتتير المصباح، ولصعقت التيار الكهربائي. فتقول في قرارة نفسك: الحمد لله الذي نجاني، أو نجا أحد عيالي، فغدا المال قرباناً للإنسان.

على هذا النحو يمضي بك المثل القرآني: إذا سرق أحدهم محفظتك، أو فصلت من رأس عملك، أو عطبت حاجة في منزلك، فتقول: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ النساء/١٩.

قد يتدخل جار سوء في شأن حياتك ومنزلك، فتكظم غيظك، فيغفر الله لك ذنباً عظيماً ارتكبته، لا يغفره الله تعالى إلا لكاظمي الغيظ. إن جار السوء - ذاك - قد تسبب في أن جعلك تحظى بتلك المنزلة عند ربك، ولو كنت رددت عليه بالمثل، حرمت نفسك منزلة الأولياء، والصالحين، وكاظمي الغيظ، والمحسنين، عند ربهم، فتقول: ليت الله قد جعل لي جارين سيئين، بدلاً عن جار واحد. فتمضي في أرض الله، وناسه، وأنت تتأمل مجريات الحياة، ووقائع

الناس، ممتلئاً بكنوز المثل القرآني البليغ، فتزدد ما حفظت ذاكرتك من آية:

- ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾.
 ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.
 ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.
 ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾.
 ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾.
 ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾.
 ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾.
 ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾.
 ﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾.
 ﴿أَلَيْسَ الصُّحُحُ بِقَرِيبٍ﴾.
 ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.
 ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾.
 ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾.
 ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾.
 ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.
 ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.
 ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.
 ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾.
 ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.
 ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.
 ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾.
 ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾.
 ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾.
 ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.
 ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.
 ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾.
 ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾.
 ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.
 ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.
 ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.
 ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.
 ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾.
 ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.
 ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.
 ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.
 ﴿لَمْ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.
 ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ﴾.

أولى القرآن الكريم منزلة متقدمة للمثل، فكان له حضوره في الكثير من الآيات القرآنية.

وأشبهه المثل هنا بالجرس الذي يتلقى من خلاله قارئ القرآن جواهر المعنى القرآني، في هذا المنهج من مناهج التزبية القرآنية للناس. من خلال كتاب الله، يمكننا أن نتعرف على شرح المثل، على معناه، على مفهومه، على المقصد منه، على ما له من تأثير، وما يؤدي من وظيفة.

المثل في القرآن هو عنصر هام، بل يشكل إحدى مقومات الكتاب الكريم، ولذلك نرى حضور المثل بالغاً، ويتكرر ذكره من سورة إلى سورة، ومن آية إلى آية. إنه يشبه أداة الوصل بين القرآن وبين القارئ، وقد انتقيتُ هنا من سائر القرآن نخبة أمثال يمكن أن يتم توظيفها في وقائع مختلفة، وتحقق الغايات المرجوة منها. إن المقصد من ضرب المثل في القرآن - (والله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) - هو التعقل، والتدبر، والتفكير. المثل هنا يمنح فسحة للتعقل، وأخذ العظة: (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم

يتفكرون) الحشر/ ٢١.

عندما نقرأ القرآن قراءات تأملية تدبرية، نستنير بكيفية استخدامه، وتوظيفه للمثل، من أجل إبلاغ المراد. مَثَلُ الشيء هو شبيهه، وتشبه الشيء بشبيهه يفرز مثلاً يُقتدى به. في القرآن الكريم يُشبه الأمر بما هو قريب من التساوي به في معطيات عديدة، فيتحقق المثل من خلال المقارنة بين عنصرين يتمتعان بالعديد من الصفات المتشابهة، أو المشتركة.

يشكل المثل في القرآن الكريم تحفيزاً للمخيلة شطر آفاق التفعيل والتنشيط والتصوير والتخيل، بغية رسم صورة متقارنة بين العنصرين وصفاتهما، عندئذ يستطيع القارئ أن يستخرج من المثل ما يكون له عظة، في ثنائية متناغمة بين الإرسال القرآني والتلقي البشري. يستخدم الناس بعض الآيات القرآنية في ضرب الأمثال، كي يتبين الرشد من الغي.

إن تداول الناس لهذه الآيات يجعلهم يشعرون بشيء من الهدوء، والعظة، واستيعاب ما يقع فيهم، أو من حولهم من وقائع وأحداث، وهي تكتسب خصوصية رفيعة، كونها آيات من كتاب الله.

بلاغة المعنى في المثل القرآني

إن ما يميز قراءة القرآن، أن كل قراءة تقدّم للقارئ علماً جديداً لم يكن يعلمه، كل قراءة تقدم إليه شعوراً جديداً لم يكن يشعره، كل قراءة تقدم له متعة قراءة جديدة لم يكن يدركها، تضيف إلى نفسه لمسات جمالية جديدة، لم تكن لديه من قبل.

إن كل قراءة تجعله يشعر باتزان، وهو يتأمل مجريات الحياة، ولذلك نرى المريض يلجأ إلى قراءة القرآن، ويشعر بأنه يتداوى به، والذي تصيبه مصيبة كبرى يلجأ إلى قراءة القرآن، فيجد متنفساً عن نفسه، والذي يبتغي ذكر ربه في السراء والضراء، يلجأ إلى القرآن فيشعر قلبه بطمأنينة ذكر الله.

هذه الأنوار، التي يكتسبها الإنسان من صلب قراءته القرآن، لا تنتهي عند فراغه من القراءة، بل ينتفع بها في وقائع حياته اليومية، سواء مع نفسه، أو مع الآخرين، أو مع مقومات حياته. هنا يمكننا أن نقول عن هذا الشخص بأنه قرأ القرآن جيداً، وترك القرآن أثره على سلوكه جيداً. إنه شخص يرتقي على مدارج الطيب، فيتحول بالقول والفعل إلى إنسان طيب، تفوح من هيئته، ومن قوله، رائحة فضيلة إنسان طيب.

يبين الله أن المراد من ضرب هذه الأمثال في القرآن الكريم، هي أحداث هذه التحولات الكبرى في حياة وسلوك الإنسان، وهو يرتقي في تلقيه للقرآن. (وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون) العنكبوت/ ٤٣ .

إن هذا الشخص هو المقصد، وهو الغاية من نزول القرآن، ونزول سائر الكتب والتوجيهات السماوية.

يمكننا أن نقول بأن القرآن جعله كائناً طيباً، كائناً ناضجاً، نستأنس بالجلوس معه، والتحدث إليه، نأمنه على سرّنا، وعرضنا، ومالنا. إنه شخص مؤتمن، على قدرتمته بتعاليم القرآن، شخص يخاف الله في كل أمر يصدر عنه، إن هذا الشخص بلغ - من خلال قراءته التدبرية التأملية التعبديّة للقرآن - مرتبة متقدمة من مراتب مخافة الله، لأنه بلغ مرتبة متقدمة من مراتب الحكمة التي اكتسبها من تلقي المعنى القرآني، ومن تحليله للوقائع على ضوء تلقيه للقرآن، هذه الحكمة التي: رأسها مخافة الله، كما يقول المثل.

يتجه المثل إلى إنسان كي يعلم منه ما لا يعلم، سواء أكان هذا المثل من ضرب الله، أو من ضرب أهل الحكمة والعلم، والله المثل الأعلى. أمام هذه الوظيفة للمثل، فإن الله ينهى الإنسان - من مختلف مواقع - أن يضرب المثل لربه، لأن المراد من ضرب المثل هو إبلاغ معرفة، وإرشاد إلى تأمل، وتفكير، وتعقل، وتدبر. إن الله يعلم ما يعلمه الإنسان، وما لا يعلمه، والله هو مصدر العلوم جميعاً، إذ لا يملك طير أن يطير إلا بإذنه. يقول في ذلك: (فلا تضربوا لله الأمثال، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) النحل/٧٤. إذن، نحن نضرب الأمثال لبعضنا البعض، لأن بعضنا يعلم ما لا يعلمه بعضنا، وبعضنا لا يعلم ما يعلمه بعضنا.

لقاء ذلك، فإن الله يدعونا أن نتعرف إليه، وأسماء الله الحسنى الواردة في القرآن هي توجيه وإرشاد لتفعيل مخيلة الإنسان وتنشيطها، كي يتعرف على صفاته عز وجل، ويتأمل هذه الصفات، لأن كل اسم من أسماء الله الحسنى يشير إلى صفة، تتفرع منها صفات عديدة، لا يحصيها الإنسان. فمثلاً (القادر) تتفرع منه: المقدرة على كل شيء يخطر في بال الإنسان.

لنتأمل في هذه الأسماء، التي تشير إلى صفات الله عز وجل: الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المدلل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحلبي،

العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المغيث، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المحيب، الواسع، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعال، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور .

ثم تمضي في قراءة القرآن، فترى الله يضرب بصفاته الأمثال، حتى ترى نفسك أمام تصورات تحرك آفاق مخيلتك. مثال ذلك: (الله نور السموات والأرض).

تتخيّل هنا أن كل ما في السموات والأرض يستنير بنور الله، ثم تمضي في قول البارئ المصوّر: (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح). الآن تتخيّل مشكاة فيها مصباح، ثم تتخيّل: (المصباح في زجاجة) ثم تتدرج بك المخيلة، وأنت تستأنف وصف ربك لصفاته، وذكره للأمثال، التي تكون لك يسرا ومعينا على منهج التعرف على صفاته المباركة، فتتخيّل بعد كل تلك المقارنات والمشاهد: (الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة).

ها أنت تتخيّل كل تلك التشابيه، التي انطلقت بك، وأنت تتلقى بديع المعنى القرآني في قراءتك الاستنارية المجيدة، لتعرفك على مثل نور ربك، في علاقة بالغة العذوبة بينك وبين جمالية لغة الخطاب

القرآني، وأنت في ذروة محراب عبادة قراءة القرآن: (زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار). ثم تأتي إلى قوله: (نور على نور) وفي خاتمة الوصف، وأنت تبلغ نهايات الآية، تنظر إلى علاقتك بما أكرمك الله به من معرفة، فتقرأ قول الله: (يهدي الله لنوره من يشاء).

هنا تدعو ربك - الذي يجب دعوة الداعي إذا دعاه - أن يشملك بمشيئته في الهداية إلى نوره تبارك وتعالى. ثم تختتم قراءتك الاستنارية لهذه الآية، بقوله: (وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون) العنكبوت/٤٣.

شجرة الكلمة

يشبه الله الكلمة بالشجرة، ذلك أن الكلمة يمكن لها أن تسبب مسرة، ويمكن لها أن تسبب جرحاً، ويمكن للشجرة أن تقدم ورداً، يؤدي إلى مسرة، ويمكن لها أن تقدم شوكاً، يؤدي إلى جرح. يدعو الله الناس إلى التنبيه لمعنى قوله: (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت، وفرعها في السماء). إن الكلمة الطيبة تصدر من إنسان طيب، كما أن الثمرة الطيبة تثمر من شجرة طيبة، والكلمة الطيبة يصغي إليها، وينتشي بسماعها، إنسان طيب، كما أن الثمرة الطيبة يتناولها إنسان طيب. وإذا اتجهت

الكلمة إلى إنسان خبيث، لا يكون ذلك إلا لمحاولة منها كي تؤثر عليه، فيخفف من مساحة خبثه، ويجنح شطر رحابة الطيب. كذلك الثمرة الطيبة تقبل أن تذهب إلى إنسان خبيث، بإذن ربها، حتى تشعره بنكهة وجمالية ولذة الطيب، عساه أن يتخذ من ذلك مثلاً، فيجنح إلى رحابة الطيب.

وهنا يمكننا القول: إن الكلمة الطيبة، والشجرة الطيبة، معا : (تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها). الأكل هو مدى التأثير الذي تركه الكلمة الطيبة، ومدى التأثير الذي تركه الشجرة الطيبة. (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون).

في لقاء ذلك تأتي الكلمة الند، وتأتي الشجرة الند. وما دامت الكلمة الطيبة شُبهت - بالشجرة الطيبة، فإن الكلمة الخبيثة تُشبه - للمثل أيضا - بالشجرة الخبيثة، وهي أيضا تؤدي وظيفة. الكلمة الخبيثة هنا تتجه إلى إنسان خبيث، لكنها إذا اتجهت إلى إنسان طيب، فإنها لا ترحزحه عن طيبه، بل تثبته في طيبه، وأضعف الإيمان فإنه يردد في نفسه لقائل الكلمة الخبيثة: الكلام صفة المتكلم. وكذلك فإنه عندما يرى ثمرة خبيثة، فإن الثمرة الطيبة تزداد في نفسه قيمة.

يقول الله تبارك وتعالى: (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار).

بعد ذلك يبين الله لمتلقي القرآن الغاية من ضرب المثل، بقوله : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة،

ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء). وفق هذه القراءة، يمكننا أن ننظر ونتأمل ونتدبر الآيات التي ضُربت فيها الأمثال، فنقف على ضفاف التأمل من المخيلة، ونحن نتلقى هذه التشابيه، والأمثال، التي تنشط الذهن، فنعلم منها شيئاً جديداً، لم نكن نعلمه من قبل.

الماء والحياة

يضرب الله المثل أيضاً للناس، حتى يشكلوا مفهوماً عاماً عن الحياة، والعنصر الذي يتخذه الله للتشبيه والمقارنة في ضرب المثل هو الماء، فالماء مصدر الحياة، تقترن الحياة بالماء، ويقترن الماء بالحياة: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء). سوف ينظر الإنسان إلى الماء، ويستعين مرة أخرى بمخيلته، كي يجري المقارنة، ثم يقرأ قول ربه: (فاختلط به نبات الأرض، مما يأكل الناس والأنعام). ينظر أن الماء تسبب في وجود النبات، الذي يمنح طاقة الحياة للناس، وكذلك للأنعام، التي هي بدورها تقدم طاقة تغذية للإنسان، كي يعيش الحياة. هنا يبلغ الإنسان مبلغ القوة واللياقة البدنية والفكرية، كونه تناول غذاءً جيداً، والله يدعو الإنسان كي يتناول طيب الطعام، ويشرب لذيذ الشراب.*

* ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ البقرة/٥٧.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ البقرة/٥٨.

مع هذه القوة، التي بات يتمتع بها الإنسان، يتذكر بأن ذلك أتاه من الله، وبمقدور الله أن يعيده على وهنه، إنه مع ذلك يغير بقوة بدنه، وصفاء ذهنه، وما يملك من ثمار وأنعام .
يرشده الله إلى الغاية من هذا المتاع المحدود الأجل، حتى لا يبطر الإنسان، ويظن بأنه قادر عليها، فينتبه إلى قول الله: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ

- ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ البقرة/٦٠.
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ البقرة/١٦٨.
﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ المائدة/٨٨.
﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ الأنعام/١١٨.
﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ الأنعام/١١٩.
﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأنعام/١٤١.
﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأعراف/٣١.
﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً ثَلْبِسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل/١٤.
﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ النحل/١١٤.
﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ طه/٥٤.
﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ الحج/٢٨.
﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الطور/١٩.

الشَّهَوَاتِ مِنَ النَّسَاءِ وَالْبَيْنِ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ
عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿آل عمران/١٤﴾.

إنها زينة، والزينة محدودة الأجل، إنها عملية ظاهرية فحسب، من
مظاهر الحياة الدنيا، التي لا تدوم لشخص، ولم يسبق لها أن دامت
لإنسان، وإن كان الإنسان ينظر إلى أنه يقوى بها، فهي لا تكون ذلك
بالنسبة لله الذي منحها للإنسان، فينبهه إلى ذلك في قوله: (حتى إذا
أخذت الأرض زخرفها، وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها) هنا
سوف تعمل المخيلة، كي تقلب الموازين، في محاولة تخيلية، وصاحبها
يرفل في النعمة، التي تتحول إلى حصيد: ﴿أتأها أمرنا ليلا أو نهارا،
فجعلها حصيدا، كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم
يتفكرون﴾.

ويوجه الله النبي صلى الله عليه وسلم، كي يضرب المثل للناس في
تعريف الحياة الدنيا، بقوله: ﴿واضرب لهم مثلا الحياة الدنيا كماء
أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه
الرياح وكان الله على كل شيء مقتديرا﴾ الكهف/٤٥.
ويقول: ﴿واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من
أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً﴾ الكهف/٣٢.
ويقول: ﴿واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون﴾
يس/١٣.

ثم يرى قارئ القرآن، ومتلقيه، أن الله يضرب الأمثال، كي يبين له

بعض الحقائق، ومن ذلك ما قيل عن النبي عيسى عليه السلام، حيث شبه الله خلقه بخلق آدم عليه السلام، وأخبر الله عباده بخصوصية خلق عيسى عليه السلام، وضرب به مثلا آدم عليه السلام : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) آل عمران/ ٥٩ .

لقد أخبر الله الناس أن عيسى هو عبد الله، كما أن آدم هو عبد الله، خلقهما من تراب.

سنبله الصدقة

كذلك يضرب الله مثل المال بالسنبله، حيث يقول: (ومثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل، في كل سنبله مئة حبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم) البقرة/ ٢٦١ .

كون السنبله أصلها حبة واحدة، والمال الذي ينفقه في سبيل الله يذهب إلى شخص، وهذا الشخص قد يأخذ به طعاما لعياله، وعندما يتناول الجائع طعاما، فإن بدنه يقوى، فينهض ويقوم بعمل ما، وقد يأتي ضيف فيأكل من هذا الطعام، وقد يبتاع الشخص المحتاج دواء بهذا المال، الذي تلقاه من المتصدق في سبيل الله، فيشفى بإذن الله، ويكون عائلة، ويقوم بعمل الخير.

إن مال هذا الشخص يلبث صدقة جارية في هذا الشخص، وفي

ذريته من بعده، وكلما سنّ أحدهم سنة حسنة، أصاب منه أجر إلى المتصدق الأول على جدّهم، الذي تلقى العلاج، أو التغذية، أو المال، الذي كان سببا في اندفاعه نحو الحياة والعمل والعطاء، بعد أن كان مريضا، أو سيء التغذية، أو فقيرا مدقعا. يقول الله : (ومثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم) البقرة/٢٦١.

إن الصدقة مرتبهة بأن تكون خالصة في سبيل الله، وإذا ابتغى الإنسان منزلة، أو حاجة في نفسه، أو تعالياً، فإن صفة المتصدق تسقط عنه، حتى لو تساوى مع المتصدق الحق في إعطاء العطية لعائل. يضرب الله المثل بهذه الصدقة، التي هي ليست خالصة لوجه الله، بقوله، وهو يبيّن أسباب زوال صفة الصدقة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة/٢٦٤.

الصفوان هو الحجر الأملس الذي عليه تراب، وفي حال إصابته بوابل المطر، يزول التراب، ويبقى الحجر أملساً .

إن المطر لا ينفع هذا الحجر، ولا ينفع التراب الذي عليه، من أجل إخراج نبات، فمعلوم أن المطر عندما يختلط بالتراب، ينتج عن ذلك النبات، بيد أن ذلك لا يحدث في المثل الذي ضربه الله، حيث لا يتحول العطاء إلى صدقة، إذا اقترن بالأسباب التي بينها الله تعالى.

يتعلم الإنسان، من خلال هذا المثل، أن كل عمل نفع يقوم به، يمكن لفعل ما أن يبطل مفعوله. وإبطال المفعول يكون بالنسبة لمتلقي النفع أيضاً، وهو يقيّم العطاء الذي أعطي له، فهو لا يحترمه على عطائه، لأنه يدرك الغاية التي دفعته إلى ذلك، ولا يشكره بشكل جاد عليها، لأنه لا يستحق الشكر، فهو قد حصل على غايته من ذلك، سواء في الحصول على لقب، أو نيل منزلة، وهذا بذاته يسبب الأذى للذي حصل على ذاك العطاء، لأنه يتلقى المن الذي يسبب له كسر الحاطر، ويشعره بشيء من الحرج.

يقول الله عن الفئة التي تنفق ابتغاء إحقاق الأذى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ آل عمران/ ١١٧.

يمكن قياس ذلك على عبادات أخرى، كمثل رؤيتنا لشخصين يصليان، أحدهما تُقبل صلاته، والآخر تعود عليه صلاته قائلة له: أضاعك الله مثلما أضعتني. ونرى شخصين يصومان، أحدهما يُقبل صيامه، ولا يكون للثاني من صيامه غير الجوع والعطش. ونرى شخصين يقرآن القرآن، يرتقي أحدهما في درجات العبادة، وتبلغ منزلته عند آخر آية قرأها، في حين يقرأ الثاني القرآن، والقرآن يلعبه. إن النية الصالحة هي التي تحقق الغاية من أي عبادة يؤديها الإنسان. يقول الله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ

الضَّلَالُ البَعِيدُ ﴿١٨﴾ إبراهيم/١٨.

مع قراءة القرآن الكريم يعتزينا إحساس عميق بمسؤولية ورهبة القراءة. إننا نشعر بعظمة الكلمة إرسالاً وتلقياً، ونكون قد تهيأنا جيداً حتى نتلقى الكلمة. وهذا تحفقه لنا القراءة، القراءة التي تجعلنا نشعر بأهميتها في سبيل أن نعرف أنفسنا، ونعرف الآخرين، ونعرف العالم من حولنا، وعند ذاك نتقدم في درجات معرفة الله.

الفصل الرابع

قارئ القرآن وفقه الموقف

إن قارئ القرآن يسعى حتى يجعل لنفسه حضوراً في الحياة، وهو شخص بطل في مهنته، وفي تربيته لأولاده، وفي عيادته للمرضى، وفي صلة رحمه. إنه شخص يتقن العمل الذي يقوم به، ويقدم الجودة في عمله. وبذلك فإن قارئ القرآن هو شخص جاد في الحياة، ويترك المواقف التي يتأثر بها الناس ويقتدون بها.

إن أهمية إي إنسان، أوقيمته، تكمن في الموقف الذي يفقه هذا الإنسان من مجريات الحياة، ومن دقائق حياته الاجتماعية اليومية التي يمارسها.

الموقف هو بصمة الإنسان، وهو خلوده، سواء كان هذا الموقف سلبيًا، أو إيجابيًا، إضافة إلى حالة ثالثة، هي: اللاموقف، وتمثل أيضا موقفا يقيمه الناس، وينظرون به إلى هذا الشخص، وهذا يقال عنه في بعض مراحل التقييم / الشخص الحيادي / .

إذن، نحن نعيش مجريات هذه الحياة الممتلئة بالأحداث والأفكار والمذاهب والميولات، ولا بد لنا أن نتفاعل مع كل ما يجري فينا، ومن حولنا، فإن تكون هامشيا يعني أنك لا تلزم الحياة، وأن الحياة لا تلزمك، لأنك عندذاك لا تكون فعّالا فيها، ولا تكون فعّالة فيك.

يمكن تصوير الموقف من خلال مشهد شخص يقف قبالة حادثة

ما، ورد فعله المادي والمعنوي والتلقائي تجاه تلك الحادثة. وبالطبع فإن الإنسان لديه مواقف عديدة من كل مظهر من مظاهر الحياة، فهناك مواقف مترسخة لا تتزحزح، وهناك مواقف يمكن أن تتغير، وفق المستجدات التي تطرأ على الظاهرة التي يقف منها الإنسان. إننا نحتاج إلى أن تكون لنا مواقف نحو مظاهر الحياة، ونحو العادات والتقاليد والأحداث والأفكار والقيم في ظاهرة الحياة التي جننا إليها، ونحياها ككائنات واعية، تشعر بمسؤولية تجاه ذاتها، وتجاه الحياة التي وهبت لها.

عُرف (خزيمة بن ثابت الأنصاري) بـ(ذي الشهادتين)، وقد سمّاه النبي بذلك بعد أن شهد منه موقفاً، وذلك عندما جاءه يهودي فقال له: يا محمد اقضني ديني.

فقال النبي: أو لم أقضك.

قال: لا.

قال النبي: إن كانت لك بينة فهاتها، وقال لأصحابه: أيكم يشهد أنني قضيتُ اليهودي ماله؟ فلم يجب أحد، عندها قال خزيمة: أنا يا رسول الله أشهدك أنك قضيتَه.

قال له النبي: وكيف تشهد بذلك، ولم تحضره، ولم تعلمه؟

فقال: يا رسول الله نحن نصدقك على الوحي من السماء، فكيف لا نصدقك على أنك قضيتَه.

فأنفذ شهادته، وسمّاه (ذا الشهادتين)، لأنه صير شهادته شهادة

رجلين.

أم أنس

تتمتع المرأة بمزايا وخصال غنية في شخصيتها، وعندما تقوم بعمل وتكون جادة فيه، فإنها تبدع في هذا العمل، وتقدم موقفاً فيه، ذلك أنها تتمتع بقوة عاطفة، يمكنها أن تنطلق من هذه العاطفة في العمل الذي تقوم به .

إنها تشعر بالمسؤولية الملقى على عاتقها، وتتجنب الفشل ما أمكنها، وهي تريد أن تبرهن للرجل بأنها يمكن أن تفعل شيئاً هاماً يلفت نظره إليها، وعلى العموم فإن الرجل أيضاً عندما يقوم بعمل أو فعل مميز، فإنه يلفت أنظار النساء إليه، ويكون حديث الساعة بالنسبة إليهن.

أتحدث عن موقف (أم سليم) الأنصارية، هذه المرأة التي تتمتع بسيرة حسنة، وتبرهن لنا أن الرجال العظماء يمكن لهم أن يسهموا في وجود نساء عظيمات، والنساء العظيمات يمكن لهن أن يقفن دعامة قوية إلى جانب الرجال العظماء.

لذلك فإن الزمن الذي يخلو من الرموز والأمثلة الكبرى، فإنه زمن فقير بأشخاصه المميزين. الزمن الغني بالرموز والأمثلة، يفرز أعداداً كبيرة من الأشخاص الذين يقتدون بهذه الرموز التي تعيش بين ظهرانيهم.

لننظر إلى زمن وجود النبي صلى الله عليه وسلم، وننظر إلى قائمة الأشخاص الذين عملوا معه، لننظر كيف أنه استطاع أن يحدث تغييراً انعطافياً في سلوكيات الناس.

لقد صنع أناساً ما كان لهم أن يظهروا لولا وجود النبي، وهؤلاء الناس صنعوا أناساً ما كان لهم أن يظهروا لولا وجود أولئك. إن ظهور امرأة مميزة، يمكن أن يكون حافزاً لظهور نساء أخريات يقتدين بها، ولكن هذه المرأة أيضاً تحتاج إلى حافز يجعلها تشعر بأهمية وقيمة أن تكون مميزة.

عن (أنس بن مالك) رضي الله عنه قال : قال مالك أبو أنس لامرأته أم سليم (وهي أم أنس) أن هذا الرجل {يعني النبي صلى الله عليه وسلم} يحرم الخمر، فانطلق حتى أتى الشام، فهلك هناك. فجاء (أبو طلحة) فخطب (أم سليم)، فكلّمها في ذلك، فقالت: يا أبا طلحة ما مثلك يُرد، ولكنك امرؤ كافر، وأنا امرأة مسلمة، لا يصلح لي أن أتزوجك.

فقال: ما ذاك دهرك.

قالت: وما دهري؟

قال: الصفراء والبيضاء (يعني: الذهب والفضة).

قالت: فإنني لا أريد صفراء ولا بيضاء، أريد منك الإسلام، فإن تسلم فذاك مهري، ولا أسألك غيره.

قال: فمن لي بذلك؟

قالت: لك بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فانطلق (أبو طلحة) يريد النبي صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه، فلما رآه قال: جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه. فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالت أم سليم، فتزوجها على ذلك.

هنا ننظر إلى فراسة النبي في التقاط ملامح الناس، فأبا طلحة رجل كافر، يقدم إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنها إشراقة الإسلام التي ظهرت على وجهه وبلغت حدس النبي. الناس على هذا النحو يرتقون من خلال الناس، وكذلك ينحدرون من خلال الناس. إن وجود امرأة سيئة في حي، يمكن أن يتسبب في انحراف امرأة أخرى، ووجود امرأة فاضلة في حي، يمكن أن يتسبب في هداية امرأة سيئة.

قال ثابت (وهو البناني، أحد رواة القصة عن أنس): فما بلغنا أن مهرا كان أعظم منه، أنها رضيت الإسلام مهرا، فتزوجها، وكانت امرأة مليحة العينين، فيهما صغر، فكانت معه حتى ولد له بني، وكان أبو طلحة يحبه حبا شديدا، ومرض الصبي مرضا شديدا، وتواضع أبو طلحة لمرضه، أو تضعضع له، فكان يقوم صلاة الغداة يتوضأ، ويأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيصلبي معه، ويكون معه إلى قريب من نصف النهار، ويجيء يقيل ويأكل، فإذا صلى الظهر تهيأ وذهب، فلم يجرى إلى صلاة العتمة. فانطلق أبو طلحة عشية إلى النبي صلى الله عليه وسلم (وفي رواية إلى المسجد)، ومات الصبي، فقالت أم سليم: لا

ينعين إلى أبي طلحة أحد ابنه، حتى أكون أنا الذي أنعاه له. فسجت عليه، ووضعت في جانب البيت، وجاء أبو طلحة من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل عليها، ومعه ناس من أهل المسجد من أصحابه، فقال: كيف ابني؟
فقلت: يا أبا طلحة ما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة، وأرجو أن يكون قد استراح.

فأنته بعشائه، فقربته إليهم، فتعشوا، وخرج القوم، قال: فقام إلى فراشه، فوضع رأسه، ثم قامت فتطيبت، وتصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، ثم جاءت حتى دخلت معه الفراش، فما هو إلا أن وجد ريح الطيب، فكان منه ما يكون من الرجل إلى أهله.
فلما كان آخر الليل قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوما أعاروا قوما عارية لهم، فسألوهم إياها، أكان لهم أن يمنعوهم؟
فقال: لا.

قالت: فإن الله عز وجل كان أعارك ابنك عارية، ثم قبضه إليه، فاحتسب واصبر.

فغضب، ثم قال: تركتني حتى إذا وقعت بما وقعت به، نعت إلي ابني. فاسترجع وحمد الله، فلما أصبح اغتسل، ثم غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصلى معه، فأخبره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بارك الله لكما في غابر ليلتكما.

روى (مسلم) بسنده عن (أنس) رضي الله عنه قال: كان لأم سليم - وهي أم أنس - يتيمة، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم

اليتيمة فقال: "أنت هيه (ياسكان الياء والهاء هاء السكت)، لقد كبرت، لا كبر سنك".

فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكي، فقالت أم سليم: ما لك يا بنية؟ قالت الجارية: دعا علي نبي الله أن لا يكبر سني، فالآن لا يكبر سني أبدا، أو قالت: قرني. فخرجت أم سليم مستعجلة تلوث خمارها، حتى لقيت رسول الله-صلى الله عليه وسلم، فقال لها: مالك يا أم سليم؟ فقالت: يا نبي الله دعوت علي يتيمتي.

قال: وما ذاك يا أم سليم؟

قالت: زعمت أنك دعوت أنه لا يكبر سنها، ولا يكبر قرنها.

قال: فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: يا أم سليم، أما تعلمين أن شرطي على ربي أني اشتزطت على ربي، فقلت: إنما أنا بشر، أَرْضَى كما يَرْضَى البشر، وَأَغْضَب كما يَغْضَب البشر، فأبدا أحد دعوت عيه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل، أن يجعلها طهورا وزكاة وقربة يقربه بها منه يوم القيامة.

قال سفيان: قال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قرأوا القرآن.

لم يأت ذلك لأم سليم من تلقاء نفسه، بل كانت تسعى إلى المعرفة والتفقه والعلم، وتستنير بقراءة القرآن، وتتابع ما يقوله النبي، وما يقوم به من سنن.

وكان ابنها (أنس بن مالك)، الذي دفعته في صباه ليعلم رسول الله عشر سنوات، مصدراً من مصادر التعرف على أحاديث وسنن

النيبي.

تصفها السيدة (عائشة) أم المؤمنين بقولها : / نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين ./
قال أنس: إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يدخل بيتا بالمدينة غير بيت أم سليم، إلا على أزواجه، فقيل له ؟ فقال: إني أرحمها، قتل أخوها معي. وعند سفر النبي، كانت أم سليم تديم البقاء مع نسائه، وتتعلم منهن ما تعلمنه من النبي.

يقول أنس: أتى النبي صلى الله عليه وسلم على بعض نسائه، ومعهن أم سليم، فقال: ويحك يا أنجشة، رويدك سوقا بالقوارير.
ومن النماذج الدالة على حرصها في طلب العلم، أن (أم سليم) رضي الله عنها جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟

قال النبي: إذا رأت الماء. فغطت أم سليم، وقالت يا رسول الله: وتحتلم المرأة؟

قال: نعم تربت يمينك، فبم يشبهها ولدها؟.

وفي رواية عند (مسلم)، قالت عائشة رضي الله عنها: يا أم سليم فضحت النساء، تربت يمينك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة: بل أنت تربت يمينك، نعم فلتغتسل يا أم سليم، إذا رأت ذلك.

وفي رواية عند (أبي داود) في سننه في الطهارة: / إنما النساء

شقائق الرجال ./

في (صحيح البخاري) عن (عكرمة) أن أهل المدينة سألوا (ابن عباس) رضي الله عنهما عن امرأة طافت، ثم حاضت، قال لهم: تنفرو. قالوا: لا نأخذ بقولك، وندع قول زيد رضي الله عنه. قال: إذا قدمتم المدينة فسلوا، فقدموا المدينة، فكان فيمن سألوا أم سليم، فذكرت حديث صفية، أي قول النبي صلى الله عليه وسلم لحفصة: عقري، حلقي، إنك حابستنا، أما كنت طفت يوم النحر؟ قالت: بلى .

قال: فلا بأس انفري.

عن أنس رضي الله عنه: " أن أم سليم رضي الله عنها كانت تبسط للنبي صلى الله عليه وسلم نطعا، فيقبل عندها على ذلك النطع. قال: فإذا نام النبي صلى الله عليه وسلم، أخذت من عرقه وشعره، فجمعته في قارورة، ثم جمعته في سك، وهو نائم، وفي رواية عند مسلم قال أنس رضي الله عنه: دخل علينا النبي صلى الله عليه وسلم فقال عندها، فعرق، وجاءت أمي بقارورة، فجعلت تسلت العرق فيها، فاستيقظ فقال: يا أم سليم ما هذا الذي تصنعين؟

قالت: هذا عرقك نجعله في طيبنا، وهو من أطيب الطيب.

قال الزهري : / لم تكن أم سليم تتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزواته إلا في النادر، وكان زوجها أبو طلحة من أقوى الرماة، بقي مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، حين انهزم الناس، يدافع عنه، وقد أدت أم سليم رضي الله عنها في ذلك اليوم العصيب

دورا عظيما، قال أنس: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم رضي الله عنهما وإنهما لمشمرتان-تنقران (وقال غيره: تنقلان) القرب على متونهما، ثم تفرغانه في أفواه القوم، فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغان في أفواه القوم). ولما كان يوم حنين- وكانت معركتها بعد فتح مكة- وكان عدد المسلمين أكثر بكثير من عدوهم، إذ كان العدو من قبيلة هوازن، وكان حال كل من الفريقين ما ذكره الله في كتابه:

{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّحِينَ {التوبة ٢٥}. فانهزم الناس، وبقي النبي صلى الله عليه وسلم، ومعه عدد قليل من أصحابه، لا يتجاوز عددهم اثني عشر رجلا، فكانت أم سليم مع من بقي مع النبي صلى الله عليه وسلم، في هذا الموقف الحرج. وعند (مسلم) من حديث أنس رضي الله عنه أن أم سليم رضي عنها اتخذت خنجرا يوم حنين فقالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه.

فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك.

قالت أم سليم قولتها الشهيرة: يا رسول الله اقتل من بعدنا من الطلقاء انهزموا بك. فقال رسول الله: يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن.

قالت أم عطية رضي الله عنها: أخذ علينا النبي صلى الله عليه وسلم عند البيعة أن لا ننوح، فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة- أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سيرة امرأة معاذ، وامرأتين أو ابنة أبي

سيرة وامرأة معاذ ، وامرأة أخرى . قال ابن حجر نقلا عن القاضي عياض: معنى الحديث: لم يف ممن بايع النبي صلى الله عليه وسلم مع أم عطية، في الوقت الذي بايعت فيه، إلا المذكورات، لا أنه لم يترك النياحة من المسلمات غير خمسة.

كان أبو طلحة يملك (ببرحاء)، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها، ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون).

قام أبو طلحة رضي الله عنه- وهو زوج أم سليم الأنصارية- إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن الله تعالى يقول: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون). وإن أحب أموالي إلي (ببرحاء)، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال: فقال رسول الله: بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

قال أنس رضي الله عنه: قال أبو طلحة لأم سليم رضي الله عنها: لقد سمعت صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟

قالت: نعم . فأخرجت أقراصا من شعير، ثم أخرجت خمارا لها، فلفت الخبز ببعضه، ثم دسسته تحت يدي، وردتني ببعضه، ثم أرسلتني

إلى رسول الله، قال: فذهبت به، فوجدت رسول الله في المسجد، ومعه الناس، فقامت عليهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنس: أرسلك أبو طلحة؟

قال: فقلت نعم. فقال: الطعام؟

فقلت: نعم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن معه: قوموا.

قال: فانطلق، وانطلقت بين أيديهم، حتى جئت أبا طلحة، فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله بالناس، وليس عندنا ما يطعمهم. فقالت: الله ورسوله أعلم.

قال: فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه حتى دخلا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هلمي ما عندك يا أم سليم، فأنت بذلك الحبز، فأمر به رسول الله ففت، وعصرت عليه أم سليم عكة لها فأدمته، ثم قال فيه رسول الله ما شاء أن يقول، ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا. ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا. ثم قال: ائذن لعشرة. حتى أكل القوم كلهم، حتى شبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا.

روى (البخاري) من حديث أنس بن مالك، قال الراوي: مر بنا (أي أنس) في مسجد بني رفاعة، فسمعتة يقول: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا مر بجنيات أم سليم دخل عليها، فسلم عليها، ثم قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم عروسا بزینب، فقالت أم سليم: لو

أهدينا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية.

فقلت لها : افعلي، فعمدت إلى تمر وسمن وأقط، فاتخذت حيسة في برمة، فأرسلت بها معي إليه، فانطلقت بها إليه، فقال لي: ضعها، ثم أمرني فقال: ادع لي رجلا سماهم، وادع لي من لقيت. قال: ففعلت الذي أمرني، فرجعت، فإذا البيت غاص بأهله، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وضع يديه على تلك الحيسة، وتكلم بها ما شاء الله، ثم جعل يدعو عشرة عشرة يأكلون منه. يقول لهم: اذكروا اسم الله، وليأكل كل رجل مما يليه، ثم تصدعوا كلهم عنها.

وفي رواية لمسلم : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل بأهله، فصنعت أم سليم حيسا، فجعلته في تور، فقالت: يا أنس، اذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقل: بعثت بهذا إليك أُمي، وهي تقرأ عليك السلام، وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله. قال: فذهبت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقلت: إن أُمي تقرأ عليك السلام، فذكر الحديث، إلى أن قال: فدعوت من سمى، ومن لقيت. قال: قلت لأنس: كم كانوا؟

قال: زهاء ثلاثمائة. وقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أنس هات التور، قال: فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليتحلق عشرة عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه، قال: فأكلوا حتى شبعوا. قال: فخرجت طائفة، ودخلت طائفة، حتى أكلوا كلهم. فقال لي: يا أنس ارفع، قال: فرفعت، فما أدري حين وضعت كان أكثر، أم حين رفعت.

روى (البخاري) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رأيتني دخلت الجنة، فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة، وفي رواية لمسلم: فسمعت خشفة، فقلت: من هذه؟

قالوا: هذه الغميصاء بنت ملحان أم أنس بن مالك).

إن قراءة القرآن التدبرية تجنب الإنسان كي يبقى هامشياً لا معنى لوجوده، إنها تعلمه كيف يتواصل مع سائر الفعاليات والمقومات الاجتماعية والإنسانية، فيشير ذلك إلى حضوره، كما أن غيابه يشير إلى فراغ.

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني لا أصوم إلا الشهر، لا أزيد عليه، ولا أصلي إلا الخمس، لا أزيد عليها، وليس لله في مالي صدقة، ولا حج، ولا تطوع. أين أنا إذا مت؟

فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وقال: " نعم معي، إذا حفظت قلبك من اثنتين: الغل والحسد، ولسانك من اثنتين: الغيبة والكذب، وعينك من اثنتين: النظر إلى ما حرم الله، وأن تزدرى بهما مسلماً، دخلت الجنة على راحتي هاتين".

يحتاج الإنسان إلى موقف يقفه من مجمل مظاهر الحياة، وأن يُعرف بمواقفه، ويُعرف موقفه به، فكم من شخص أهدى حياته ثمنا حتى لا يتزحزح في موقفه، وحتى لا يتزحزح موقفه فيه. كم من شخص مجهول خلده في التاريخ موقف واحد إيجابي،

فيذكر بالخير، وكم من شخص خلده في التاريخ موقف سليبي، فيذكر بالسوء.

إننا أبناء مواقفنا، نكون حيثما تكون مواقفنا، ولا نكون حيثما لا تكون مواقفنا.

موقف الإنسان هو عقيدته وكل ثقله في الحياة، والحياة غنية بالأحداث التي يمكن للإنسان أن يأخذ مواقفه منها، ويطلع بصماته على تلك المواقف، فتُعرف به حصريا، وكأنه هو الذي أتى بهذه الخصال إلى الحياة. فعندما نقول: الكرم، يتقافز إلى أذهاننا اسم شخص ما، وعندما نذكر الحب العذري، يتقافز إلى أذهاننا اسم شخص ما، وعندما نذكر البطولة، يتقافز إلى أذهاننا اسم شخص ما، وكذلك عندما نذكر الخيانة، أو الجور، فتحضر أسماء أشخاص ما دون غيرهم.

نعثر في صفحات التاريخ الإنساني على مواقف خلدت أشخاصا، لم يكن ليعرفهم أحد، دون وقوفهم تلك المواقف.

ولعل ما ينمي طاقة وقوف المواقف في ذواتنا، هو ممارستها، لتكون فعّالة بشكل يومي مستمر فينا، أي أن نمارس السلوك الموقفي، ونعيشه، ونؤثر على الآخرين بهذه المواقف، وكذلك نتأثر بالمواقف الإيجابية التي يقفها الآخرون.

جاء في (مسند أحمد) رحمه الله تعالى، وفي (سنن ابن ماجه) عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به، وجد ريحا طيبة، فسأل جبريل: ما هذه الريح الطيبة؟

فقال جبريل: هذه ماشطة بنت فرعون .
ثم ذكر له قصة ماشطة بنت فرعون التي آمنت بموسى عليه
السلام، وكنمت إيمانها، وذات مرة سقط المشط منها، فقالت: يا الله.
فقالت لها بنت فرعون: ربك الله أبي .
أجابتها الماشطة: الله ربي وربك ورب أبيك .
قالت بنت فرعون: إذن أخبر أبي .
وقامت بإعلامه عن هذه المرأة، فلم يكن من فرعون إلا أن جاء
بها، وسعى كي تعتذر عما قالت، أو لعلها زلة لسان، بيد أنها أصرت
على إيمانها بالله، وثبتت في موقفها، مرددة كلامها السابق. وهذا ما
أغاظ فرعون، وقرر أن يوجه لها عقابا شديدا، فأحضر بقرة من مادة
النحاس، وهي عبارة عن إناء ضخيم من نحاس، على شكل بقرة،
وسكب الإناء بالزيت، ثم ترك الزيت يغلي على النار، وهدد أن
يقذف أولادها أمام عينيها في الزيت المغلي، إن لم تتراجع عن موقفها،
ولكنها أصرت على موقفها الإيماني بأن الله هو ربها، ورب فرعون،
ورب الناس أجمعين.
وبدأ يقذف أولادها أمام عينيها في الزيت واحدا تلو الآخر،
وعندما جاء دور آخر الأبناء، وهو طفل صغير، ترددت الأم من
إعطائه، كونه ما يزال في المهد، وهنا تحدث معجزة، فيتحدث هذا
الطفل، كي تبقى أمه في موقفها، ولا تغيره عطفها منها على هذا الابن،
فقال لها:
يا أماه اثبتي على الحق، فأنا في الجنة.

وهو من الذين تكلموا في المهدي عبر التاريخ البشري.
يقول النبي: تكلم في المهدي ثلاثة: عيسى عليه السلام، وابن
الراهب، الرجل الذي كان يتعبد الله، ونادته أمه، فقال: اللهم أمي
وصلاتي، أي: تردد، أيقطع الصلاة، أم يستمر فيها؟ فرأى أن يستمر
في الصلاة، ويتجاوز فيها، كي يصل مسرعاً، فيجمع بين الصلاة ونداء
أمه، فقالت أمه: أسأل الله أن يريك وجوه المومسات.
فحدث أن سُئلت امرأة حبلى بالحرام: ممن هذا الولد؟
قالت: من ذاك الراهب.

وتم إحضار الراهب، وهو لا يملك أي دليل يدفع به التهمة عن
نفسه، ولكن في طريقه إلى الحاكم الذي يبت في الحكم عليه، رأى
مجموعة من المومسات، وهن ينظرن إليه على أنه الراهب الذي ارتكب
الزنا، فتذكر من جديد دعوة أمه، قائلاً: هي دعوة أمي.
فلما وصل، سأل الابن: ابن من أنت؟
فقال: أنا ابن الراعي.

فنطق هذا الطفل في المهدي.
والمحدث الثالث في المهدي، ما قاله الرسول في حديث البخاري: أن
امرأة كانت ترضع وليدها، وهي جالسة في الطرقات، فجاء رجل
يمشي في خيل وخيلاء، والحاشية معه، فقالت المرأة: اللهم اجعل ابني
كهذا.

فترك الابن ثدي أمه، وقال: اللهم لا تجعلني كهذا.
ثم جاء رجل يُضرب، ويطارد من قبل الناس، وينبذ في الأسواق،

فقال المرأة: اللهم لا تجعل ابني مثل هذا.
فترك الولد ثدي أمه، وقال: اللهم اجعلني كهذا.
فقال الرسول: أما الأول فهو من أهل النار، وأما الثاني فهو من
أهل الجنة.

وهذه إشارة بأن الإنسان يميل بفطرته إلى أن يكون صاحب موقف،
سواء كان في الناس، أو لقي الله، وهو يلقي مواقفه وقد سبقته إلى ربه.
موقفك هو أنت، وأنت لست إلا موقفك، والإسلام حض
الإنسان ليكون له موقفه من كل مظهر من مظاهر الحياة.

في (صحيح مسلم) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " من رأى منكم منكرا
فليغيره بيديه، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك
أضعف الإيمان". ونقول إن ذلك أضعف المواقف أيضا.
لذلك يحتاج تقييم الناس، ووقف موقف حاسمة منهم إلى كثير من
التأني والتجربة، فإن

روح المعضلة تكمن في أننا نرسم صوراً، وفق ما يزينها لنا خيالنا،
عن أشخاص نراهم لأول مرة، أو نحدثهم لأول مرة، أو نسمع بهم
لأول مرة .

تكمن روح المعضلة، ونحن نتخذ بشأنهم قرارات كبرى، أو نقف
منهم مواقف حاسمة كبرى، بناء على رسم مخيلتنا لتلك الصور عنهم.
ما يهم هو أن يكون لك موقف قولي وفعلي معاً، وألا تكون في
موقفين متناقضين، فالإيمان ذاته هو موقف متفاعل في نبض المؤمن،

وفق مستويات ودرجات هذا الإيمان. فعندما نقول / لقمان / فلا تلبث أن تقفز الحكمة إلى أذهاننا، وكأنها اقترنت بهذا الشخص الحكيم دون غيره.

وعندما نذكر اسم (أبي بكر)، نذكر / الصدق /، وبذكر اسم (عمر بن الخطاب)، نقول / الفاروق /، واسم (أسماء بنت أبي بكر)، نذكر بأنها / ذات النطاقين /. وعندما نذكر (معاوية)، نذكر / شعرة معاوية /، ونذكر الخنساء، فتتذكر الرثاء.

وأيضاً عندما نذكر اسم / نيرون / نتذكر بأنه أحرق بلاده (روما). هناك أبطال كجنود مجهولين يعيشون في كل أحياء ومناطق وعواصم وبقاع العالم، بيد أنهم يُعرفون بمواقفهم، على الأقل في أنطقة ضيقة، حتى لو كانت مقتصرة على أسرهم .

إن الإنسان الذي يأتي إلى هذا العالم، دون أن يترك موقفاً، يكون مثله مثل الذي لم يأت، ولم تلده أمه، ولم يعيش حياة بطولها وبعرضها. ولذلك فعندما يموت المرء، لا يُسأل عن شيء، قبل أن يُسأل عما فعل بسنوات عمره، التي عاشها في الحياة، وما كانت صنعته، التي يقدم من خلالها شيئاً لنفسه ولأهله وللناس، وكيف كان ينفق أمواله. وهنا تتحول المواقف إلى أعمال، تُسجل لك، أو عليك.

ثمة حديث يوجه بأن القيامة لو قامت، وفي يد شخص فسييلة فليغرسها، وبالطبع هنا ليس الغرس من أجل الغرس، لأنه واضح أن الغرس لم يعد نافعاً، كمن يقذف غرسة في النار، فالقيامة قائمة، والأرض زائلة، لكن حتى يكون لذلك الإنسان موقفه من عملية بناء

الأرض التي أتى إليها.

لتقم القيامة، وهو يغرس هذه الغرسة، أفضل مما تقوم وهو يقذفها، دون أن يغرسها، لأن الإنسان هنا يمثل موقفه، ويحمل معه موقفه، وتحمله مواقفه إلى أي مكان آخر يذهب إليه، بعد قيام القيامة، وفق نص الحديث.

ودوما هناك دعوات ليقف الناس مواقفهم من مجريات الحياة، حتى يقوا أنفسهم أن يكونوا هامشين.

أقتطف هنا من القرآن الكريم ما يعزز منظومة القيم الإنسانية لدى الناس ليكونوا أصحاب مواقف في الحياة:

((لكل نبأ مستقر)).

((كل نفس بما كسبت رهينة)).

((هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)).

((واهجرهم هجرا جميلا)).

وفي الأحاديث النبوية الشريفة الكثير مما يحض الناس ليكونوا أصحاب مواقف، ومن ذلك:

" دع ما يريبك إلى ما لا يريبك "

" انتظر الفرج عبادة "

" الأعمال بخواتيمها "

" اليد العليا خير من اليد السفلى "

" يد الله مع الجماعة "

" الحياء شعبة من الإيمان "

" الوحدة خير من جليس السوء ".
 " استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ".
 كما نجد الكثير من الأمثال السائرة، التي تعين الناس كي يتميزوا
 بمواقفهم في الحياة، ومنها :
 / إنك لا تجني من الشوك العنب ./
 / إذا أتاك أحد الخصمين، وقد فقئت عينه، فلا تقض له، حتى
 يأتيك خصمه ، فلعله فقئت عيناه ./
 / اشتدي أزمة تنفرجي ./
 / ظاهر العتاب خير من باطن الحقد ./
 / العتاب قبل العقاب ./
 / كل إناء يرشح بما فيه ./
 / لعل لها عذرا، وأنت تلوم ./
 / لاتقتن من كلب سوء، جروا ./
 / اجلس حيث يؤخذ بيدك وتُبرّ ، ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك
 وتُجرّ ./
 / الحبة تدور، وإلى الرحي ترجع ./
 / الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ ./
 / الطير بالطير يُصطاد ./
 وفي الشعر :

إذا كان رب البيت بالطبل ضاربا فلا تلم الصبيان فيه على الرقص
 ألم تر أن المرء تدوي يمينه فيقطعها عمدا ليسلم سائره

قال الأوزاعي للمنصور في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين، أما علمت أنه كان بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يابسة، يستاك بها، ويردع بها المنافقين، فأناه جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة التي بيدك، اقدفها، لا تملأ قلوبهم رعباً. وقال أبو العيناء: كان لي خصوم ظلمة، فشكوتهم إلى أحمد بن أبي داود، وقلت: قد تضافروا عليّ، وصاروا يداً واحدة.

فقال: يد الله فوق أيديهم.

فقلت له: إن لهم مكرًا.

فقال: ولا يحيق المكر السي إلا بأهله.

قلت: هم فئة كثيرة.

فقال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، بإذن الله.

و قال ابن مسعود رضي الله عنه: لما كشف العذاب عن قوم يونس عليه السلام، تراءوا المظالم بينهم، حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه، فيرده إلى صاحبه.

و قال سحنون بن سعيد: كان يزيد بن حاتم يقول: ما هبت شيئاً قط هبتي من رجل ظلمته، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله، فيقول: حسبك الله، الله بيني وبينك.

وبكى (علي بن الفضل) يوماً، فقليل له: ما يبكيك؟

قال: أبكي على من ظلمني، إذا وقف غداً بين يدي الله تعالى، ولم تكن له حجة.

الفصل الخامس

معالم الطريق ومنعرجات الفوضى

الإنسان بنظر نفسه في الحياة هو عبارة عن حالة عامة من فوضى، لأنه يشعر بأنه كائن مجهول، في كوكب مجهول، جاء من مجهول، ويمضي في مجهول، حتى ينتهي إلى مجهول. المفهوم الأولي العام لديه هو فوضى وعدم رتابة، بناء على جهله للمصير الذي يؤول إليه، سواء بعد نصف ساعة، أو بعد نصف قرن، أو بعد ملايين الأعوام القادمة.

ومن هذه النقطة ينطلق الإنسان، ويقرر ما الذي سيكونه في الحياة. هل سيلبث في حالة تيه وشتات، أم أنه سيحدد لنفسه أهدافا وقيما ورتابة يلتزم بها.

كثيرون يراوحن في حالة فوضى، ويتجنبون أي شكل من أشكال الالتزام، لا تعنيهم الأخلاق شيئا، ولا يعينهم النجاح شيئا، ما يهمهم هو أن يستمروا في الحياة، ويحققوا رغباتهم الآنية، مهما كانت النتائج، ينجحون في أن يقتلوا في أنفسهم الضمير، حتى لا يؤنبهم، لا يؤمنون بجدوى شيء، إن لم يقترن بماديته، سواء أكانت مادية اقتصادية، أو مادية جسدية، أو مادية حسية.

وعلى الأغلب ترى هؤلاء يعيشون دون سمعة طيبة، يفقدون ثقة الآخرين بهم، حتى من خلال كلمة يلفظونها، ولا يتقون بعهدهم

ومواعيدهم، لا يُؤتمنون على سر. فهؤلاء لا يؤمنون بالوفاء، أو الصدق، أو القيم الإنسانية، أو الشهامة، أو التضحية. إنهم يعيشون حالة متجدرة من نرجسية العظمة، لا يؤمنون معها إلا بأنفسهم، وحقيقة اللحظة التي يعيشونها.

في حين ترى الإنسان المناقض له، يقوم بأعمال خيرة وطيبة، وهو يريد أن يعيد للحياة شيئاً من جمائلها عليه، فقد عاش في هذه الحياة، بطولها وعرضها، ووهبته خيراتها، ومعارفها، وعرفته بناسها، ألا تستحق أن يقدم لها شيئاً مجدياً، حتى لو كان من خلال موقف أخلاقي، أو من خلال كلمة عدل.

في كتابه شرح الأربعين النووية يقول (ابن دقيق): "عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البصري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح، فاصنع ما شئت". (رواه البخاري).
معنى قوله: (من كلام النبوة الأولى) أن الحياء لم يزل ممدوحاً، مستحسناً، مأموراً به، لم ينسخ في شرائع الأنبياء الأولين. وقوله: (فاصنع ما شئت)، فيه وجهان: أحدهما: أن يكون خرج بلفظ الأمر، على معنى الوعيد والتهديد، ولم يرد به الأمر، كقوله: (اعملوا ما شئتم) فإنه وعيد: لأنه قد بين لهم ما يأتونه وما يتركون، وكقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من باع الخمر، فليشقص الخنازير)، لم يكن في هذا إباحة تشقيص الخنازير.

الوجه الثاني: أن معناه: أت كل ما لم يستحيا منه، إذا ظهر فاعله.

ونحو هذا قوله صلى الله عليه وسلم: (الحياء من الإيمان)، معناه: أنه لما كان يمنع صاحبه من الفواحش، ويحمل على البر والخير، كما يمنع الإيمان صاحبه من ذلك، ويحمّله على الطاعات، صار بمنزلة الإيمان، لمساواته له في ذلك، والله أعلم.

إن الحياة هنا تقترن بوجود الله في نفس هذا الإنسان، فهو يقدم كل هذه السلوكيات، لأنه مؤمن بأن الله يرى كل هذه المواقف منه، ثم إن هذه الأعمال الصالحة، وإن كانت تلبث في الأرض، إلا أنها تصعد إلى السماء أيضا، حيث سيلحق بتلك الأعمال، ويكون معها.

على هذا المفصل يشرق نور الدين أمام الإنسان، ليس المؤمن بالله فحسب، بل المؤمن بقيم الإنسان فيه، المؤمن بروح العطاء، وفعل الخير، المؤمن بحب الإنسان، لأنه يشعر ويعيش حالة رباط قوي بينه وبين أي إنسان يراه، إنه يرى نفسه في الآخرين، ويرى الآخرين في نفسه. فلو كان الإنسان دون إله، للبت في حالة الفوضى هذه، وكان أبأس الكائنات في الوجود، لكنه كائن محظوظ، لأن له إلهًا، وله خالق ينظم له هذه الحياة التي يعيشها، وينقذه من حالة الفوضى الكامنة في أعماقه، ويفقهه في حب الخير والحكمة، فتتحول الظلمات إلى أنوار، ويمسي الغموض وضوحًا، ويتحول المجهول إلى مدارج مضيئة أمامه. إنها التعاليم الكبرى من إله شاء أن يخلق هذا الإنسان، وشاء أن يوليه عنايته، وشاء أن ينظر إليه بالرحمة.

والإنسان كلما استوعب هذه الآيات من الله، اتسعت مداركه، وانفتح نضجه، ونظم حالة الفوضى في كوامنه، هذا التنظيم الذي

يهب لحياته معنى، ولوجوده كإنسان قيمة غنية. إننا نحتاج أن نكون مع تعاليم الله، نحتاج أن نتعلم من الله، من صلب علاقته بالإنسان، ومن صلب علاقة الإنسان به، نحتاج أن ندنو من رحاب فائق الإصباح.

إن ما يساعد الإنسان ليخفف من الفوضى غير المنظمة، هو العقل الذي قسمه له الله، هذا العقل الذي يجعله منضبطا بسلوكه الإنساني، وغير متبع لغرائزه العشوائية.

فالمتعة، كل المتعة، تكمن في مدى المقدرة على قمع تلك الغرائز العشوائية، أكثر مما تكمن في تحقيقها، لأنك عند ذاك تشعر بأنك قادر بشكل فعلي على قيادة نفسك، دون أن تتمكن شهواتك، أو غرائزك المادية والمعنوية، من قيادتك نحو أودية الشتات، ثم أنك هنا تمتلئ شعورا بأنك قادر أيضا على قيادة أسرتك.

فأنت تشعر بالاعتزاز، نقيض ذلك الذي يفقد هذا الشعور بالاعتزاز، وهذا المعنى بالبطولة، وهذا الإحساس في القيادة، الذي يجعله يميل إلى العبث، واللاتزام، نتيجة فيضان متاهات الفوضى العارمة التي يمضي بمشيئتها.

هنا تدرك بأن الإنسان يقرر ما يكونه في الحياة، يقرر أن يكون ناجحا، أو يكون فاشلا، أن يتمتع بسمعة طيبة، أو يتمتع بسمعة سيئة. تدرك هنا أن النجاح لا يتحقق بالأمنية فقط، كما أن الفشل لا يتحقق بالأمنية فحسب، مثل أن حصولك على طعام من نتاج جهدك لا يتحقق بالأمنية فقط، كما أن حصولك على طعام بسطو لا يتحقق

بأمنية فحسب.

إنك تحتاج الصبر على عملك، تحتاج إلى تحمل المشاق، والمتابعة، والإصرار، حتى تبلغ هدفك الذي نظرت فيه، وتمنيته لنفسك. ترى شخصا يأتي إلى عمل، وهو يجز خطاه، وكأنه يأتي جبر الخاطر، كأنه يبحث عن أي حجة حتى يرجع، ليقول في الناس بأنه إنسان غير محظوظ، ومكتوب عليه الفشل في أي عمل.

إلى جواره ترى شخصا يصر على عمله، حتى لو لم يحالفه الحظ مرات عديدة، إنه لا يفقد الأمل، لأنه يقرون حياته بعمله، فتراه يبلغ الهدف، ولو متأخرا، فيكون أفضل من جاره الذي ركن إلى يأس، ولبت فاشلا في الحياة، لا مكانة له، ولا بيت، ولا أصدقاء، ولا أسرة حميمة، ولا مكانا طيبا في محيطه.

هنا يكون أمامك أن تنظر بشيء من التأمل، بأن الإنسان هو عمله، وهنا يتسع صدرك لتأخذ مساحات أخرى من التأني، في جل خطوات حياتك.

اللامبالاة في أمور صغيرة، تؤدي إلى لامبالاة في أمور كبيرة، والاستمرار فيهما يؤدي إلى لامبالاة مطلقة تجاه كل خصائص وميزات إنسان إجتماعي يتسم بقيمة الأخلاق، ثم في مرحلة لاحقة إلى فقدان المسؤولية كاملة تجاه نوااميس الحياة برمتها.

ليس أمامك إلا أن تكون جادا في الحياة، عندما لا تكون جادا في الحياة، فإنها أيضا لا تكون جادة فيك.

ليس أمامك إلا أن تكون جادا في عملك، إن لم تكن جادا في عملك، فإنه أيضا لا يكون جادا فيك.

الفصل السادس

التلقي القرآني وترويض النفس

قراءة القرآن تدرّب القارئ على الصبر والتمهّل والحكمة، فتتروّض نفسه في محراب تربية القرآن لها.

تنتعش نفسه بقراءة القرآن، يرتاح سمعه بالإصغاء إلى تلاوة آياته. إن كل كلمة يقرأها، أو يسمعها، تجعله أكثر توازناً، وأكثر هدوءاً. إنه كثير التمهّل في اتخاذ القرارات، حتى تنجلي له بعض المعالم، وتركن نفسه إلى اتخاذ قرارات صائب.

النفس تتبع توجهات صاحبها، لا توجد نفس لا ترضخ لأمر حاملها، والنفس كالمرأة، تكون امرأة كلما كان زوجها رجلاً، وتكون رجلاً كلما كان زوجها امرأة. وبالطبع فإنها في ذروة رجولتها، تكون رجلاً ناقصاً، وفي ذروة أنوثته، يكون امرأة ناقصة.

النفس تقف أمام صاحبها القوي بخشوع، بوقار، بتقدير، باعتزاز، بأمان. وتقف إزاء صاحبها الواهن بسخرية، باستهزاء، باشمئزاز، بخيبة، بقلق.

تريد النفس أن تكون مفتاحاً بيد صاحبها، أكثر مما تريد أن يكون مفتاحاً بيدها.

إنها مرة أخرى كالمرأة، في ذروة اشمئزازها توجه صفة مؤلمة إلى زوجها الواهن، رداً على وهنه، وعدم تمتعه بمسؤولية الرجولة نحوها.

إنها تعبر عن قوة إدانتها لـ لا تمتعه بخصال الرجولة.
كذلك النفس، التي توجه العقاب تلو العقاب لصاحبها، ردا على رضوخه لرغائبها، إنها تستمد معالم استقوائها من منحرجات وهنه.
عندما يتقدم الإنسان في مراحل قراءته للقرآن، يتعلم كيف يمضي بهدي القرآن، كيف ينظر إلى مقومات الحياة، ومجريات الأمور من حوله، نظرات قرآنية.

إن القرآن يدعوك للإلتباه إلى مفاصل دقة العلاقة بينك وبين نفسك. لننظر هنا إلى منزلة النفس في وصف الله لها في سورة الشمس:
وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾.
إنها المسؤولية تجاه تنظيم وترويض النفس، فيمكن لها أن تكون فاجرة، تمارس فجورها عليك، ويمكن لها أن تكون تقيّة، فتقطف زهور تقواها. إن المسؤولية تجاه النفس هنا، تجعلك تبذل جهداً كي توظف نزعاتها وشهواتها التوظيف الإيجابي.

يقول الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾
الرعد/ ١١.

ويقول: ﴿أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَيَٰنَ الْجَنَّةِ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ النازعات/ ٤٠، ٤١.
هنا تدرك أن نهى النفسي عن الهوى، هو درجة متقدمة من

درجات مخافة مقام ربك، وأنت تمتلك المقدرة على إرضاخ نفسك،
ومواجهة نزعاتها.

ولذلك يقال في الشعر:

إذا حار أمرك في معنيين

ولم تدر أين الخطأ والصواب

فخالف هواك، فإن الهوى

يقود النفوس إلى ما يعاب

إن النفس يمكن لها أن تستهلك طاقة بدنك، فتحيلك إلى كائن
واهن مقعد، حتى لو كنت في ذروة اللياقة والعطاء، ولكن قيادتك
لنفسك تجعلك تستمتع بلياقة الشباب والعطاء، حتى لو تقدمت بك
السنوات إلى حواف الشيخوخة. فكم من شيخ ناضر الحيا، لائق
البدن كشاب، وكم من شاب محتقن الحيا، واهن البدن، ولا شيء بين
الإثنين سوى أن الأول منتبه إلى تعامله مع نفسه، حتى ينتابه إحساس
أن نفسه غدت كخاتم في إصبعه يحركه حيث يشاء، ويبقيه حيث
يشاء، والأول مفرط في الجري خلف هوى نفسه.

إن بعض القراءات غير المتدبرة للقرآن الكريم، قد تجعل من قارئها
متشددًا، وقامعًا لنفسه إلى درجة الكبت. وحقيقة الأمر، فإن النفس
بها شهوات وملذات، وتحقق المتاع والمباهج، وهذا لا ضير منه،
فنفسك تميل إلى ثوب حسن، تميل إلى الاقتزان بامرأة جميلة، تميل إلى
النجاح في العمل، إلى كسب المال، إلى رحلات ونزهات، إلى شيء من
اللعب والاستئناس والتسلية، أو ممارسة هوايات، مثل: ركوب الخيل،

والسباحة، والرياضة، ومشاهدة ألوان برامج التلفاز، والتواصل مع الناس من خلال مواقع التواصل الاجتماعي.

فأنت عندما تنهى النفس عن الهوى، الإثم، العدوان، المعصية، فلا بد لك أن توظف ما بها من مزايا وإمكانات توظيفاً إيجابياً. فقد زين الله لك متاع الحياة الدنيا بقوله: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ آل عمران/١٤.

وخطب الله نبيه قائلاً: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ القصص/٧٧.

يمكنك هنا أن تحقق رغبات نفسك، فهي التي تُشعرك بمتاع الدنيا. هنا تدرك أن القرآن يساوي بينك وبين نفسك، ولا يفصل بينكما، إنه ينظم العلاقة التكاملية التوافقية الإيجابية بينك وبين نفسك، لأن قطع الصلة بينكما، يحيلك إلى كائن واهن هامشي مقطوع الصلة بمقومات الحياة.

إن كبت النفس يوِّلد حالة التشدد، والتعصب، والغلو. ونفسك تشير بك الشهوة إلى متاع الحياة الدنيا، وعليك العمل من أجل تلبية هذه الشهوة، وإعطاء نفسك حقها.

تدفعك نفسك أن تقبل طفلك، بيد أن التشدد قد يحدّ من هذه التلبية، فترى ذلك انتقاصاً من مزايا الأبوة. إن تلبية هذه الرغبة لا تحقق لك النشوة والمسرة فحسب، بل تُكسبك أجراً، فكل قبلة تقبلها

لأبنائك تكسب بها أجراً عند الله، وكل لقمة تضعها في فم امرأتك، تكسب بها أجراً عند الله، وكل حلية تقدمها لامرأتك تكسب بها أجراً، وكل جماع مع امرأتك تكسب به أجراً، لأنك نهيت نفسك عن الزنا، ووضعت شهوتك فيما سن لك الله.

سنة الله المباركة هذه ستجعلك تشعر بفضل امرأتك عليك، لأنها جعلتك محصناً، وتُشعرها بفضلك عليها، لأنك جعلتها محصنة.

حتى عندما تطعم نفسك طعاماً اشتتهته، فإنك تكسب أجراً، لأنك بذلت ما بذلت من جهد حتى كسبت قيمة الطعام، ثم أتيت به وأطعمت نفسك الجائعة، فأنت أطعمت نفساً جائعة، فأكرمك الله بأن جعل ذلك لك صدقة، رغم أن هذه النفس هي نفسك، وأنت مسؤول عن إطعام نفسك، فإن تطعمها طعاماً بما أحل الله، خير مما تطعمها طعاماً بما نهى الله، وأن تطعمها طعاماً من كدك، خير أن تطعمها بالسؤال، أو ما تقع عليه من فضلات.

ربما من أهم التحديات التي تواجه الإنسان لحظة يبدأ وعيه بالتشكل، هو أنه يرى نفسه أمام وقائع حياتية متناقضة، ليس بوسعه أن يعيش في معزل عن مؤثراتها. هنا يكتشف مدى حاجته إلى ترويض النفس على استيعابها، والإحاطة بها، والوقوف موقفاً وسطياً أولياً منها، حتى يستقر الحدث، ومن ثم يأخذ موقفه المعتدل من واقع هذا الحدث.

الموقف الوسطي الأولي هنا، قد يحتاج إلى شيء من التكيف، حتى مع حدث سليلي يقع بغتة، وهنا يكون أمامك أن تميز بين التكيف

المؤقت، وبين الرضوخ تسليماً لواقع الحدث، لأن الحدث المباغت بالنسبة لك هو غموض لا تدرك مكانه وضعفه، ومعالم قوته. الأمر الذي لا يؤهلك تحديد نقاط الوهن، ونقاط القوة فيه، ومقارنتها بقدراتك على الاصطدام الفوري والمباشر معها.

ليس بالضرورة أن ينحصر الحدث في ماديته، بل قد يكون فكرة تخطر لك، فترى نفسك إزاء حدث فكري منزلزل، ربما أقوى من حدث مادي مباشر .

الترويض هنا لا يحتاج إلى شيء قدر حاجته إلى الزمن، كما أنك لا تحتاج إلى شيء، قدر حاجتك إلى مرور زمن، ليترسخ سلوك الترويض في نفسك، التي شيئاً فشيئاً، حدثاً حدثاً، موقفاً موقفاً، تسمي روضة عامرة بالنضج والحكمة والتجارب، تأخذ بين حين وحين، قسطاً من راحة روحية في رحابة جداولها.

الترويض في هذا الباب درجات، أحياناً حتى النظرة تحتاج إلى تأن كي تنظرها، الكلمة تحتاج إلى وقت حتى تلفظها، الخطوة تحتاج إلى تردد حتى تخطوها، التعرف على شخص جديد، تراه لأول مرة، يحتاج إلى مراحل حتى تستقبله صديقاً، حتى النهوض من فراش النوم يحتاج إلى تمهل حتى تقف على قدميك.

النظرة غير المتأنية قد تفقئ عينيك، الكلمة المتسارعة قد تسجل عليك تقييماً تأباه، الخطوة العاجلة قد تؤدي بك إلى هوة، الشخص الذي تستقبله صديقاً منذ اللقاء الأول، قد يضمرك شراء، النهوض المباشر من الفراش، قد يجعلك في حالة توتر طوال اليوم.

من هنا نتوسع بالتعرف على روضة النفس، ونمارس حالة الترويض على أنفسنا، كي نتجاوز بعض المواقف التي تواجهنا، ونقول: لله الأمر من قبل ومن بعد، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم.

عندما نقرأ القرآن، نصبح أكثر معرفة بأنفسنا، حيث يقدم لنا القرآن الكريم مكونات النفس، يقدم مزاياها، تركيبها، ميولاتها. كما يرشد القرآن قارئه الماهر كيفية قيادة النفس، كيف يكون الإنسان سيداً على نفسه، وعندذاك يتذوق لذة السيادة الحقيقية، إنه يشعر بمعنى براعة السيادة، فلو كنت سيداً على مليون شخص، يمكن لنزعة صغيرة في نفسك، أن تفسد عليك كل حالة السيادة التي تشعرها تجاه هؤلاء، أما إذا كنت سيداً على نفسك، لا يكون بمقدور مليون شخص أن يفسدوا بهجة ولذة ممارستك لعدوبة سيادتك على نفسك.

إذن، لا سيادة تتقدم سيادتك على هوى النفس، ولا خيبة تنحدر بك قدر رضوخك لنزوعات النفس، حتى تبلغ بك درجة تفسد عليك كل مقومات وأركان حياتك الظاهرة والباطنة.

تكمن روح الطبيعة في أن أي فعل غير طبيعي تقوم به، يعكس على مكنوناتك ثورة رد فعل غير طبيعي، وعليك أن تحتل هذه الثورة، كما احتملت طبيعتك الطبيعية فعلك اللاتبيعي.

إن ثورة اللاطبيعة نائمة لا يوقظها غير فعل لا طبيعي تقوم به، فتنتفض من سباتها العميق، وتثور على صفاء طبيعتك الساكنة، ولا تعود إلى سباتها قبل أن تعود إلى طبيعتك، أو أن تعيدك إلى طبيعتك

بالقوة، وإن كنت عنيدا سوف تحيلك إلى كائن لا طبيعي، يعيش حياة لا طبيعية، وتبقى يقظة، كما أنك تبقى يقظا لا يدركك نوم. واعلم أن الداء لا يتحول إلى دواء، إنه في أفضل أحواله مزيد من الداء، دوما عليك أن تكون دائم البحث عن دواء لدائك، وإن لم تجده، فإن صبرك الطويل يتحول مع الزمن إلى دواء. ما دامت الشمس تشرق كل يوم، فإنها سوف تحمل إليك جديدا لم تكن قد أدركته قط، حتى لو كنت في ظلمة كهف. كل حاضر قابل لأن يتحول ذات حاضر إلى ماض، ما هو غير قابل لأن يتحول إلى ماض، لم يكن له حاضر ذات حاضر. عندما تمنح قرضا لشخص لأجل مسمى، وعندما يعجز عن السداد لدى حلول الأجل، وعندما تنظر في قول ربك: (وَإِنْ كَانَ دُوْ عُسْرَةً فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) البقرة/٢٨٠، تدرك أن قرضك يغدو صدقة جارية لك في الحياة. عند ذاك تنظر إلى ألا يأتي المدان فيعيد إليك قرضك، حتى لا يقطع جذر صدقتك الجارية في الحياة. إن الله خلقك في الحياة، وخلق الحياة فيك، حتى تنفتح حواسك فيها كل هنيهة أكثر من سابقتها، وإن مرت عليك هنيهة لم تحمل لك جديدا، ولم تحمل لها جديدا، كانت كسابقتها، وكنت كسابقك عليها. يريد الله منك أن تكون دائم السعي لرحاب المعرفة، وكلما تعرفت بآيات الله في الكون والخلق، دنوت من الله، ودنا الله إليك. ليس ثمة شعور بسكينة الأمان يضاهي شعور مؤمن، وهو مستكين في عمق إيمانه، بأنه بين يدي الله.

الإنسان الذي ليست لديه قابلية لأن يتعلم من الله، لا تكون لديه قابلية لأن يتعلم من أحد من خلق الله.

إن كل مظهر من مظاهر الحياة لم يكن ليأت لولا مشيئة الله، ولذلك لا يملك إلا أن يسلم لمشيئة الله.

يزداد قارئ القرآن، وهو يواجه نزوعات النفس، توازناً، وصبراً، وحكمة، حتى يغدو مثلاً للآخرين.

كنتُ دوماً عندما أقف أمام تشريع الله، أو نهيه، في القرآن الكريم، أرى أن هذا الإرشاد إنما هو توجيه للإنسان، حتى يفقه الحياة التي يعيشها، يتجنب العبثية في مسيرة حياته، وهو إرشاد من خبير يعلم (السر وأخفى).

الاقتساط، هنا يشمل كل تفاصيل حياة الإنسان. أينما كان، وحيثما وجد، فثم اقتساط، وربما هنا يكون نقيض الاقتصاد الذي بات متداولاً في عالم المال حصرياً، فالاقتساط هنا يشمل كل مقومات الحياة في الإنسان إضافة إلى المال.

في النظر اقتساط،
 في الحديث اقتساط،
 في السمع اقتساط،
 في الحب اقتساط،
 في العلاقات الاجتماعية، وحتى في سائر العبادات، سواء كانت فرض عين، أو فرض كفاية.

ثمة حديث للنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "نحن قوم لا نأكل

حتى نجوع، وإن أكلنا لا نشبع".

ولا يعني قوله: "لا نشبع"، أنه لا يوجد لدينا طعام، أو أنه نفذ، أو أن ندخر شيئاً منه للغد، قدر ما يعني أن تدرب نفسك على ألا تأخذ من كل شيء، كل شيء.. بل دوماً تترك حاجتك، حتى تبقى تواقاً إلى مقومات هذه الحياة، وهذا يأتي حتى على العشرة الزوجية بين الزوجين، فعليك ألا تأخذ كل شيء من هذه العشرة، حتى تقي نفسك الضجر، فدوماً وأنت تنظر إلى عيني حليلتك كأنك تنظر إليها أول مرة، حتى وأنت تنهض للتو من فراشها، حتى وأنت تنظر في عينيها.

عليك أن تبقى دائم التوق لتلك الطقوسية، تلك العشرة الزوجية، من أجل أن تستمر في حميميتها، ولا تموت روح التوق لتلك اللحظات بينكما.

إنك هنا تقتسط في أن تكون مبذراً في حبك وعلاقتك بها، كمن يريد أن يقول كل شيء في يوم واحد، وإذا تحقق له ذلك رأى نفسه يوم الغد كائناً لا يلزم، لأن لا أحد ينتظر أن يسمع منه شيئاً جديداً. كما يمكن لك أن تتحول إلى كائن غرائزي "همجي"، تأخذ كل شيء، وكأنك تقوم بعملية افتراس، فتنهض من فراشك، وأنت في حالة لا تقاوم من الضجر، عندئذ لا تملك إلا أن تبعد عن حليلتك، وتبتعد عن ذكرها، حتى وهي بعيدة عنك. فتكون قد ألحقت الظلم بنفسك، وبها.

ألحقت الظلم بها، لأنك بت تضجرها، وألحقت الظلم بنفسك،

لأنك جعلتها تضجرك في إفراطك.
هنا تكمن عظمة الله، الذي ينظر إلى عباده برأفة، ويريد أن تتمتع حياتهم بكل أشكال ومقومات المعافاة والتوق والتجدد والتعامل الإنساني الراقى فيما بينهم.
الاقتساط يكون حتى في العمل المنزلي، بالنسبة لسيدة البيت، فلا يجيز لها أن تقوم بعملين في وقت واحد، حتى تقي نفسها الإرهاق في العمل، الذي من شأنه أن يؤدي إلى حالة ضجر عامة من البيت، ومن المسؤولية الزوجية.
يمكن لها أن تقوم بعمل واحد على أكمل وجه، فتشعر بأنها تستمتع وهي تعمل، لأن ما بين يديها هو من نعم الله، وقد وضع الحق نعمه هذه بين يديها، حتى ينظر إن كانت تتقن التعامل مع هذه النعم، وتكون قدر المسؤولية، أم أنها تفشل في التعامل مع هذه النعم، فتفسدها.
أمام ذلك ستدرك بأن عليها أن تحسن لهذه النعم، حتى تدوم، وتحل عليها بركة إلهية.
ثم بعد ذلك تأخذ قسطاً من راحة، مكافأة على ما بذلته من جهد، ومن إحسان وإتقان.
هذا القسط يمكن تسميته: التوازن بين الجهد والراحة، مثلما يمكن تسمية ما ترك النبي صلى الله عليه وسلم من طعام وهو ما زال دون شبع (اقتساط)، كما يمكن تسمية شوق ذاك الزوج إلى زوجته، حتى وهو جوارها: (اقتساط).

في وجه آخر يمكن ملاحظة أن حالات من اللا اقتساط تؤدي إلى إلحاق أذى بالناس والطبيعة. فانظر، على سبيل المثال، إلى مطر ينهمر برفق، فينبت منه زرع، ويأكل منه الإنسان والدواب، ثم انظر إلى مطر يأتي بغزارة، فتفيض المدن، والطرق، والبيوت، يهلك الإنسان، ويموت الزرع، وتموت الدواب، نتيجة الفيضانات التي زادت عن حاجة الناس والأرض.

ثم انظر إلى نسيمات هواء عليلة تشفي حتى المرضى، وانظر إلى هيجان العواصف، التي تقتلع البيوت والأشجار، وتدمر ما يقع في دربها وتهلك البلاد والعباد.

أجل إنه الاقتساط، الذي علينا أن نتعلم منه، في كل هذه المجريات التي نراها، ونعيشها.

أليس الاقتساط هو الذي يجعل الأب يوزع محبته على سائر أبنائه، دون واحد منهم،

أليس الاقتساط في العبادة يجعل المرء تواقاً إليها، ولا يضجرها،

ألا يتوق المرء إلى شهر الصوم،

ألا يتوق إلى عائل، فيتصدق عليه،

يقول لك الاقتساط: عليك ألا تعطي كل شيء، حتى لا ينفذ

لديك كل شيء.

عليك ألا تأخذ كل شيء، حتى تقي نفسك عدم التوق إلى بريق

شيء جديد، فما دمت تعيش الحياة، عليك دوماً أن تعطي، و عليك

دوماً أن تأخذ، في علاقة حميمة تبادلية مع مقومات حياتك: الحياة،

وسائر الناس الذين تعيش فيهم.

يحضرنى هنا بقوة بيت من الشعر لأبي الأسود الدؤلي، يقول فيه:
والنفسُ رغبةٌ إذا رَغبتُها

وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تُقنعُ

دوماً يمكن أن تنظر إلى أن البارئ يمنحك ما يمكن أن تكون مبذراً به، وبذات الوقت يمنحك حرية أن تكون مبذراً، أو تكون مقتصداً.

أنت الآن تجلس إلى مائدة عليها ألوان متعددة من طعام شهية وشراب لذيذ، لقد منحك الله هذا الطعام، ومنحك شهية وقابلية لتناول هذا الطعام، بيد أنك - ومن تلقاء نفسك - تترك شيئاً على هذه المائدة، قبل أن تضجره، بل تنهض وفي نفسك رغبة للبقاء مزيداً مع مسامريك.

هنا تشعر بقوتك على نفسك، وبسيطرتك على زمامك، وأنت لا تنقاد، بل تقود، لا تُرضخ، بل تُرضخ.

ثم ترى هذا بشكل تلقائي يجري على سائر ممارساتك وسلوكياتك في الحياة، وفي الناس، وفي نفسك.

إن الله يرزقك بشيء من مال، لكن ليس مطلوباً منك أن تنفق هذا المال في يوم، وهنا يأتي توجيه الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾
الإسراء/٢٩.

هذه هي المسؤولية الحقيقية التي يهبك المقسط إياها، فهو يعطيك زاد يومك، وزاد غدك، وما بعد غدك، وربما زاد عمرك كله، في يوم

واحد، أو شهر واحد، أو سنة واحدة. تبقى أمامك أن تكون مقتسطا في هذا الزاد، وألا تنفقه جملة واحدة.

هنا يكون الاقتساط نقيض التبذير، خلاف ما يُظن للوهلة الأولى على أنه شكل من غلو اليد. إننا نحتاج إلى القسط في سائر حياتنا، حتى نقي أنفسنا الهمجية والفوضى والبيولوجية. وهذا بذاته يكون نقيض البخل، الذي هو مذموم في الشرائع والأعراف والمبادئ الإنسانية، لأن البخل نقيض الاقتساط. فالبخيل يغل يده إلى عنقه، ولا ينفق شيئا مما آتاه الله، سواء على نفسه، أو على الآخرين.

القسم الثاني

فضل القرآن على الإنسان

استهلال

لو لم تكن حاجة الإنسان إلى القرآن بلغت ذروتها، لما أرسله الله إليه، إنه رحمة من الله بالإنسان، ونور حلّ على ظلمتي الإنسان والأرض معاً.

الناس جميعاً يحتاجون إلى قراءة القرآن، سواء أكانت قراءات تعبدية، أو قراءات معرفية، وهناك أناس يحتاجون إلى قراءة القرآن أكثر من غيرهم، حتى تتناهم السكينة الروحية، وحتى يتعرفوا على سيكولوجية الإنسان، حتى يعلموا تاريخ أجدادهم، حتى يروا أنفسهم بين ثنايا صفحات القرآن، لأن القرآن يتحول في بعض آياته إلى مرآة، يرى فيها القارئ نفسه بصورة جلية، لا يراها في أي قراءة أخرى.

إذا قرأنا القرآن قراءات فكرية، وأخلاقية، واجتماعية، ومعرفية، وحقوقية، وتهديبية، وإنسانية، سنرى أنه ينظّم للناس مقومات حياتهم، يبيّن لهم مسالك الخير، ومسالك الشر، يغرس في نفوسهم قيم الأخلاق، يعزز فيهم روح التكاتف الاجتماعي، يعلمهم ما لا يعلمون، يجعلهم يحفظون حقوق أنفسهم، وحقوق بعضهم البعض، يهدّب أفئدتهم، يمتن الروابط الإنسانية في نوازعهم.

يقول الزركشي: "قال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران المقرئ: عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة.

وقال: بعث (الحجاج بن يوسف) إلى قراء البصرة، فجمعهم، واختار منهم (الحسن البصري) و(أبا العالية) و(نصر بن عاصم)

و(عاصما الجحدري) و(مالك بن دينار) رحمة الله عليهم، وقال: عدوا حروف القرآن، فبقوا أربعة أشهر يعدون بالشعير، فأجمعوا على أن كلماته سبع وسبعون ألف كلمة، وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة، وأجمعوا على أن عدد حروفه: ثلاثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفاً، وخمسة عشر حرفاً.

وقال غيره: أجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية، ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك على أقوال، فمنهم من لم يزد على ذلك، ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرة آية، وقيل: مائتان وتسع عشرة آية، وقيل: مائتان وخمس وعشرون آية، أو ست وعشرون آية، وقيل: مائتان وست وثلاثون، حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتاب (البيان).

وأما كلماته، فقال الفضيل بن شاذان، عن عطاء بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة، وأربعمائة وسبع وثلاثون كلمة.

وأما حروفه، فقال عبد الله بن جبير، عن مجاهد: ثلاثمائة ألف حرف، وأحد وعشرون ألف حرف. وقال سلام أبو محمد الحماني: إن الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتاب، فقال: أخبروني عن القرآن كله، كم من حرف هو؟ قال: فحسبناه، فأجمعوا على أنه ثلاثمائة ألف وأربعون ألف وسبعمائة وأربعون حرفاً. قال: فأخبروني عن نصفه؟ فإذا هو إلى الفاء من قوله في (الكهف): (وليتلطف)، وثلثه الأول عند رأس مائة من (براءة)، والثاني على رأس مائة أو إحدى ومائة من (الشعراء)، والثالث إلى آخره، وسبعة الأول إلى الدال في قوله:

(فمنهم من آمن به، ومنهم من صد عنه). والسبع الثاني إلى التاء من قوله في (الأعراف): (حبطت أعمالهم). والثالث إلى الألف الثانية من قوله في (الرعد): (أكلها)، والرابع إلى الألف في (الحج) من قوله: (جعلنا منسكا)، والخامس إلى الهاء من قوله في (الأحزاب): (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة)، والسادس إلى الواو من قوله في (الفتح): (الظانين بالله ظن السوء)، والسابع إلى آخر القرآن.

قال سلام: علمنا ذلك في أربعة أشهر.

قالوا: وكان الحجاج يقرأ في كل ليلة ربع القرآن، فالأول إلى آخر (الأنعام)، والثاني إلى (وليتلطف) من سورة (الكهف)، والثالث إلى آخر (المؤمن)، والرابع إلى آخر القرآن. وحكى الشيخ (أبو عمرو الداني) في كتاب (البيان) خلافا في هذا كله.

وأما التحزيب والتجزئة، فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين، كما في الربعات بالمدارس، وغيرها، وقد أخرج (أحمد) في مسنده، و(أبو داود)، و(ابن ماجة)، عن أوس بن حذيفة، أنه سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل من ق حتى يختم.

أسند (الزبيدي) في كتاب (الطبقات) عن (المبرد): أول من نقط المصحف (أبو الأسود الدؤلي). وذكر أيضا: أن (ابن سيرين) كان له مصحف نقطه له (يحيى بن يعمر). وذكر (أبو الفرج) أن (زياد بن أبي

سفيان) أمر (أبا الأسود) أن ينقط المصاحف. وذكر (الجاحظ) في كتاب (الأمصار) أن (نصر بن عاصم) أول من نقط المصاحف، وكان يقال له: نصر الحروف.

وأما وضع الأعشار، فقول إن (المأمون) العباسي أمر بذلك، وقيل إن (الحجاج) فعل ذلك.

واعلم أن عدد سور القرآن العظيم، باتفاق أهل الحل والعقد: مائة وأربع عشرة سورة، كما هي في المصحف العثماني، أولها الفاتحة، وآخرها الناس. وقال مجاهد: وثلاث عشرة، بجعل الأنفال والتوبة سورة واحدة، لاشتباه الطرفين، وعدم البسمة. ويرده تسمية النبي صلى الله عليه وسلم كلا منهما. وكان في مصحف (ابن مسعود) اثنا عشر، لم يكن فيها المعوذتان، لشبهة الرقية. وجوابه: رجوعه إليهم، وما كتب الكل. وفي مصحف (أبي) ست عشرة. وكان دعاء الاستفتاح والقنوت في آخره كالسورتين، ولا دليل فيه لموافقتهما، وهو دعاء كتب بعد الحتمة.

وعدد آياته في قول (علي) رضي الله عنه: ستة آلاف ومائتان وثمان عشرة، و(عطاء): ستة آلاف ومائة وسبع وسبعون، و(حميد): ستة آلاف ومائتان واثننا عشرة، و(راشد): ستة آلاف ومائتان وأربع. وقال (حميد الأعرج): نصفه (معي صبرا) في (الكهف)، وقيل: عين (تستطيع)، وقيل: ثاني لامي ﴿وليتلطف﴾.

واعلم أن سبب اختلاف العلماء في عد الآي والكلم والحروف، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف،

فإذا علم محلها وصل للتمام، فيحسب السامع أنها ليست فاصلة. وأيضا البسملة، نزلت مع السورة في بعض الأحرف السبعة، فمن قرأ بحرف نزلت فيه عدّها، ومن قرأ بغير ذلك، لم يعدّها. وسبب الاختلاف في الكلمة، أن الكلمة لها حقيقة ومجاز، ورسم واعتبار، كل منها جائز، وكل من العلماء اعتبر أحد الجوائز، وأطول سورة في القرآن هي (البقرة)، وأقصرها (الكوثر). وأطول آية فيه آية الدين: مائة وثمانية وعشرون كلمة، وخمسمائة وأربعون حرفاً.

وأقصر آية فيه: والضحي، ثم: والفجر، كل كلمة خمسة أحرف تقديراً، ثم لفظاً ستة، رسماً، لا: مدهامتان، لأنها سبعة أحرف لفظاً ورسماً، وثمانية تقديراً، ولا: ثم نظر، لأنهما كلمتان: خمسة أحرف رسماً وكتابة، وستة أحرف تقديراً، خلافاً لبعضهم. وأطول كلمة فيه، لفظاً وكتابة، بلا زيادة: فأسقيناكموه، أحد عشر لفظاً، ثم: اقترفتموها، عشرة، وكذا: أنلزمكموها، والمستضعفين، ثم: ليستخلفنهم، تسعة لفظاً، وعشرة تقديراً. وأقصرها، نحو: باء الجر، حرف واحد، لا أنها حرفان، خلافاً لـ(الداني) فيهما^{٢١}.

^{٢١} أبو عبدالله محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، فصل في عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١هـ).

إن القرآن هو كتاب تشريعي، تنويري، فكري، تعبدي، تأملي، معرفي، حقوقي، رباني، إنساني، وهو كتاب الدنيا بامتياز، إلى جانب أنه كتاب الآخرة بامتياز، فهو يخاطب الناس الأحياء، وموجه إلى الأحياء، ويتوارثه الأحياء، وينتفع به الأحياء، بالدرجة الأولى. ليس قارئ القرآن هو الذي ينتفع بالقرآن دون غيره، ولا ملة الإسلام تنتفع بالقرآن دون غيرها، بل ينتفع به كل من في الأرض جميعاً، فالقرآن ينتشر نوره من خلال الناس، وقارئ القرآن يمكن له أن يؤثر، سواء بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، على مجتمع كامل، حتى لو كان هذا المجتمع لا يدين بدين القرآن، ولا يمس نسخة من كتاب القرآن.

عندما يقرأ شخص رواية، يمكن له أن يقرأ شيئاً من القرآن، وهو يقرأ هذه الرواية، قد يكون الروائي مسلماً، وقد لا يكون مسلماً، بيد أنه قرأ القرآن، وترك القرآن أثراً على فكره.. قد يقرأ قارئ هذه الرواية شيئاً مقتبساً من سور القرآن، وقد يقرأ شيئاً بطريقة غير مقتبسة، وغير مباشرة.

إنه مع قراءة الرواية يدخل عالم التشريع القرآني، هذا التشريع الذي يشمل: الزواج، والأعراف، والقيم، والتقاليد الاجتماعية، والمبادئ، والتواصل الاجتماعي والإنساني. إنه يتعرف على القرآن من خلال الذين يدينون به، ولذلك قد يترك القرآن أثراً عليه، من خلال أجواء هذه الرواية.

لقد أثار القرآن كوكب الأرض بنور الله، وترك أثره على سكان العالم، ولا أظن أن بقعة جغرافية من الأرض لم تنتفع ولو بقبس من نور القرآن، وذلك فضل من الله على الإنسان.

الفصل الأول

حاجة الإنسان إلى القرآن

القرآن الكريم هو الكتاب الأكبر الذي يكمن فيه كل علاج للروح، يقدم علاجات شافية لأولئك الذين يتعرضون لاهتزازات نفسية حادة، ويبلغون مشارف حلكة اليأس، الكتاب الذي ينفض عن النفس البشرية كل دواعي الضجر، ويث فيها الأمل في إشراق حياة جديدة .

إنه كتاب الانعطافات البالغة الأهمية في حياة الإنسان، ذلك أن الإنسان يستمدّ سويته من دواخل هذا الكتاب الذي ينير له السبيل، وكلما قرأه بتدبر، كلما تلقى نصوع المعاني السامية التي يبثها إليه القرآن.

يحتاج الإنسان أن يكون دائم الذكر لأفضال الله عليه، يحتاج أن يتفكر في آيات هذه الأفضال ما بوسعه، حتى يدرك قيمة العناية الإلهية به، وحتى يدرك قيمة ذاته، فيوليها أيضاً ما استطاع من عناية، إنه هنا يدرك قيمته عند ربه، ويدرك قيمته عند ذاته.

قال بعض الحكماء: "إذا أراد الله بعبده خيراً، ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقهه في الدين، وعضده باليقين، فاكتفى بالكفاف، واكتسى بالعفاف.

وإذا أراد به شراً، حبب إليه المال، وبسط منه الآمال، وشغله

بدنياه، ووكله إلى هواه، فركب الفساد، وظلم العباد".
الذي يجحد أفضال الله، ولا يذكرها، تراه تلقائياً يرد على النعمة،
ولا يقدرها، فيكون وجودها وعدم وجودها لديه سيان، مثله مثل فاقد
حاسة الذوق، فلا يميز بين حلو وعلقم، مثله مثل فاقد السمع، فلا يميز
بين ثناء وذم.

هناك أشخاص تراهم لا يذكرون الله، إلا عندما يطلبون حاجة،
وحتى عند طلب الحاجة، فإنهم لا يذكرون أفضال الله عليهم،
وكأنهم يريدون أن ينتزعوا حاجتهم انتزاعاً، وهم أنفسهم عندما
يتقدمون بطلب إلى سلطان ما، فإنهم يمطرونه بالمديح والثناء، بما ليس
له قبل طلب الحاجة، لعله يرأف ويرحم لتلبية الطلب.

يحتاج الإنسان أن يتفكر في أسماء الله الحسنى،

أن يسبحه،

أن يحمده،

أن يوحدده،

أن يشكره،

أن يمجده،

أن يكبره.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال على المنبر: "إن أشعر
كلمة قالتها العرب: ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل". وهو مقطع
قصيدة للبيد بن ربيعة يقول فيها:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل
 وكل نعيم لا محالة زائل
 وكل ابن أنثى لو تطاول عمره
 إلى الغاية القصوى، فللقبر آيل
 وكل أناس سوف تدخل بينهم
 دويهة تصفر منها الأنامل
 وكل امرئ يوماً سيعرف سعيه
 إذا حصلت عند الإله الحصائل

وأذكر هنا أن دراسة جديدة، أجريت على مجموعة من المتطوعين في (الولايات المتحدة)، رأت أن الاستماع للقرآن المرتل يساعد على تخفيف حالات التوتر النفسي الشديدة، وتم معرفة أن هذا الاستماع ترك أثراً مهدئاً على أكثر من ٩٧٪ منهم، وتم رصد تغيرات لا إرادية في الأجهزة العصبية لهم، الأمر الذي أدى إلى تخفيف درجة التوتر لديهم بشكل ملحوظ، بالرغم من وجود نسبة منهم لا تعرف اللغة العربية.

وأظهرت الاختبارات، التي استخدمت رسومات تخطيطية للدماغ، أثناء الاستماع إلى القرآن الكريم، أن الموجات الدماغية انتقلت من النمط السريع الخاص باليقظة ١٢ و ١٣ موجة في الثانية، إلى النسق البطيء ٨ و ١٠ موجات في الثانية، وهي حالة الهدوء العميق داخل النفس.

دوما تذكر أن ذكر الله أكبر من أي عبادة، لأن العبادة لا تتحقق دون ذكر الله، فذكر الله هو رأس العبادات. عندما تذكر الله، فإنك بذات الهنيهة تذكر فضل الله عليك، إنك تشكره، فلا دوام لنعمة، دون شكر واهبها. في خطبة (حجة الوداع) دعا النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى كتاب الله، كي يستعينوا به.

هذه الخطبة التي تغتني بختام ما أراد أن يقوله خاتم الأنبياء محمد "صلى الله عليه وسلم" حامل رسالة القرآن للناس، وهي خطبة تمتاز بأنها موجهة لإنسان كل زمان ومكان، إنسان كل لغة وقوم ولون. تكاد (خطبة حجة الوداع) تلخص مسير رسالة النبي "صلى الله عليه وسلم" في الناس، تتفوّح بأريج المسك الأخير، الذي ينشره حامل ختم النبوة، ليبقى طيب ريحه أبد الدهر. إنه طيب ريح وداع هذا الرجل الأمين للعالم، وهي بمثابة تحية سلام إنسانية أبدية إلى الناس، ما بقيت الحياة.

لذلك أقبل الناس من مشارق الأرض ومغاربها، وعبر مختلف الحقب الزمنية، إلى الاستنارة بمشكاة هذه الخطبة الخاتمة، التي أراد أن يختتم بها خاتم الأنبياء والرسول، وحامل رسالة القرآن الكريم حديثه إلى الناس، فكان الاحتفاء الكبير بها، من قبل كل اللغات التي ترجمت إليها في العالم، وتركت أثرها البالغ على كل قارئ لمعالم هذه الخطبة الخاتمة، التي استفتحتها خطيبها الأمين بالذي هو خير. إن (خطبة حجة الوداع) الثمينة، التي غلبت عليها النزعة الإنسانية

بامتياز، هي بمثابة مرآة يرى الإنسان نفسه في ثنايا سطورها. إنها ملخص عمر بأكمله من حياة (محمد بن عبد الله) صلى الله عليه وسلم، هذا العمر الحافل، والغني بكل مقومات الحياة بكافة جوانبها. إنه يتحدث، وهو يقف في أعلى قمة النضوج الإنساني، يتحدث بجواهر الكلم، التي تنبّه الإنسان إلى أهمية تمسكه بمزايا إنسانيته، وترويضه السليم لمعالم النزوع الإنساني في فطرته، لأن النزعة الإنسانية تتقدم، وتفتح، وتشرق، كلما مارسها الإنسان وارتقى بها، وتصاب بالوهن والجمود والشلل، إذا لبثت دون ترويض وممارسة، وعندما تستقوى النزعة العدوانية المقابلة، لتسمي هي الطاغية، بسبب ترويضها وممارستها، وكلما استقوت النزعة العدوانية، وهنت النزعة الإنسانية، وكلما استقوت النزعة الإنسانية، وهنت النزعة العدوانية.

تبيّن لنا هذه الخطبة - الجوهرة - أن أفضل انتباه يكفل للإنسان التزامه بحدود الله، هو انتباهه إلى أهمية ممارسة مزايا إنسانيته، و فقط عندما يلتزم الإنسان بحدود إنسانيته، سيتولّد من ذلك التزام بحدود النفس، حدود الآخرين، حدود الله. وعلى هذا، فإن الذي يعتدي على حقوق نفسه، أو على حدود الآخرين، فإنه مع ذات الخطوة يخرج عن إنسانيته، لأن الطبيعة الإنسانية لا تقبل أن يبقى الإنسان داخل منظومته الإنسانية، وهو يعتدي على حياة أو أملاك أو أعراض أخوته، إنه في تلك اللحظات الاعتدائية الرهيبة، يكون خارجاً عن إطاره الإنساني، وعن كينونته البشرية.

تتجلى النزعة الإنسانية، في مستهل هذه الخطبة، ببيان تحريم

الاعتداء على حياة وممتلكات الآخرين، وللتحريم المباشر، بصيغة الأمر، وقعه الشديد في حفظ حق الإنسان، وتمتعه بحياته، وممتلكاته. عندئذ يدعو النبي صلى الله عليه وسلم عامة الناس بقوله: (أيها الناس)، الذي يتكرر، دون أن يقصر خطابه للمسلمين فقط. إنه خطاب عام للناس كافة من بعده، كي يؤدوا أماناتهم تجاه بعضهم بعضاً، في عائلة إنسانية سمّتها الأمانة، وينهى الإنسان أن يستغل حاجة وضعف الإنسان في عملية الربا، والاستبدال بالقرض الحسن، هذا القرض الذي هو في جوهره سلوك إنساني، يعزز مشاعر الحبة والألفة والإحسان في المجتمع الإنساني.

توجه هذه الخطبة الإنسانية الخالدة إلى حق الإنسان على أخيه الإنسان، وواجب الإنسان تجاه الإنسان، فتذكر برابط الأخوة الإنسانية، هذا الرابط الذي يتساوى أمامه الناس جميعاً في الحقوق والواجبات الإنسانية تجاه بعضهم بعضاً.

إن محمداً "صلى الله عليه وسلم" يتحدث هنا من كونه أتم أداء رسالة القرآن إلى الناس، ويريد أن يخبرهم بأنه سيغيب عنهم، بيد أنه يترك فيهم القرآن العظيم الذي يحفظه الله تشريعاً لهم .

كأن النبي "صلى الله عليه وسلم" في إشارته الأخيرة للناس يقول لهم: لا شيء لكم من بعدي سوى ما أرسلني الله به، فيقول: "تركتم فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا أبداً، كتاب الله".

مع كلمات هذه الخطبة الوداعية التي يودّع بها النبي "صلى الله عليه وسلم" الدنيا والناس جميعاً، نشعر بدفء النزوع الإنساني،

وصدق المشاعر الإنسانية، التي تعزز حالة المحبة بين الناس .
يقول: "أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم
وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على أعجمي
فضل إلا بالتقوى".

كلمات تذكر الناس بسواسيبتهم كأسنان المشط، وهي تبث فيهم
روح التواضع، ومشاعر الأخوة والمساواة والعدالة والحقوق
والواجبات الإنسانية، فلا أحد أفضل من أحد سوى بارتقائه في
درجات التقوى، هذه التقوى التي ترسخ الإنسان في قواعد إنسانيته،
كلما ارتقى في درجاتها، حتى تبلغ به سدرة المنارة الإنسانية.

تكمن أهمية وخصوصية هذه الخطبة، أن خطيبها هو رجل
استثنائي، أثار ظلمات الأرض والإنسان برسالة الله الخاتمة إلى الناس
أجمعين، إنه الرجل الذي لولاه لما كان بوسع كوكب الأرض أن يتبرك
ويتشرف بهذا التنزيل المبارك، ولم يكن الناس ليحظوا برحمة تبيان
وتشريع الذكر الحكيم. ولنتصور مدى شقاء الإنسان بدون نور
القرآن، وبدون أن يقول له الله تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ
دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ المائدة/٣ .

كانت (رابعة العدوية) تصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة، وتقول:
والله ما أريد بها ثواباً، ولكن ليسرّ ذلك رسول الله "صلى الله عليه
وسلم"، ويقول للأنبياء "عليهم الصلاة والسلام": انظروا إلى امرأة من
أمتي، هذا عملها في اليوم واللييلة.

لذلك ترى الإنسان يكون دائم السؤال لربه، لأنه يدرك في أعماقه

بأن ما يمكن أن يمنحه إياه ربه، لا يمكن لأحد غيره أن يمنحه إياه. يقول المؤمن في سريرته، وفي علانيته: اللهم ارحمني بالقرآن، واجعله لي إماماً و نوراً وهدى ورحمة. اللهم ذكّرني منه ما نسيت، وعلمي منه ما جهلت، وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، واجعله لي حجة يا رب العالمين.

اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر. اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك فيه.

اللهم إني أسألك عيشة هنيئة، وميتة سوية، ومردا غير مخزي ولا فاضح، اللهم إني أسألك خير المسألة، وخير الدعاء، وخير النجاح، وخير العلم، وخير العمل، وخير الثواب، وخير الحياة، وخير الممات، وثبتي، وثقل موازيني، وحقق إيماني، وارفع درجتي، وتقبل صلاتي، واغفر خطيئاتي، وأسألك العلاء من الجنة.

اللهم أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

اللهم اقسّم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا بها جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من

لا يخافك ولا يرحمنا .

اللهم لا تدع لنا ذنبا إلا غفرته، ولا هما إلا فرجته، ولا دينا إلا قضيته، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها، يا أرحم الراحمين.

ثمة أبيات شعرية عن قوة الحب الإلهي، ينسبها المؤرخون إلى (رابعة العدوية) تقول فيها:

أحبك حين: حب الهوى، وحبٌ لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عن سواك
وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك
عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم في سير له، فنزل، ونزل رجل إلى جانبه، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ألا أخبرك بأفضل القرآن؟ قال: فتلا عليه: (الحمد لله رب العالمين)^{٢٢}
وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي "صلى الله عليه وسلم" قال: "إذا قال الإمام: ((غير المغضوب عليهم ولا الضالين))، فقولوا: "آمين"، فإن الملائكة يقولون: آمين. وإن الإمام يقول: آمين، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه".

^{٢٢} صححه الحاكم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم". وعن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: "مَن أخذ السبع من القرآن، فهو حبر"^{٢٣}

يقول عليه الصلاة والسلام: "مَن تعلم علماً، مما يتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة"^{٢٤}

وقال: "لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار"^{٢٥} وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعى به رجل جمع القرآن، ورجل يقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال. فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟

قال: بلى يا رب.

قال: فماذا عملت فيما علمت؟

قال: كنت أقوم به آناء الليل، وأطراف النهار.

فيقول الله له: كذبت.

^{٢٣} السلسلة الصحيحة / ٢٣٠ .

^{٢٤} صحيح الجامع / ٦١٥٩ .

^{٢٥} صحيح الجامع / ٧٣٧٠ .

وتقول له الملائكة: كذبت .

ويقول الله: بل أردت أن يقال أن فلانا قارئ، فقد قيل ذلك.
وفي رواية مسلم: "ولكنك قرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل،
ثم أمر به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقي في النار"^{٢٦}.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقرأوا سورة البقرة في
بيوتكم، فإن الشيطان لا يدخل بيتاً يُقرأ فيه سورة البقرة"^{٢٧}.
وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: كنت جالساً عند النبي صلى
الله عليه وسلم فسمعتَه يقول: "تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها
بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة".
قال: ثم مكث ساعة، ثم قال: "تعلموا سورة البقرة وآل عمران،
فإنهما الزهراوان، يظلان صاحبهما يوم القيامة".
عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول: "اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه. اقرأوا
الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما
غمامتان، أو كأنهما غيامتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان
عن أصحابهما. اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها
حسرة، ولا تستطيعها البطلة"^{٢٨}.
عن أبي أمامة يرفعه قال: "اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به

^{٢٦} صحيح مسلم، واللفظ لغيره.

^{٢٧} السلسلة الصحيحة/١٥٢١.

^{٢٨} صحيح البخاري ومسلم .

أجاب، في سور ثلاث: في البقرة، وآل عمران، وطه* ٢٩.

جاء رجل إلى النبي "صلى الله عليه وسلم" فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله تعالى.

قال: "فهل لك من والديك أحد حي؟"

قال: نعم، بل كلاهما.

قال: "فتبتغي الأجر من الله تعالى؟"

قال: نعم.

قال: "فارجع إلى والديك، فأحسن صحبتهما" ٣٠.

يبقى الإنسان يحظى بفضل الله عليه، مادام يسأل الله التوبة، ويندم على ما اقترف من آثام.

عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله تعالى: يا بن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك، ولا أبالي. يا بن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرت لك. يا بن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة" ٣١.

حين يقبل المرء على قراءة القرآن، فإن كل عضو فيه يوقره بتحية سلام، والنفس إن غفرت لصاحبها أي جور بحقها، فإنها لا تغفر له

*الحي القيوم.

٢٩ صحيح الجامع.

٣٠ متفق عليه. رياض الصالحين / ١٥٩.

٣١ رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

جور حرمانها نعمة قراءة القرآن، ولو كان للنفس أن تقاضي أحداً ،
لقضت صاحبها الذي حال بينها وبين إرتقائها في مكرمات قراءة
القرآن .

إذ أن ثمة طاقات في نفس الإنسان لا تنفتح إلا عندما يكون
صاحبها في محراب تدبرية القراءة القرآنية،

حينها يلمس وجه الغرابة في أمر أناس يبحثون عن أدوية لأمرضهم
النفسية، والقرآن في ظهراينهم، وهويدرك أن لا أحد يستحق شفقة
الناس أجمعين قدر شخص حُرم نعمة قراءة القرآن .

عندما يبلغ القارئ مرحلة التدبّر في قراءة كتاب الله، ويبدأ في تلقي
نفائس المعاني القرآنية، ينتابه شعور بأن صفحة واحدة من قراءة هذا
الكتاب المجيد، هي أثن كنز يمكن للمرء أن يقدمه لنفسه .

الفصل الثاني

ارتقاء قارئ القرآن في درجات متعة العطاء

عندما يترك القرآن أثراً على عينيك، وأنت تنظر بهما، فاعلم بأنك قرأت القرآن وتلقيته،
عندما يترك القرآن أثراً على لسانك، وأنت تتحدث به، فاعلم بأنك قرأت القرآن وتلقيته،
عندما يترك القرآن أثراً على سمعك، وأنت تسمع به، فاعلم بأنك قرأت القرآن وتلقيته،
عندما يترك القرآن أثراً على مالك، وأنت تنفقه، فاعلم بأنك قرأت القرآن وتلقيته .

يتميز الناس عبر العصور على قدر ما يقدمون من عطاءات مجتمعاتهم، والعطاء لا ينحصر في لون واحد، بل يشمل كافة ألوان العطاء، فهناك العطاء المعرفي، العطاء الفكري، العطاء الفني، العطاء الطبي، العطاء الأخلاقي، العطاء المادي.

يقول النبي "صلى الله عليه وسلم" في مسعى لترسيخ مواقف السخاء في الناس: "السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد عن النار. والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار. وجاهل سخي أحب إلى الله من عالم بخيل".
دوماً فإن الذي يعطي يكون صاحب فضل على الذي يأخذ، واليد

العليا هي خير من اليد السفلى. على هذه القاعدة نرى الناس يكتفون جهودهم من أجل أن يكونوا معطاءين، ويكونوا أصحاب فضل. ورد في الحديث النبوي: "ما من عبدٍ أنعم الله عليه بنعمةٍ فأسيغها، ثم جعل إليه شيئاً من حوائج الناس، فتبرم، فقد عرض تلك النعمة للزوال". يمكن لشخص أن يتميز بالعطاء والكرم حتى يُعرف بذلك، وقد كان (حاتم الطائي) مشهوراً بالكرم، وعندما كانت زوجته (نوار) تعاتبه على كرمه الشديد، كان يجيبها قائلاً:

مهلاً نوار أقلّي اللوم والعدلا
ولا تقولي لشيء فات ما فعلا
ولا تقولي لمالٍ كنتُ مُهلكهُ مهلاً
وإن كنتُ أعطي الجن والخبلا
يرى البخيلُ سبيلَ المالِ واحداً
إن الجوادَ يرى في ماله سُبلاً

يتمتع الإنسان الذي يعيش في الأرياف بخصلة العطاء، ذلك لأنه يعيش في شبه فراق عن الناس، من أجل العناية بمصادر رزقه في البادية. وهو عندما يلمح شخصاً غريباً يشعر بأنه ضيفه، فيستعد للقاءه، والترحاب به، واستضافته. وقد كان البدو في القدم يشعلون النيران في الليل من أجل أن يهتدي إليهم الضيوف، وفي ذلك العديد من الأمثال، منها:

- الضيف إن أقبل أمير، وإن قعد أسير، وإن قام شاعر.
- الضيف أسير الخَلِّي.
- الضيف شاعر.
- الضيف ضيف الله.
- أعزم، وأكرم، وأكل العيش نصيب.
- الضيف محلّل.
- يا ضيف ما كنت محلي.
- سكوت الضيف من بخت المحلي.
- الضيف كاره الضيف، والمحلي كاره الكلي.
- الجود جهود.
- الجود من الموجود.

يدعو القرآن الكريم الناس إلى فعل الخير من خلال العطاء، ومما ورد في القرآن الكريم:

يدعو القرآن الكريم الناس، إلى فعل الخير من خلال العطاء، ومما يدعوا إليه:

يبين القرآن الكريم بأن العطاء، هو باب من أبواب فعل الخير بين الناس، ولذلك يوجه إلى السخاء، وفي ذلك يقول عز من قائل:

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَغْنُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة / ١٤٨.

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران/ ١٠٤ .

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ آل عمران/ ١١٤ .

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ المائدة/ ٤٨ .

﴿لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ التوبة/ ٨٨ .
 ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ الأنبياء/ ٧٣ .
 ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ الأنبياء/ ٩٠ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الحج/ ٧٧ .

﴿نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ المؤمنون/ ٥٦ .
 ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ المؤمنون/ ٦١ .
 ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ

أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ
بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿الأحزاب/ ١٩﴾
﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ
وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ
الْكَبِيرُ﴾ فاطر/ ٣٢.

تنوعت أبواب العطاء، وتعددت الأسماء، بيد أنها تشير في النهاية
إلى المقدره على العطاء، وتقديم العون للآخرين.
يقدم البعض الهبات للآخرين تحت مسميات متعددة، ومن ذلك
الهدية التي دعا إليها النبي صلى الله عليه وسلم، فهي تعزز أواصر
الصداقة والمحبة والعلاقات الاجتماعية.
والهدية سلوك اجتماعي تميز به الإنسان الكريم عادة، كتعبير عن
حالة الشكر تجاه شخص آخر، وكدليل على المحبة من جهة أخرى،
وكذلك كرجبة لفتح صفحة جديدة بعد خصام.
للهدية موقعها الخاص لدى سائر شعوب الأرض منذ بدء الخليقة،
وهي شكل من أشكال التلاحم الاجتماعي، في المفهوم الشعبي العام،
لدى سائر المجتمعات والشعوب، حيث تؤدي وظيفة بالغة الأهمية في
التربط الاجتماعي، مهما تفاوتت في قيمتها المادية، بيد أنها تتساوى
من كونها هدية مع أي هدية نفيسة.
في زحمة هذه المناسبات، التي تتفاقم مع توسع روابط العلاقات
الأسرية والاجتماعية، يمكن للهدية أن تنوب عن مرسلها في بعض

الحالات، فيمكن لباقة ورد تحمل اسمك، أن تنوب عن حضورك مناسبة ما . بيد أن الأمر يكون مختلفاً في حالات المرض، فلا بد لك أن ترى المريض وجهاً لوجه، وتقدم له هدية متمنياً له الشفاء، ففي هذه الحالة لا شيء ينوب عنك، إلا إذا كنت خارج البلاد، عند ذلك، وفي هذا الظرف الاستثنائي، يمكن لإرسال هدية، مع اتصال هاتفي، أن يكون بمثابة حضور.

في جميع الأحوال، فإن الهدية هي يد محبة ممددة لمصافحتك، ومجرد قبولك للهدية، فهو استقبال خيبة هذا الشخص نحوك، وإذا اتسم بفضل الإهداء، فإنك تتسم بفضل القبول، ثم تتفضل عليه مرة ثانية بأن تردها بأحسن منها، أو بمثلها. وفي اعتقادي أنه لا يرفض الهدية إلا من كان به لؤم، فاللئيم يمكن له أن يرفض الهدية، وعند ذلك يعبر عن مساحة لؤمه، في حين أن الكريم، يقبل الهدية حتى لو أتت من شخص لئيم، وهو بذلك يعبر عن مساحة حسن الظن لديه، عند القبول، ويعبر عن مساحة كرمه، عندما يردّ بأحسن منها، سواء بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة.

حظيت الهدية بموقع طيب في الإسلام، الذي وجهه بأن الهدية يمكن لها أن تعزز مشاعر المحبة بين الناس.

وقد وجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبادل الهدايا، كتقليد اجتماعي من شأنه أن يولّد المحبة بين الناس، ويجعلهم أكثر قرباً من بعضهم البعض.

يقول صلى الله عليه وسلم في ذلك: "تهادوا تحابوا، فإنها تجلب

المحبة، وتذهب الشحنةاء".

وكان "صلى الله عليه وسلم" يقبل الهدية، لكنه يرد بأحسن منها. قال سفيان الثوري: "إذا أردت أن تتزوج، فأهد للأُم". وكان (سفيان) يروي عن (ابن عباس) رضي الله عنهما: "من أهديت إليه هدية، وعنده قوم، فهم شركاؤه فيها. فأهدى إليه صديق له ثيابا من ثياب (مصر)، وعنده قوم، فذكروا الخبر، فقال: "إنما ذلك فيما يؤكل ويشرب، أما في ثياب مصر فلا".

ويُحكى أنه لما بلغ (الحسن بن عمارة) أن (الأعمش) يقع فيه، ويقول: "ظالم ولي المظالم، فأهدى إليه هدية، فمدحه (الأعمش) بعد ذلك، وقال: "الحمد لله الذي ولى علينا من يعرف حقوقنا. فقبل له: كنت تدمه، ثم الآن تمدحه.

فقال: حدثني خيشمة عن عبد الله أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قال: "جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها".

وعندما أتى (فتح الموصلي) بهدية، وهي خمسون دينارا، قال: حدثنا عطاء عن النبي "صلى الله عليه وسلم" أنه قال: "من أتاه الله رزق من غير مسألة، وردّه، فكأنما ردّه على الله تعالى".

وقد أهدى رسول الله "صلى الله عليه وسلم" هدية إلى (عمر)، فردّها. فقال: يا عمر، لم رددت هديتي؟

فقال عمر رضي الله عنه: إني سمعتك تقول: خيركم من لم يقبل شيئا من الناس. فقال: يا عمر، إنما كان ذلك ما كان عن ظهر مسألة،

فأما إذا أتاك من غير مسألة، فإنما هو رزق ساقه الله إليك.
وقد وردت الهدية في القرآن، عندما أرادت ملكة سبأ أن تقدم إلى النبي سليمان هدية قائلة: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ النمل/٣٥، يقول (الجلالان) عن الموقف، وعن الواقعة، في ذلك العهد، من قبول الهدية، أوردتها: إن كان ملكا قبلها، أونبيا لم يقبلها، فأرسلت خدما، ذكورا وإناثا، ألفا بالسوية، وخمسمائة لبنة من الذهب، وتاجا مكللا بالجواهر، ومسكا، وعنبرا، وغير ذلك، مع رسول بكتاب، فأسرع الهدهد إلى سليمان يخبره الخبر، فأمر أن تضرب لبنات الذهب والفضة، وأن تبسط من موضعه إلى تسعة فراسخ ميدانا، وأن يبنوا حوله حائطا مشرفا من الذهب والفضة، وأن يؤتى بأحسن دواب البر والبحر، مع أولاد الجن، عن يمين الميدان وشماله.
ومما يُروى عن منزلة الهدية أن ملك الروم أهدى إلى (المأمون) هدية، فقال: اهدوا له ما يكون ضعفها مائة مرة، ليعلم عز الإسلام، ونعمة الله تعالى علينا، ففعلوا ذلك، فلما عزموا على حملها.

قال: ما أعز الأشياء عندهم؟

قالوا: المسك والسمور.

قال: وكم في الهدية من ذلك؟

قالوا: مائتا رطل مسكا، ومائتا فروة سمور.

وأهدت (قطر الندى) إلى (المعتضد بالله) في يوم نيروز في سنة اثنتين وثمانين ومائتين، هدية، كان فيها عشرون صينية ذهب، وعشرة منها مشام عنبر، وزنها أربعة وثمانون رطلا، وعشرون صينية فضة، في

عشرة منها مشام صندل، زنتها نيف وثلاثون رطلا، وخمس خلع وشي، قيمتها خمسة آلاف دينار، وعملت شمامات ليوم النيروز بلغت النفقة عليها ثلاثة عشر ألف دينار.

ويُحكى أن (ثريا بنت الأوباري) أهدت ملكة إفرنجية، وما والاهما، إلى (المكتفي بالله) في سنة ثلاث وسبعين ومائتين، خمسين سيفاً، وخمسين رحماً، وعشرين ثوباً منسوجاً بالذهب، وعشرين خادماً صقلياً، وعشرين جارية صقلية، وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع، وستة بازات، وسبعة صقور، ومضرب حرير متلون بجميع الألوان، كلون قوس قزح، يتلون في كل ساعة من ساعة النهار، وثلاثة أطيار من الأطيار الإفرنجية، إذا نظرت إلى الطعام أو الشراب المسموم صاحت صياحاً منكراً، وصفقت بأجنحتها حتى يعلم ذلك.

وأن (الخيزران) جارية (المهدي) كانت أديبة شاعرة، فعزم (المهدي) على شراء دواء لها، فأنفذت إليه جام بلور فيه شراب، اختارته له، مع وصيفة بكر، بارعة الجمال، وكتبت إليه تقول:

إذا خرج الإمام من الدواء وأعقب بالسلامة والشفاء
وأصلح حاله من بعد شرب بهذا الجام من هذا الطلاء
فينعم للتي قد أنفذته إليه، بزورة بعد العشاء
وقد سرّ (المهدي) لذلك، ووقعت الجارية منه أعظم موقع، وزار (الخيزران)، وأقام عندها يومين.

الهدية هي تعبير عن حالة الصفاء بين شخصين، فعندما تدخل بيتاً، سواء بمناسبة، أو بدون مناسبة، حاملاً بيدك هدية، مهما كانت

قيمتها، فإنها تعبر عن حالة من الصفاء بينك وبين الشخص الذي يمثل هذا البيت.

تؤدي الهدية وظيفة بالغة الأهمية في التعاضد الاجتماعي، إلى درجة أنها يمكن أن تزيل تاريخاً من الخلافات، وتؤسس لصفحة جديدة بين شخصين، أو بين عائلتين، أو حتى بين دولتين. فيمكن أن تصاب دولة بأذى، أو تمر بمحنة، فتأتي دولة على خلاف معها، وتقدم هدية، كتعبير للوقوف إلى جانبها، وكتعبير عن تحملها لجزء من الأذى الذي أصابها، فيكون ذلك بمثابة صفحة جديدة بين الدولتين.

ويمكن أن تصاب عائلة بمكروه، فيتقدم أشخاص من عائلة أخرى، على خلاف معها، يقدمون هدية كتعبير عن مشاركتهم للتخفيف من المكروه، فيكون ذلك بمثابة لبنة أولى للصلح بينهما، وإعادة المياه إلى مجاريها.

ويحدث أن ينشب خلاف بين صديقين لمدة طويلة، ويصاب أحدهما بداء، فيذهب الآخر لعيادته، حاملاً بيده هدية رمزية، حتى لو كانت باقية ورد متواضعة، فتزيل هذه الورود ذاك الخلاف، وتعيد المودة إلى قلوبهما.

توقف العلماء عند قيمة العطاء، وعلاقتها بالوراثة، وقد اطلعت على بعض هذه النتائج، ومنها أن دراسة علمية حديثة أثبتت، أن هناك صلة وثيقة بين صفة العطاء، وجينات الإنسان الوراثية.

وقد أجريت الدراسة على ٢٠٣ شخص من الجنسين، مُنح كل واحد منهم ١٢ دولاراً، حيث تبين أن ٦٠ بالمائة ممن أعربوا عن

استعدادهم للتنازل عن هذا المبلغ، أو جزء منه، لأشخاص بحاجة إليه، هم أشخاص يحملون جين "إيه في بي آر ١"، أو أحد مكونات هذا الجين.

ويبينت الدراسة أن ذلك يثبت وجود صلة مباشرة بين العطاء الإنساني، وتكوين حامضه النووي. وأن جين "إيه في بي آر ١" ينشط في تكوين هرمون يسمى "أرجينين فاسوبريسين"، ويؤثر على خلايا المخ، ما يدفع الإنسان إلى السخاء والعطف على الآخرين. وأشارت الدراسة بأن الجينات التي تحمل الصفات الوراثية وصفات سلوكية، مثل: نكرات الذات، والتعاضد الاجتماعي، هو أمر يمكن قبوله من وجهة النظر التطورية، كما أن استراتيجيات نكرات الذات كانت ناجحة، بسبب اعتمادها على فكرة أن العمل الحسن سيكافئ صاحبه.

إن ذلك لا يعني البتة ترك الأمور على سجيته، خاصة بالنسبة للأطفال، وهم على الأغلب يحتاجون إلى مساعدة الأهل لتعزيز شعور المسؤولية تجاه الآخرين لديهم، و إلى ضرورة تنمية الشعور بالمسؤولية لديهم منذ السنوات الأولى، المسؤولية تجاه آبائهم بالطاعة، تجاه المجتمع بمشاعر الانتماء، تجاه أنفسهم بالحذر والنظافة. وفي ذلك يحضرنى قول للفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه: "كل الأشياء الجميلة تحت على الحياة"^{٣٢}.

^{٣٢} فريدريك نيتشه: إنسان مفرط في إنسانيته، ترجمة، محمد الناجي (أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠١)، ج ٢.

وكان (المتنبي)، عندما يرى نفسه مرغماً على الراحة، بسبب المرض، يقول:

وملني الفراش وكان جنبي يمل لقاءه في كل عام
يورد (محيي الدين بن عربي) في كتابه (الوصايا): "قال رسول الله
"صلى الله عليه وسلم": أتى سائل امرأة، وفي فمها لقمة، فلفظتها،
وناولتها إياه، فلم تلبث أن رزقت غلاماً، فلما ترعرع جاء ذئب،
فاحتمله، فخرجت تعدو في أثر الذئب، وهي تقول: ابني، ابني، فأمر
الله ملكاً: الحق الذئب فخذ الصبي من فيه، وقل لأمه: إن الله يقربك
السلام، وقل: هذه لقمة بلقمة" ٣٣.

البخيل مذموم لدى كافة شرائح الناس، وكما أن مواقف العطاء
تُذكر لأصحابها، فإن مواقف البخل تُسجل على أصحابها.
كما أن السخي يشتهر بسخائه، فإن البخيل يشتهر ببخله، ولذلك
يُقال أن بخلاء العرب أربعة: الحطيئة، وحמיד الأرقم، وأبو الأسود
الدؤلي، وخالد بن صفوان.

يقول الله: ﴿الَّذِينَ يَخْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا
آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ النساء/٣٧.
ويقول: ﴿الَّذِينَ يَخْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمْ

٣٣ محيي الدين بن عربي، الوصايا (ط١)، دمشق: دار الإيمان، ١٩٨٦)، باب:
لقمة بلقمة، وسلام من الله، ويورد: الحديث لم أجده.

اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿النساء/٣٧﴾
 ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ
 بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿آل عمران/١٨٠﴾
 ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ
 الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿الحديد/٢٤﴾.

تعددت مواقف البخل، إلى جانب مواقف السخاء، منها مواقف،
 ومما يروى أنه قيل لأحدهم: أما يكسوك (محمد بن يحيى)؟ فقال: والله
 لو كان له بيت مملوء إبراً، وجاء (يعقوب)، ومعه الأنبياء شفعاء،
 والملائكة ضمناً، يستعير منه إبرة ليخيط بها قميص (يوسف)، الذي
 قد من دبر، ما أعاره إياها، فكيف يكسوني.

ينهى النبي الله "صلى الله عليه وسلم" عن البخل بقوله: "إياكم
 والشح، فإن الشح أهلك من كان من قبلكم". وقوله: "البخل جامع
 لمساوي القلوب، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء".

إن الجواد هو شخص فاضل، يترك أثراً على الناس من خلال
 ممارسته ألوان الجود، والذي ينظر إلى حياة تخلو من فاضلين، كالذي
 ينظر إلى حياة تخلو من رذيلين.

الفارق بين الفاضل والرذيل، أن الفاضل يمكن بمواقفه الفاضلة أن
 يحيل رذيلاً إلى فاضل، وأن الرذيل بمواقفه الرذيلة يزيد الفاضل ثباتاً في
 ممارسة سلوك الفضيلة.

الأصل في التعامل بين الناس هو حُسن الظن، فإن أساء شخص إلى

ثقة وهبها له إنسان حَسَنَ الظن، فهي معضلته أكثر مما هي معضلة مانح الثقة. لقد ارتضى الأول أن يتمثل فضيلة حُسن الظن، وارتضى الثاني أن يتمثل رذيلة الإساءة إلى حُسن الظن.

ومن الطبيعي أن فضيلة الظن الحسن لا تتحقق لشخص تلقاءً، بل عليه أن يكون على استعداد دائم لدفع ضريبة الارتقاء في درجات الفضيلة، كما أن رذيلة الإساءة لحسن الظن لا تكون تلقاءً، لأن صاحبها يكون على استعداد دائم لدفع ضريبة الانحدار في متاهات الجور.

وكما أن الفاضل يلبث يقطف عناقيد شجرة الفضيلة على مرآة من الناس، فإن أشواك شجرة الرذيلة تنهوى على الرذيل على مرآة من الناس.

في كل هذا، فإن الفاضل يزداد حذرا، يزداد يقظة، يزداد تجاربا، وهذا يجعل حالة الصواب متقدمة لديه على حالة الأخطاء، حالة النجاح متقدمة على حالة الفشل، حالة السكينة متقدمة على حالة الاضطراب، حالة الاستمتاع بمباهج الحياة متقدمة على حالة الحرمان. في حين يزداد الرذيل جهلا ، يزداد غفلة، يزداد قوقعة.

وهذا يجعل حالة الأخطاء لديه متقدمة على حالة الصواب، حالة الفشل متقدمة على حالة النجاح، حالة الاضطراب متقدمة على حالة السكينة، حالة الحرمان متقدمة على حالة الاستمتاع بمباهج الحياة.

يقول الله ذو الفضل العظيم:

(وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) البقرة/٢٣٧.

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ آل عمران/٧٣.

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ النساء/٧٠.
 ﴿وَلَا يَأْتِلُ أَوْلُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِي الْقُرْبَى
 وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ
 أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النور/٢٢.
 ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ
 وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ النمل/١٦.
 ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ
 وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ
 الْكَبِيرُ﴾ فاطر/٣٢.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ
 ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ الشورى/٢٢.
 ﴿لَنَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ
 الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الحديد/٢٩.
 وفي ذلك يقول علي بن أبي طالب: الارتقاء إلى الفضائل صعب
 ومنجى، والانحطاط إلى الرذائل سهل مُردي.
 وبضيف: أكره نفسك على الفضائل، فإن الرذائل أنت مطبوع
 عليها.

حتى الزوجة الفاضلة، فإنها تمقت الرجل إن لم يكن فاضلا، ولو

كان زوجها. تقول أم صريع الكندية:

كأن الدار يوم تكون فيها

علينا حفرة ملئت دخانا

فليتك في سفين بني عباد

طريدا لا نراك ولا ترانا

فترى المرأة ترفض الرجل الذي ترى بأنه لا يناسبها، أو لعل عدم التكافؤ يؤدي إلى بعض السلبية. تقول أم العلاء بنت يوسف الجازية، بعد أن رفضت رجلا تقدم إلى خطبتها، وكان عجوزا:

الشيب لا يخدع فيه الصبا

بجلية فاسمع إلى نصحي

فلا تكن أجهل من في الورى

يبست في الجهل كما يضحى^{٣٤}

ولذلك نرى أن الذين قدموا منجزات بشرية، يعدون أصحاب فضل على الناس، وعلى مختلف الأزمان. تقول (زيغريد هونكه): "إن جيولوجيا (ابن سينا) تصلح لكل زمان ومكان، للقرن العاشر أو الرابع عشر، للشرق أو للغرب، في أصفهان، في الأندلس، تصلح لنظرة العالم المتطور، التي تنظر لكل أحداث الحياة كعملية تطور"^{٣٥}.

^{٣٤} المقري التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٨٦).

^{٣٥} زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب (ط٦)، بيروت: دار الآفاق الجديدة.

الفضيلة في (الموسوعة الحرة) هي: الامتياز الأخلاقي، أو الجودة الأخلاقية لدى شخص ما. والفضيلة سمة مميزة، تُقوّم على أنها حسنة، والمفهوم المقابل للفضيلة هو الرذيلة.

لم تدخل الكلمة اليونانية التي تدلّ على الفضيلة إلى اللغة الإنجليزية العادية، وكلمة virtue الإنجليزية مستمدة من الكلمة اللاتينية virtus، المستمدة بدورها من كلمة vir، ومعناها "الإنسان"، بمعنى الإنسان الذكر. وتعني كلمة virtus: "وظيفة الذكر" التي يتمّ تصورها من حيث القوة أو القدرة، ومن هنا: "القدرة على الإنجاز". وثمة كلمة لاتينية هي vis لا ترتبط بذلك، وتعني "السلطة" أو "العنف"، ولم يكن النحويون القدماء قادرين على التمييز بين الكلمتين.

وبسبب المعايير الاجتماعية القديمة، وهذه الفروق اللغوية الدقيقة، كان أن تمت المطابقة في بعض الأحيان بين الفضيلة والفضائل التي يديها الذكر في الحرب، مثل: الشجاعة. وقد أدّى ذلك، في بعض الأحيان، إلى نوع من المفارقة والتناقض فيما يتعلق بأصول الكلمة المفترضة. فغالباً ما تستخدم كلمة virtue، في اللغة الإنجليزية، في الإشارة إلى عفة امرأة ما، وكما يقول الفيلسوف (ليو شتراوس):

فإنّ "سرّ الفكر الغربي يكمن في تحوّل مصطلح كان يشير في الأصل إلى رجولة الرجل، بحيث بات يشير إلى عفة المرأة".

ويمكن للفضيلة أن تمضي في سبيل آخر، باتجاه معانٍ أخرى، حيث يمكن لها أن تنطوي إما على قيمة معيارية، أو على قيمة أخلاقية.

ففضيلة السكين تكمن في أن تقطع، وفضيلة السكين الممتاز تكمن في أن تقطع جيداً (وهذه هي القيمة المعيارية)، وذلك مقابل فضائل العقل، والتبصر، والعفة، إلخ (مما له قيمة أخلاقية).

وتوصف الفضيلة في اليونانية ذلك الوصف المناسب بأنها "امتياز مُعتاد"، وشيء يُمارس طوال الوقت. ففضيلة المثابرة تحتاجها جميع الفضائل، لأنها عادة مميّزة، ينبغي استخدامها على الدوام، إذا ما أراد الشخص الحفاظ على كونه فاضلاً.

الفضائل الكلاسيكية الرئيسة (cardinal)، في التراث الغربي،

هي أربع:

- الاعتدال.

- الحكمة.

- الشجاعة.

- العدل.

بالطبع يمكن أن تتفرع فروع من هذه الفضائل الأربعة، تؤدي في نهاية الأمر إليها: فالشجاعة ليست في القتال فحسب، بل تكمن في مدى المقدرة على التسامح، ومدى المقدرة على الإصغاء للرأي الآخر، والتحاور معه، كما قال (عمر بن الخطاب): "رحم الله امرءاً أهدي إلي عيوبي".

الفصل الثالث

قارئ القرآن ومهارة قوة الملاحظة

قارئ القرآن، المواظب على قراءته بتدبر، يكتسب مهارات متعددة، يستخدمها في حياته اليومية، يتعلم من قراءاته التأملية التفكيرية قراءة لغات أخرى، فيمكنه قراءة نبرات الأصوات، عندما يسمع صوتاً يتحدث بصدق، أو يسمع صوتاً يتحدث برياء، يقرأ سحنات الوجوه، يقرأ حركات الأعضاء، التي تشير أمام ناظره إلى معان، وأفعال.

كذلك يتمكن هذا القارئ، الذي يستمد تعاليمه من صلب قراءاته القرآنية، قراءة العيون التي توحى إليه بما قد لا توحى إلى غيره. يمكن للعين أن تكون رشيداً إلى معرفة الشخصية التي يتحدث إليها.

العين هي العضو الأكثر حركة في الجسد، وهي العضو الأكثر حساسية، فعن طريق العين تنفعل الأعضاء كلها، سواء سلباً، أو إيجاباً. الدخول إلى عالم العين، يحمل الكثير من المعارف، والجماليات، والحساسيات أيضاً.

في هذا الفصل، سأحدث عن العين، لتكتمل ثلاثية التلقي والتفاعل لمعاني القرآن الكريم، وذلك بعد أن تحدثت عن العقل الذي يتفكر بما يبلغه، واللسان الذي ينطق بما يبثه إليه العقل، وهنا تأتي العين التي

تقرأ القرآن، فيتلقى العقل ما قرأت العين، ثم يثبت بما يبلغه إلى اللسان، وهذا اللسان يكون موجهاً إلى الآخرين في عملية التداول المعرفي من جهة، والتطور الفكري والحضاري من جهة أخرى. ولا تنحصر مهمة التلقي القرآني بالنسبة للعين من خلال قراءة القرآن فحسب، بل يأتي ذلك إلى ما في الطبيعة أيضاً من آيات، فيقرأ بذلك قرآن الطبيعة.

يقول الله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ الغاشية.

ويعتمد قارئ القرآن على عينيه، كي يقرأ آيات الطبيعة كذلك، عندما يقول الله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴿البقرة/ ٢٢﴾. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ الأنعام/ ١١.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴿٣٨﴾ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الأنعام/ ٣٨. ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الأعراف/ ١٠.

﴿ثُمَّ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا

فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿يونس/ ٢٤﴾.

العين في التعريف العلمي لها هي شبكة كروية، وقطر عين الإنسان البالغ يصل إلى ٥، ١ سم.

تقع العين في مقدمة الجمجمة، محمية داخل محجر العين، المصنوع من العظم، وهي قادرة على التحرك داخل المحجر بصورة حرة بمساعدة جهاز من العضلات في منطقة الحاجبين.

يبرز عظم الجمجمة لحماية العين من الإصابات الخارجية، وللعين عضلات خاصة تحركها، وهي:

الصلبة: تقع في الخارج، حيث تتكون من نسيج ضام يحمي العين، والجزء الأمامي من هذه الطبقة شفاف، هو: القرنية.

المشيمية: تقع بين الصلبة والشبكية، تحتوي على أوعية دموية، توفر الغذاء والأوكسجين للشبكية.

الشبكية: تقع داخل العين، تحتوي على المستقبلات الضوئية، وهي مسؤولة عن الإبصار، حيث تحوّل الضوء إلى إشارات كهربائية، تُنقل عبر الألياف البصرية إلى الدماغ.

وتتألف العين من الأجزاء التالية:

١ - غشاء خلوي مخاطي (الظهارة)، عبارة عن طبقة واقية رقيقة من الخلايا، تغطي سطح القرنية.

٢ - القرنية: نسيج قوي شفاف، مقوس بشكل كروي، تقوم بدور نافذة العين القرنية، وهي عنصر التركيز الرئيسي للعين، عندما يدخل

الضوء إلى العين، فإنه ينكسر بواسطة القرنية.

٣ - القزحية: الجزء الملون المرئي، الذي يوسع ويقلص الفتحة المركزية للعين.

٤ - الحدقة (البؤبؤ): الفتحة المركزية التي تسمح للضوء بالمرور لداخل العين.

٥ - العدسة: قرص مرن بلوري شفاف، محدب الوجهين، يفيد في التركيز، ويقع خلف الحدقة، ليتم التركيز. كلما تقدمنا في العمر، تقل مرونة العدسة ومطاطيتها، وهي حالة تُسمى قصر بصر، تؤدي إلى صعوبة في التركيز على الأشياء القريبة، مثل: كتاب، أو صحيفة، وذلك سبب احتياج البعض إلى نظارة قراءة بعد سن الأربعين.

الوجه بصفة عامة هو نبض الباطن، لا يقتصر ذلك على وجه الإنسان فحسب، بل يشمل كل كائن على وجه الأرض، والإنسان يتعرف على الوجوه عن طريق حدقات عينيه.

الحيوان الأليف المسلم، له وجه وديع يبعث على الطمأنينة، والحيوان الشرس العدوانى، يتقدمه وجه يبيث الذعر والشر. كذلك نرى معالم الذكاء، أو الغباء، أو المكر، في وجوه بعض الحيوانات، مثل: الثعلب - الحمار.

في عالم النبات أيضا تلعب صفحة الظاهر هذا الدور، فنرى الشجرة الطيبة من أوراقها وهيئتها، ونرى الشجرة الخبيثة من مظهرها. ويأتي هذا على أنواع الورود المتفاوتة الجودة، ثم يمكن أن نرى السنبل المريضة من مظهرها، ونرى السنبل المكملة من هذا

المنظر.

إن وجه الإنسان هو قنديل الباطن، قنديل النفس، قنديل العقل. لننظر إلى عدة وجوه: وجه إنسان مفكّر، وجه بستاني، وجه مطرب، وجه عتال، وجه صعلوك.

ثم ننظر إلى وجه إنسان مستقر في سكينه الإيمان، إلى وجه مشتت بموجات الاضطراب، إلى وجه إنسان فضيل، إلى وجه إنسان رذيل؟ على هذا النحو تفرز الوجوه أمام أنظارنا، وتمنحنا إشارات أولى عن أصحابها، فيكون من الطبيعي أن نرى وجوها معينة، تنتمي إلى أحزاب معينة، منسجمة مع معالم تلك الوجوه، تنتمي إلى عقائد، إلى إيديولوجيات، سواء كان هذا انتماء عن قُرب، أو كان ولاءً عن بُعد، فيمكن لك أن ترى شخصا يميل إلى طاغية، يدافع عنه، وترى جماعة تؤيده في ذلك، ثم ترى شخصا يذم الطاغية، وينتقد سلوكه، وترى جماعة تنضم إليه. هنا سوف ترى تشابها في وجوه كل فريق، إلى جانب تشابه في الأفكار، فتدرك أن كل شخص يميل إلى من هو على شاكلته، ويمكن له أن يمثله.

عند ذاك تدرك أن الأمر يمضي على نحو طبيعي، فثمة خير، وثمة شر، وكما أن للخير أهل، فللشر أهل.

الوجه الآخر من لغة الوجوه، هو أن صفحة الوجه تُظهر الحيوية والنشاط، كما تُظهر الحمول والمرض، تُظهر الفرح، كما تُظهر الاحتقان، وعند ذاك يمكنك أن تقدر حال الشخص من صفحة وجهه، فترى إن كان في حالة تسمح أن تطلب منه مطلبك، أو تؤجل

ذلك إلى حين آخر. هذا يكون حتى بالنسبة للأسرة في بيت واحد، بين الآباء، والأبناء، بين الأزواج، والزوجات، بين الأخوة. فانظر إلى وجه شخص سعيد في حالة فرح، ثم انظر إليه وهو يتلقى اتصالاً ينبئه خبراً تقيساً، ولذلك نرى كثيراً من الأطباء يتكهنون بالمرض من خلال إلقاء نظرة أولية إلى وجه المريض. للوجه أهمية بالغة في معرفة صاحبه، وهو خير دليل إلى إعطاء لمحة عن معدن صاحبه، وهذا يغني عن كثير من الجهد، والوقت، والتجارب.

العين عالم رحب من طفولة خالية من الأسرار، لا أسرار في عالم العين، أجمل ما في الإنسان عيناه، إنهما تقدمان صاحبهما بكل أسراره ووضوحه، الإنسان هو نظراته. كم مرة تريد أن تطلب شيئاً من شخص، ولكن نظرك إلى عينيه هو الذي شجعك أن تقدم إلى ما تريد، أو تراجع قبل أن تنفوه بحرف واحد، وكأنك دخلت إلى مكان عن طريق خطأ. نظرات علققت في أرشيف ذاكرتك، ليس بوسعك نسيانها، نظرات لا تملك قوة نفوذ البقاء لحظة واحدة، أشخاص لا تتذكر منهم إلا نظراتهم، التي لا تقبل اخو من ألبوم الذاكرة، نظرات مرعبة، نظرات مسالمة، نظرات وجلة، نظرات خافتة، نظرات شعاعية، نظرات مريجة، نظرات مستفزة، نظرات خجولة، نظرات جاحظة، نظرات بلهاء، نظرات بريئة، نظرات ناعسة، نظرات نمرية، نظرات غائرة، نظرات مخدرة، نظرات ضاحكة، نظرات صفراء.

فقه العين

للعين منزلة بالغة الأهمية والحساسية في القرآن الكريم، وقد توقف القرآن مع العين في العديد من الآيات الكريمة، هذه الآيات جعلت معرفة العين، بالنسبة لأهل الاختصاص، متقدمة. كما تحدث النبي "صلى الله عليه وسلم" في الكثير من الأحاديث النبوية عن العين. وتوقف أهل الفقه طويلاً أمام العين .
جاء ذكر العين في الكثير من الآيات الكريمة، وكل ذكر يعطي تعريفاً عن العين، بحيث يغتني الباحث معرفة عن العين وهو يتدبر هذه الآيات. ومما أورده القرآن الكريم:

- (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) الحجر/٧٥.
 (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) غافر/١٩.
 (قُرَّتْ عَيْنُ لِي وَكَأَنَّ الْقَصَصَ/٩.
 (فَكُلِّي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا) مريم/٢٦.
 (وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ) يوسف/٨٤.
 (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) الطارق/٥.
 (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) عبس/٢٤.
 (وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) آل عمران/٧٧.
 (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ)
 يونس/٤٣.
 (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) النبأ/٤٠.

العين المواظبة على قراءة القرآن، تُمسي عيناً قرآنية، تنظر نظرات قرآنية، مما آتاها الله من نور القرآن.

العين المواظبة على قراءة القرآن، تأنس النظر إلى كل موطن جمال، وتنفر النظر إلى كل موطن قبح، تأنس النظر إلى كل موطن طيب، وتنفر النظر إلى كل موطن خُبث.

تقول العين القرآنية الغاضة لصاحبها: حفظك الله كما حفظتني، وتقول العين اللاقرآنية الزائغة لصاحبها: أضاعك الله كما أضعتني. إن قارئ القرآن يتعلم كيفية قراءة لغة النظرات، ويدرك أيضاً أن العين يمكن لها أن تتسبب بالمعصية - كما الأمر بالنسبة إلى اللسان - فهو يعض بصره عن المحارم، وعن كل ما لا يحق له النظر إليه، بل حتى يتحاشى النظر إلى شخص وقع في ذل، لأن هذا النظر سوف يذكره بالموقف كلما التقى ذاك الشخص.

ويمكن لنظرة أن تلحق ضرراً بالغاً بناظرها، لأنها تكون شاهدة على وقوع حدث ما، والعين تؤدي بناظرها إلى القسم، فيقسم بأنه رأى، أو يقسم بأنه لم ير.

مع قراءة منزلة العين في القرآن، يكون القارئ على حذر من زلة نظر، كما يكون حذراً من زلة لسان، وهذا في واقع الأمر يجعل من قارئ القرآن بعيداً عن مواطن الريبة والشبهة.

وردت العين في الكثير من الأحاديث النبوية، وكان التحذير من العيون، لأن الإنسان على الأغلب يحسد، أو ينقل الأخبار من خلال ما تقع عليه عيناه، وكان النبي يولي العين أهمية بالغة فيقول: "العين

تدخل الرجل القبر، وتدخل الجمل القدر".
ويقول: "أكثر من يموت من أمي بعد قضاء الله وقدره بالعين".
وصح عن (أم سلمة) أن النبي رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة،
فقال: "استرقوا لها، فإن بها النظرة".
وفي حديث آخر يقول "صلى الله عليه وسلم": "اتقوا فراسة
المؤمن، فإنه ينظر بنور الله".
كان (ابن القيم) يقول: العين عينان: عين أنسية، وعين جنية.
وفي مواضع عديدة نرى شكلا من أشكال الزنى يقع من خلال
العين، حيث يؤاخذ المرء على نظرة سلبية تبدر منه، ولذلك كان
الحذر، وكانت الحيطه، من إلقاء النظرات على عواهنها، فيسأل العبد
ربه غض البصر.
تتحول النظرات في هذا المقام إلى أفعال، ويُدان الشخص في
نظراته، كما يُدان في أفعاله.
عن (عثمان بن عفان) أن (أنس بن مالك) دخل عليه، وكان قد مر
بالسوق، فنظر إلى امرأة، فلما نظر إليه، قال (عثمان): يدخل عليّ
أحدكم، وفي عينيه أثر الزنا. يقول ابن عباس: هو الرجل يكون جالسا
مع القوم، فتمر المرأة، فيسارقهم النظر إليها.
هو الرجل ينظر إلى المرأة، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، فإذا
رأى منهم غفلة تدسس بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابه، غض بصره،
وقد علم الله عز وجل منه أن يود لو نظر إلى عورتها.
كما يقال إن لكل امرئ من اسمه نصيب، يمكن القول هنا: إن لكل

امرى من عينيه نصيب.

وقد بيّنت الأبحاث أن أصحاب العيون السوداء، يمتازون بركة مشاعر ممزوجة بقوة عاطفة، والحكم بالنسبة إليهم يكون من خلال القلب أكثر من العقل، كما أنهم لا يتحكمون بغيرتهم الشديدة، وبدفقات عصبية قد تجتاحهم في موقف ما.

في حين يمتاز أصحاب العيون الزرقاء بشيء من البرود، وحالة متقدمة من النرجسية. تكتنف حياتهم هالة من غموض، يتمتعون بتفكير عميق، يملكون جرأة في الأقوال والأفعال.

أما أصحاب العيون الرمادية، فإنهم ينجحون إلى العنف والشدة، وحسم الأمور بأقصى سرعة ممكنة.

أصحاب العيون البنية، يتميزون بطاقة من تسامح وتيسير الأمور، إنهم يتقنون الأعمال التي يقومون بها بشكل جيد، وإن رأوا أنفسهم في موقف محرج تظهر عليهم الحساسية، وتبدو سمات خجل شديد على ملامحهم.

أصحاب العيون الخضراء يتسمون بنوع من المكر، والتمسك بالرأي، وكذلك قوة الإرادة.

يقول ابن الأعرابي:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها

من الشنائة، أو ود، إذا كانا

إن البغيض له عين يصد بها

لا يستطيع لِمَا في الصدور كتماننا

العين تنطق والأفواه ساكنة

حتى ترى من ضمير القلب تبياننا
يعتمد قارئ القرآن على عينيه، سواء في الإرسال، أو في التلقي،
فهو يمكن له أن يرسل إشارة من خلال نظرات معينة إلى الناظر، كما
أنه يمكن أن يتلقى إشارة معينة من خلال الناظر إليه.
يدرك القارئ، المواظب على قراءة القرآن، بأن الحياة تمتلئ بأطياف
وألوان الناس، وهو ينظر إلى هذا النقيض في الناس نظرات طبيعية.
العالم أمام ناظره ممتلئ بطيبين وشريرين، وكأنها ثنائية، لا تحقق
الواحدة حضورها إلا بوجود الأخرى، كسلكي السالب والموجب
المتزافين، الذين لا تولد أي طاقة إنارة دونهما.
هذا أمر طبيعي من أجل أن تستمر الحياة، وهنا تكمن مهمة
الإنسان، في ألا يلتبس عليه الأمر بين السلكين، فلا يميز أحدهما من
الأخر، لأن أي لبس يمكن أن يلحق به ضررا فادحا. بالنسبة لسلك
الموجب، فأنت لا تحتاج إلى أي استعداد، أو أي حصانة، أو حذر،
للتعامل معه. بيد أنك تحتاج إلى مزيد من استعداد، وحصانة، وحذر،
وأنت تمد يدك إلى سلك السالب. وكما تجد في أماكن مضيئة
شريرين، فيمكنك أن تجد حتى في أماكن دامسة الظلام أناسا طيبين.
إذن، كيف تدرك بأنك شخص إيجابي؟

عندما تكون في مكان ما، وترى شخصا يبتسم، فتشعر بأنك تبتسم
معه، وعندما ترى شخصا نجح في مشروع قام به، فتشعر بأنك
نجحت، عندما ترى منظرا بهيا، فتنتعش حواسك، أو أنك عندما ترى

شخصاً يتألم فتتألم معه، وعندما ترى شخصاً أخفق في مشروع قام به، فتحزن معه، أو عندما ترى منظراً مؤلماً، فتستاء. هنا يمكن أن تبلغ الإشارة الأولى من إشارات شخصيتك الموجبة.

و إن رأيتك تدري، أو لا تدري، تميل إلى رفاق سوء، لا تحزن أمام شخص أصابته مصيبة، تميل بطبعك إلى إثارة ثغرات بين شخصين محبين، تشعر بظفر عندما يخفق الآخرون في أعمالهم، لا تزيج أذى عن طريق، يعتريك ضيق أمام شخص يضحك. فاعلم بأنها إشارة أولى من إشارات شخصيتك السالبة.

وكما أن السلك السليبي، يمكن له أن يحيل ضوءاً ساطعاً إلى ظلام، فيأمكن سلك إيجابي أن يحيل ظلمة أزلية إلى ضوء.

يمكن لك، وأنت في ذروة يأسك، أن تعثر على شخص موجب، يبدد عالماً من الظلام، ويحيله إلى شروق وربيع عامر بكل أطياف الطيور والورود.

إنه عالم خفي من التقاء النظرات بالنظرات، من تفاعل الذرات مع الذرات، من عناق الحواس للحواس، من انسجام النبضات مع النبضات.

كان (محيي الدين بن عربي) * منتبهاً لأهمية الإنسان الإيجابي في

* كان ابن عربي قد أحب فناة جميلة تدعى (نظام) ولقبها (عين شمس) وهي ابنة شجاع الأصفهاني، إمام الحرم المكي، وكانت تميل إلى التصوف، وهي التي ألهمته عذوبة الكتابة في الكثير من موشحاته وقصائده، لأنها كانت بالنسبة إليه صورة النقاء، وتمثل قوة الإنسان الإيجابي الذي يرتاح إليه ولذكره الناس.

الحياة، وبأنه إنسان استثنائي يصعد في درجات الكمال البشري، مستمداً قوته الإيجابية من صلب العلاقة بينه وبين الله. ثمة موشح لـ(ابن عربي) يقول فيه:

تدرع لاهوتي بناسوتي وحصل موسى اليم تابوتي
فمن قال عني إني العبد وقد صحح أني الملك الفرد
قرب عليم غره الجحد

فانظر عزتي فيك وتشبتي على عرش تنزيهي عن القوتي ١
وهنا تكون آمال الإنسان الكبرى معقودة على الإنسان الإيجابي،
الذي تفوح منه رائحة طيب الإنسان، ورائحة الصنعة الإلهية. يقول
ابن عربي:

ألا يا حمامات الأراكة والبان ترفقن لا تضعفن بالشجو أشداني
لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه، فالحب ديني وإيماني ٢

الإيجابيون هم الذين يجعلون من الحياة مادة قابلة للعيش، إنهم مصابيح الهدى. محظوظ ذاك الذي يجد كائناً يميل إليه كل الميل، ويتعلق به كل التعلق، ويتفاعل معه كل التفاعل. وهذه المسألة تكون غاية في الأهمية في العلاقة الزوجية، إذ ليس هناك أتعس من زوجين يعيشان في بيت واحد، وكل واحد ينفر من رائحة الآخر، وليس هناك أسعد من زوجين، كلما احتضنا، أحسا بمسافة أخرى لا بد أن يجتازاها، ليقتربا من بعضهما أكثر، كلما استنشقا أحدهما رائحة الآخر، أحس

بأنه في ربيع حافل بكل ألوان الرياحين، فترى الزوجة أنهارا، وهي تنظر في عيني زوجها، ترى سماء، وهي تنظر في جبهته، ترى وطنا آمنا، وهي تتوسد ذراعه، تهرع إلى حضنه، كلما شعرت ببرد وخوف وجوع وفراغ، لتلمس عالما حافلا بكل شيء.

إن كل تلك التعريفات لبثت، وسوف تلبث، عاجزة عن تفسير لحظة واحدة من الحب الكبير، الذي يجعلك تشعر بكل تلك القوة نحو شخص ما، شخص ما دون غيره. إنه يشرق أمام ناظريك كالشمس، ولا تملك إلا أن تشعر بنشوة وأنت تنظر إليه. وليست ثمة خسارة في العالم تضاهي خسارة شخص مشرق، لأنه كوكب مضيء يمشي على الأرض، وكذلك يمشي في الناس. ها هو التوافق في الميولات، ها هو الإعجاب بجمالية الروح والجسد، ها هي المواقف النبيلة. ولعل التأمل في هذه المسألة، يزيدها إشراقا وزهوا وامتلاء بالمعاني الفائضة. أجل إنهم أهل الطيب الذين يحرص المرء على حياته فقط من أجل أن يلتقيهم، ويستمتع بلحظات التانس والتآلف الروحي معهم. هؤلاء العظماء الذين يتسلسلون عبر التاريخ البشري، ويتوارثون شجرة الطيب، وعناقيد فاكهتها، من بعضهم البعض.

الطيون هم الأدوية لكل أمراض العالم، إنهم البلسم لكل ما يمكن أن يسببه الشريرون من جروح في الروح، إنهم كالأنغام، التي تتشكل منها سيمفونية الطبيعة الدافقة بكل مقومات الحياة. وهنا تكمن عظمة الطبيعة، وعظمة الحياة، وكذلك تكمن جمالية الصراع في سبيل اكتشاف الحقائق الصغرى والكبرى، التي تنجم عن هؤلاء،

وتنجم عن هؤلاء.

ولا أريد أن ننظر دوماً إلى النصف المملوء من الكأس، هذا النصف الذي دوماً يكون في الأسفل، إننا إلى جانب ذلك نحتاج أن ننظر إلى النصف الفارغ، حتى تتساوى النظرة، وتكون متوازنة، وحتى لا نشعر بالفجيعة، عندما يداهمننا النصف الفارغ الذي لا يبرح الكأس تماماً، كالنصف المملوء.

علينا أن نؤمن بأن هناك أناساً يمتلئون بالشر والحقد والعدوان، ولا يشعرون بأنهم فعلوا شيئاً مجدياً، إلا إذا تسببوا بإلحاق أذى بالآخرين، هؤلاء لا يؤمنون أبداً بجدوى فعل الخير، ولا يؤمنون بأن الحياة جديرة بأن يفعلوا فيها شيئاً مجدياً.

إن كل شيء بالنسبة إليهم هو أسود قاتم، كل يوم تراهم يمتلئون حقداً وضعينة، خاصة بالنسبة لأولئك الذين يحسنون إليهم، بصفة خاصة، أو يحسنون إلى الحياة، ومن فيها، بصفة عامة.

هؤلاء يهتمهم أن تكون نزعة الشر عامة، وأن ينتهي كل للخير، وينتهي كل إنسان خيراً من الحياة، لأنهم يشعرون بأن هؤلاء إنما يسيئون إليهم بالدرجة الأولى، كونهم يناقضونهم في النزعة.

بالطبع إنها حقيقة مرّة، لكن علينا أن نؤمن بها. كنت دوماً أرغب بمعرفة سبب هذا الحقد الأعمى في بعض النفوس، ولم أكن أصل إلى جواب سوى أنهم، وبمحض إرادتهم، يسلكون ذلك المنهج، وأن موقفهم ليس من شخص ما، أو من واقع ما، بل من قيمة نزعة الخير ذاتها، فإن أشد ما يستفزهم هو أن يقدم شخص ما عملاً خيراً، أو أن

يروا شخصا ناجحا، نظر إلى الحياة بجدية ومروءة وطيب .
 كنت دوما أرى أن الفشل الذريع يقف إلى جانب هؤلاء، إنهم
 دوما يعانون النقص في كل مقومات الحياة، فهم ليست لديهم علاقات
 اجتماعية حميمة، وليست لديهم صداقات حقيقية، ليست لديهم
 علاقات عاطفية حميمة، ليست لديهم علاقات أبوية حميمة، ليست
 لديهم أوضاع صحية، أو اقتصادية، أو أيديولوجية مستقرة. إنهم -
 سواء علموا، أو جهلوا - يلحقون هذا الأذى بأنفسهم، عند اللحظة
 الأولى التي يلحقون فيها الأذى بالآخرين، فمجرد قطيعتهم عن
 الآخرين، هو من الخسارات الكبرى الفادحة ، التي لا يمكن تعويضها
 بأي حال.

أجل، إنهم أهل الحقد، الذين يزدادون حقدا، إلى جانب أهل
 الطيب، الذين يزدادون طيبا، كلما أشرقت الشمس وغربت.

مراجع

- ١ - ديوان ابن عربي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦، ص
٣٦٣ .
- ٢ - ترجمان الأشواق، محيي الدين بن عربي، دار صادر، بيروت،
١٩٦١، ص ٣٤ .

الفصل الرابع

القرآن الكريم ومنهج الحياة

يجد قارئ القرآن منهج حياة متكاملة في القرآن، الذي يتعرض لكل كبيرة وصغيرة، تمس مقومات الحياة البشرية. إنه كتاب تحليلي مفصل عن صلب علاقة الإنسان بالحياة، علاقته بنفسه، علاقته بالآخرين، علاقته بالله.

يفضي التلقي القرآني بقارئه المتدبر إلى منزلة أن يعيش حياة قرآنية مميزة، تتحوّل فيها مقومات الحياة إلى آيات قرآنية أمام ناظره تزيد حكمة، ونضجاً، وتوازناً، وصبراً، وامتلاءً بالحياة .

يغدو في مراتب متقدمة من تذوق المعنى القرآني، وبناء علاقة قویمة مع قرآنية الحياة.

والقرآن، وإن خاطب شخصاً معيناً في زمن بعينه، ولواقعة معينة، فإنه يصلح لإنسان كل زمان ومكان. ولذلك فإننا نقف أمام خطابات عامة، وإن كانت تخاطب شخصاً معيناً. فقول: (كلا أن الإنسان ليطغى، إن رآه استغنى) * ، لا ينتهي مفعوله بزمن الشخص الذي نزل فيه، بل يجد القارئ في هذا البيان الإلهي منهجاً لوقائع حياته. ويحتمل هذا السطر، وهذه الكلمات السبع، كتباً من الشرح لوقائع

* الآيتان ٦ ، ٧ من سورة العلق .

الحياة اليومية، التي ينتفع بها الإنسان في ليله ونهاره، في حله وترحاله، في علاقاته بالناس من حوله، بأهله، بنفسه. ويمكن أن يتعرف على حكمة الله، من خلال هذه الكلمات السبع.

ينظر بأن الله، ولحكمته، لم يعط الإنسان كل شيء من العلم إلى درجة الاستغناء، لم يعطه الصحة كلها إلى درجة الاستغناء، لم يعطه المال كله إلى درجة الاستغناء، لم يعطه الأمن كله، لم يعطه السلطة كلها.

ولذلك تراه يكاد في الحياة ويشقى في سبيل بلوغ المعرفة الناقصة، في سبيل بلوغ المال الناقص، في سبيل الحفاظ على الصحة الناقصة، في سبيل الأمن الناقص، في سبيل الحفاظ على السلطة الناقصة.

من جوهر هذه المعرفة لحكمة الله، ترى القارئ المتذوق لحلاوة معاني القرآن، ترى القارئ يعكس ذلك على نفسه. وكان النبي يقول بأنه لا يأكل قبل أن يجوع، وإن أكل لا يشبع. إنه يعطي لنفسه حقها، ولكن لا يسمح لها أن تطغى عليه، وتبطر، وتمرد، لأن باب الشهوات يؤدي إلى التهلكة الروحية والبدنية. وكان يوزع وقته على سائر مقومات الحياة، بحيث يتواصل مع عناصر الحياة، ولا يأتي واجب على حساب واجب آخر.

في واقعة جرت مع عبد الله بن المبارك روى فيها : خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا في الطريق، إذا أنا بسواد على الطريق، فتميزت ذلك، فإذا هي عجوز عليها درع من صوف، وخمار من صوف. فقلت: السلام عليك ورحمة

الله وبركاته.

فقلت: ((سلام قولاً من رب حكيم)).

قال فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان؟

قالت: ((ومن يضل الله فلا هادي له)).

فعلمت أنها ضالة عن الطريق، فقلت لها: أين تريدان؟

قالت: ((سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام، إلى

المسجد الأقصى)).

فعلمت أنها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس، فقلت لها:

أنت منذ كم في هذا الموضع؟

قالت: ((ثلاث ليال سوياً)).

فقلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين.

قالت: ((هو يطعمني ويسقيني)).

فقلت: فبأي شيء تتوضئين؟

قالت: ((فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً)).

فقلت لها: إن معي طعاماً، فهل لك في الأكل؟

قالت: ((ثم أتموا الصيام إلى الليل)).

فقلت: ليس هذا شهر رمضان.

قالت: ((فمن تطوع خيراً، فإن الله شاکر عليم)).

قلت: قد أبيع لنا الإفطار في السفر.

قالت: ((وأن تصوموا خير لكم، إن كنتم تعلمون)).

فقلت: لم لا تكلميني مثلما أكلمك.

- قالت: ((ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)).
- قلت: أي الناس أنت؟
- قالت: ((ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً)).
- فقلت: قد أخطأت، فاجعيني في حل.
- قالت: ((لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم)).
- فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه، فتدركي القافلة.
- قالت: ((وما تفعلوا من خير يعلمه الله)).
- قال: فأنخت ناقتي.
- قالت: ((قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم)).
- فغضضت بصري عنها، وقلت لها: اركبي، فلما أرادت أن تتركب، نفرت الناقة، فمزقت ثيابها.
- فقالت: ((وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم)).
- فقلت لها: اصبري حتى أعقلها.
- قالت: ((ففهمناها سليمان)).
- فعلقت الناقة، وقلت: اركبي، فلما ركبت، قالت: ((سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون)).
- قال: فأخذت بزمام الناقة، وجعلت أسعى، وأصيح.
- فقالت: ((واقصد في مشيك، واغضض من صوتك)).
- فجعلت أمشي رويدا رويدا، وأترنم بالشعر.
- فقالت: ((فاقرؤوا ما تيسر من القرآن)).

فقلت لها: ((لقد أوتيتم خيرا كثيرا))، ((وما يذكر إلا أولوا الألباب)).

فلما مشيت بها قليلا قلت: ألك زوج؟
قالت: ((يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)).

فسكت، ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة، فقلت لها: هذه القافلة، فمن لك فيها؟

فقالت: ((المال والبنون زينة الحياة الدنيا)).
فعلمت أن لها أولادا، فقلت: وما شأنهم في الحج؟
فقالت: ((وعلامات، وبالنجم هم يهتدون)).
فعلمت انهم أدلاء الركب، فقصدت بها القباب والعمارات،
فقلت: هذه القباب، فمن لك فيها؟
قالت: ((واتخذ الله إبراهيم خليلا. وكلم الله موسى تكليما. يا يحيى خذ الكتاب بقوة)).

فناديت: يا إبراهيم، يا موسى، يا يحيى، فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا، فلما استقر بهم الجلوس، قالت: ((إلى المدينة فابعثوا أحداكم بورقكم هذه فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه)).
فمضى أحدهم فاشترى طعاما، فقدموه بين يدي، فقالت: ((كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية)).

فقلت: الآن طعامكم عليّ حرام، حتى تخبروني بأمرها.
فقالوا: هذه أمتنا، لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن، مخافة أن

تزل، فيسخط عليها الرحمن، فسبحان القادر على ما يشاء.

فقلت: ((ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم)).

إن قارئ القرآن، الذي هو مع البررة، لا يعطي نفسه كل هواها، ولا يجري خلف الملذات، وهو بذات الوقت يأخذ حقه وكفايته، إنه كائن غير مفرط في الحصول على متطلباته، ودوماً هو يجاهد هوى النفس، حتى لا يقع في أسرها، لأن السقوط في أسر النفس، لهو أشد من السقوط في أسر ألد عدو بشري.

إنك عندما تعطي نفسك كل هواها، سوف تطغى عليك، والنفس لا تعرف الشبع، ولا تعرف الحمد، كلما لبيت رغباتها، قالت لك: أنت مقصّر، هل من مزيد.

واعلم أن جل الذين يعانون أوبئة النفس، هم على الأغلب ضعفاء أمام أهوائهم ورغباتهم وشهواتهم.

ثم إنك إن أعطيت حليلتك كل مطلب، استغنت عن حاجتها إليك، إن أعطيت ولدك كل مطلب، استغنى عن أبوتك له، فتغدو في واقع مُهان، تفودك فيه أهواؤك، تفودك فيه حليلتك، يفودك فيه ولدك. تدرك هنا أن الإنسان كائن محكوم بالاكتمال في الأخذ، وفي العطاء، في الإرسال، وفي التلقي، وهو يرتقي في درجات كماله البشري، على سلم الاكتمال الإيجابي، هذا الذي خلقه الله عليه، هذا الاكتمال الذي يوهج شعلة الحياة أمام ناظره، يجدد أمامه سبل الحياة، ويحفزه على الإبداع، والإشراق الروحي، ويجعله يشعر بقيمة ومعنى الظفر.

إذا نظرتَ إلى رسائل المنتحرين، رأيت أنهم أفرطوا في الجري خلف الأهواء والملذات والشهوات، حتى شعروا بخواء البدن، وخواء الروح، وخواء العلاقات الإنسانية، وخواء الحياة برمتها. إنهم شعروا بقرف من الإقبال على هوى النفس دون ضابط.

مثل هذه المشاعر لا تقتصر على فئة معينة، بل تشمل كافة فئات الناس، من العامل البسيط، إلى رجل الفكر والفلسفة، فترى أن ماسح الأحذية ينتحر، كما ترى أن السياسي البارز ينتحر، وترى أن رجل الفكر ينتحر، وترى أن رجل المال ينتحر. كلهم يتساوون عند فكرة اللاجدوى، التي تهيمن عليهم.

لذلك يمكننا أن نرى شخصاً مفكراً من أقصى الغرب، يلجأ إلى قراءة القرآن، ويتحدث عن مزاياه، وعن أهميته.

يقوم القرآن الكريم بتنظيم الحياة الإنسانية للناس، كما يبين لهم سبل توظيف طاقاتهم، فإذا نظرنا إلى جوهر العلاقة بين الرجل والمرأة، ستجلبو لنا بنية أركان المجتمع البشري، وقد حُظيت المرأة بتكريم إلهي في القرآن الكريم، وهي تتمتع بخصوصية تميزها عن الرجل.

تقف المرأة، في القرآن الكريم، دعامة أساسية في ترسيخ أواصر العلاقات الاجتماعية والإنسانية، وهي التي تشارك في ولادة الأسرة، والعائلة. والزواج هو فعل اجتماعي وإنساني وأخلاقي، لا تستمر الحياة بدونه، و هو اقتران مبارك من الله، تنتج عنه أواصر علاقات متينة بين عائلتين، ليصبح كل فرد في الواحدة قريب الآخر. فهذه العلاقة يمكن لها أن تجعل من مئات الأشخاص على صلة قرابة، مجرد

أن شخصين من كل هؤلاء تزوجا. فبدون الزواج لا يكون لك عم، أو خال، أو عمّة، أو خالة، وما يتفرع من كل صلوات القربى هذه. ولذلك فإن الدين يبارك الزواج، لأنه الوسيلة الوحيدة في سبيل استمرار النسل البشري، وفي سبيل تمتين أواصر العلاقة بين الناس.

ينهى النبي في حديث (أنس بن مالك) رضي الله عنه، عن التفرغ الكامل للعبادة، دون التواصل الاجتماعي: "أن ثلاثة نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: أصلي ولا أنام، وقال بعضهم: أصوم ولا أفطر، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني" (متفق عليه).

وفي حديث (ابن مسعود) رضي الله عنه قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء" (رواه الجماعة).

ويقول "صلى الله عليه وسلم"، في معرض بيان ما يثاب به العبد، وتكتب له به الحسنات: " وفي بضع أحدكم صدقة - والبضع هو من المياضعة، والمياضعة: هي الجماع - قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: "أرأيتم إن وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال، كان له بها أجر".

ثم يبيّن "عليه الصلاة والسلام" أهمية الزوجة الصالحة، وضرورتها، في سبيل حياة هادئة طيبة، يمكن للإنسان من خلالها أن يكون نافعا وفعّالا في الحياة، لأن الرجل ودون الاستقرار العاطفي يبقى دوماً يشعر بفراغ، هذا الفراغ الذي يأتي على وقته وجهده وفكره، بل وحتى عفته بعض الأحيان. يقول النبي "صلى الله عليه وسلم": "ما استفاد المؤمن، بعد تقوى الله عز وجل، خيراً من زوجة صالحة. إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرّته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله".

أمام هذه الزوجة الصالحة لا يملك هذا الزوج المخطوط، إلا أن يشعر بطمأنينة أسرية وعاطفية واجتماعية، مما ينعكس على سلوكه اليومي مع ذاته، ومع المحيط من حوله، فهو رجل سوي متفرغ للإخلاص في العمل، فتراه يحقق نجاحات هائلة في مختلف مناحي الحياة. فالرجل لا يكون كائناً اجتماعياً معترفاً به، بشكل اجتماعي رسمي، دون أن يكون مقترناً بزوجة. هذا الزواج الذي يرسخ أقدام الزوجين في عمق الأسرة والمجتمع، من خلال الإنجاب، وولادة صلات القربى الجديدة.

وهذا لا يعني أن الرجل يحظى بالمرأة الصالحة فور زواجه منها، فهي قد تكون صالحة، إلا أن الظروف التي نمت فيها لم تمكنها من إظهار ماهي عليه من صلاح، أو أنها لا تجد الشخص الذي يقدر فيها صلاحها، فتسعى إلى أن تعيش حالة من تناقض في موضع غير سوي،

أو بيت غير سوي. وهنا نرى الفشل يحالف نسبة لا يستهان بها من العلاقات الزوجية، فالزوج يريد لها ناضجة، كاملة، صالحة، منذ ليلة الزفاف، وكأنه يلغي تاريخاً من مرحلة العزوبية، وشوائبها. إنه هنا لا يمنح لزوجته الفترة الزمنية الكافية، حتى تتمكن من أن تعيش تفاصيل الحياة الزوجية، وتتجاوز مرحلة العزوبية، التي عاشتها خلال عمرها السابق كله، فهذا الرجل هو شخص غريب عليها، وهذا البيت الذي دخلته، هو بيت غريب عليها، وهذه العلاقة الاجتماعية التي ولجتها، هي علاقة جديدة عليها. إن هذه المرأة التي تحتاج إلى نحو ساعة من الزمن حتى تنزع ثياب عزوبيتها، وترتدي ثياب الزفاف، تحتاج إلى زمن حتى تخلع حالة العزوبية من مشاعرها، وتستبدلها بحالة الزوجة، حتى تكون مهيأة لتعيش حالة الأمومة، ومن ثم حالة أن تكون جدة. إن هذه المراحل لا تحتاج لشيء، قدر حاجتها إلى الزمن والتجارب والوقائع، حتى تتعزز في النفس والمشاعر، وتأخذ مكانها الطبيعي في وقتها الطبيعي. إن الرجل يبدو سيداً، ورجلاً حقيقياً، في نظر المرأة، كلما أحست هذه المرأة بسعة أفقه، وأنها تتعلم من هدوئه، وتسامحه، وعفته، ونضجه، ومنحها الفرصة تلو الأخرى، حتى تتدرب على إيقاعات الحياة الزوجية، إنه هنا يصبح عالماً كاملاً بالنسبة إليها.

كما أن الأديان، والمعتقدات، والمجتمعات البشرية، تذهب مذهب مباركة الزواج، فإنها بذات الوقت، تنبذ أي علاقة بين ذكر وأنثى خارج مؤسسة الزواج، لأن المرء يخرج عند ذاك عن أخلاقه، وعن موقعه الاجتماعي، وكذلك عن كينونته الإنسانية. يقول الله: (ولا

تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا).
 (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ
 اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا).
 (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ
 بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهَّدَ
 عَلَيْهُمَا طَافٌةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

الزنا هو فعل جماعي يقع بين رجل وامرأة، دون مباركة إلهية،
 ودون مباركة اجتماعية، سواء كان الرجل محصنا، أو غير محصن،
 وسواء كانت المرأة محصنة، أو غير محصنة. ذات الفعل، الذي يأخذ
 طبيعته وشرعيته، إذا اقتزن بمباركة إلهية، وعقد شرعي، ومباركة
 اجتماعية. وذات الفعل، الذي يجعل الرجل زوجا، والمرأة زوجة، كما
 يجعل الرجل زانيا، والمرأة زانية.

في الحديث: "إن العين تزني، وزناها النظر، وإن اليد تزني، وزناها
 البطش، وإن الأذن تزني، وزناها السمع، وإن الفرج يصدق هذا، أو
 يكذبه".

"يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن
 تدركوهن، وذكر منها: ولم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا
 بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في
 أسلافهم".

هذا الفعل يُخرج الإنسان من منظومته البشرية، ويجعله همجيا.
 ففي عالم الزنا، الأب لا يعرف ابنه، والابن لا يعرف أباه، وهكذا

تتوارى الأنساب، وتضيع صلات القربى في الناس، في عالم شبيه بعالم الحيوان. كما أن الزنا - على الأغلب - يتسبب في تفاقم الجرائم، حتى في قلب المجتمعات التي تسمح بالحرية المطلقة، لأن الغيرة فطرة في داخل الإنسان، ويمكن لأي إنسان، ومهما كان المجتمع الذي ينتمي إليه، أن يفكر بإبعاد رجل ينافس في زوجته، أو حتى في خطيبته.

كلمة (زنا) هي إدانة ووصمة توجه إلى شخص خرج عن العرف الإلهي والإنساني معاً، وليست إدانة توجه إلى فعل الجِماع بحد ذاته. هذه الإدانة، التي تجعل المدان مستحقاً للعقاب الإلهي، والعقاب الإنساني معاً، مثله مثل شخص يمشي في قلب مدينة إسلامية، صبيحة يوم رمضاني، يأكل تفاحة، فينظر الصائمون إليه بشي من ازدراء، ليس لأنه يأكل تفاحة، لكن لأنه شذ، وخرج عن القاعدة العامة لحركة الناس من حوله، كذلك فإنه يتعرض لإدانة إلهية، ليس لأنه يأكل، بل لأنه لم يمتثل لأمر الله، وهو ذاته قد يأكل من ذات التفاحة، وفي ذات الوقت والمكان، في يوم غير رمضاني، دون أن يتعرض لازدراء الناس، ولإدانة إلهية على ما يقوم به.

يقول الله عز وجل: (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين).

ويأتي التحذير النبوي الشديد: "ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله، من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له".

ثم يتصاعد الحديث في الشدة: "لا يزني الزاني حين يزني، وهو مؤمن".

وفي الصحيحين عن (ابن مسعود) رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله "صلى الله عليه وسلم" أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: "أن تجعل لله نداً، وهو خلقك".

قلت: إن ذلك لعظيم. قلت: ثم أي؟

قال: أن تقتل ولدك، مخافة أن يطعم معك.

قلت: ثم أي؟

قال: أن تزاني حليلة جارك".

وجاء في (صحيح البخاري)، وغيره، عن (سمرة) رضي الله عنه، في حديث طويل، في خبر منام النبي صلى الله عليه وسلم، أن (جبريل) و(ميكائيل) جاءاه، قال: فانطلقنا، فأتينا على مثل التنور أعلاه ضيق، وأسفله واسع، فيه لفظ وأصوات. قال: فاطلنا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عراة، فإذا هم يأتيهم هب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب صاحوا من شدة الحر، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الزناة، فهذا عذابهم إلى يوم القيامة.

وفي مزيد من تصاعد في الشدة، يقول النبي: "إن ريح فروج الزناة والزواني يؤذي أهل النار شدة ننتها".

وعن الإمام (أحمد) و(الحاكم)، وصححه، عن أنس رضي الله عنه قال: "من مات مدمناً الخمر، سقاه الله جل وعلا من نهر الغوطة، قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: نهر يجري من فروج المومسات، يؤذي أهل النار ريح فروجهم".

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم: "لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة".

وعن (أبي هريرة) مرفوعاً: إذا زنى الرجل أُخرج من الإيمان، وكان عليه كالظلة، فإذا أقلع، رجع إليه الإيمان.

وذكر (سفيان بن عيينة) عن (جامع بن شداد) عن (أبي وائل) عن (عبد الله)، قال: إذا بُخس المكيال حُبس القطر، وإذا ظهر الزنا وقع الطاعون، وإذا كثر الكذب كثر الهرج .

يقول السيد المسيح عليه السلام: "لا يكون البطالون من الحكماء، ولا يلج الزناة ملكوت السماء".

يقول (الإمام الشافعي) رحمه الله، بأن الذي يقدم على فعل الزنا، لا بد أن يلقاه في أهله:

إن الزنا دَيْنٌ إذا أقرضتَهُ كان الوفا من أهل بيتك فاعلم
مَنْ يَزِنُ في قومٍ بألْفِي درهم في أهله يُزنى بربيع الدرهم
من يزن يُزَنَ به، ولو بجداره، إن كنت يا هذا لبيباً فافهم
ياهاثكا حُرَمَ الرجال، وتابعا طرق الفساد، عِشْتَ غيرَ مكرم
لو كنت حُرّاً من سلالة ماجدٍ ما كنت هتاكاً لحرمة مسلم

إذن الفعل هو ذاته، في وجهيه المقبول والمدان، غير أنك في المدان، تكون خرجت عن السلوك والأخلاق والقيم الإنسانية، وخرجت عن ركيزة كبرى من ركائز دينك، ولكل دلالة من هذه الدلالات فروعها وجداولها ومربعاتها.

فالزنا يمكن أن يتساوى مع الشرك بالله، ومع قتل النفس: يقول تبارك وتعالى: (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق آثاماً). ثم يوجه الناس إلى سواء السبيل: (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله).

عن ابن عباس "رضي الله عنهما" قال: قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم": "يا شباب قريش احفظوا فروجكم لا تزنوا، من حفظ فرجه فله الجنة" ١٠.

و قال أبو هريرة "رضي الله عنه": "من زنى، أو شرب الخمر، نزع الله منه الإيمان، كما يخلع الإنسان القميص من رأسه". الأمر الآخر، والذي يتعلق بوقائع حياة الزاني في أهله، وفي الناس، هو أن هذا الشخص يلقى صدمة من قبل الجميع، فهو شخص غير مرغوب فيه أينما حل، ولا أحد يرغب أن يستقبله في بيته، لأنه شخص غير موثوق به، إنه كائن لا يؤتمن. كما أن الزاني سرعان ما تفوح له رائحة، مهما حاول أن يداريها، ذلك أن للزنى رائحة لا بد أن تفوح من مرتكبيها، فتراه يلقى نظرات ازدراء، حتى من المقربين إليه، بل يمكن أن يصبح منبوذاً حتى داخل بيته، من زوجته وأولاده، ويمكن أن يُشك بتصرفاته، حتى وهو يتحدث مع مقرباته، لأن فعل الزنا قد تحقق في هذا الرجل، وهو ما يزال مستمرا فيه، والمسألة لا تعدو أن تكون مجرد درجات في حالة وفعل الزنا.

بالطبع فإن الزنى يتعزز داخل الرجل، ويغدو سلوكاً طبيعياً بالنسبة إليه، مع الممارسة المستمرة والإصرار عليها. كما أن التقليل منه، وفق تدرج، يمكن أن يؤدي إلى إخماد هذا السلوك، حتى يقلع الرجل عنه إقلاعاً كلياً. ويمكن تشبيه ذلك بالنار المشتعلة، التي تلبث مشتعلة مادامت تحصل على وقود، وتخمّد حتى تنطفئ من تلقاء نفسها، إن لبثت دون وقود، مهما كان شكل أو نوع هذا الوقود. إن هذه النار هنا تستمر داخل الرجل، ولكن أحياناً تكون ملتهبة، وأخرى تكون منخفضة، وفق نوع وشكل الوقود، التي تلهب داخله هذه الممارسة وتزينها في غريزته.

العلاقة الزوجية، التي نص عليها القرآن الكريم، هي المرتكز الأول نحو فتح آفاق حياتية جديدة بالنسبة للرجل والمرأة، فعندما يكون المرء مستقراً وسعيداً، أو على الأقل عندما لا يكون تعيساً في حياته الزوجية، فإنه ينظر إلى التقدم والتطور والازدهار.

عدم الاستقرار الزوجي يكون - على الأغلب - خلف الفشل الذريع الذي يصيب أي بيت زوجي في العالم، والاستقرار الزوجي يكون الدافع شطر تحقيق المزيد من التفوق والنجاح على الصعيد كافة. لذلك نرى أن النجاح الزوجي ينطلق من قاعدة الدين، الذي يحفظ للناس حقوقهم، ويمنعهم من التجاوز على حقوق بعضهم البعض. وأخطر هذه الحقوق والحدود، هي الحقوق والحدود الزوجية، فالمرأة المسلمة الملتزمة بقواعد دينها، تحقق سعادة لنفسها ولزوجها، وتكون قدوة للزوجة الصالحة الناجحة السعيدة.

وكذلك فإن الزوج الملتزم بقواعد دينه، يحقق نجاحاً لنفسه ولزوجته ولأسرته، ويكون قدوة للزوج الناجح المستقر في عشه الزوجي.

إن العش الزوجي الآمن والهادئ والمستقر دوماً، يكون دافعاً نحو التألق والطموح والعمل والعطاء، والزوج المستقر يخرج من عشه الزوجي صباحاً، وعليه إشراقة الهناء الزوجي، يقبل على عمله بجد وإخلاص وعطاء.

ثم نرى القرآن الكريم يمهج آفاق الحياة الآمنة للإنسان، ويحببه ما يمكن أن يقع فيه من براثن الوسواس.

إن الوسوسة تصيب نسبة عالية من البشر، قد تصل إلى تسعين بالمئة في بعض المجتمعات المغلقة، وقد وردت في التراث البشري بأشكال مختلفة.

الوسوسة في القرآن الكريم تقترن بالشیطان، والحقيقة كانت معرفتنا بالشیطان متواضعة من خلال ما ترك الإنسان من أفكار، وحتى في الدين لبثت معرفتنا متواضعة مع العهدين القديم والجديد. الشيطان هنا قوة تنتج الشر، لكن مع القرآن بدأنا نتعرف إليه بشكل أكثر وضوحاً.

القرآن ركز على الشيطان، وقدمه للناس بالشكل الذي لم يتم تقديمه به من قبل.

ويمكن لنا أن نقع على علاجات أيضاً لهذه الوسوسة في كتاب الله، وذلك يجدي بالنسبة للكثيرين الذين يؤمنون بجدوى هذا العلاج، لأن

المريض النفسي، أو المصاب بوسواس، يعيش حالة نفسية مضطربة، يبحث عن أي حركة قد تساعد للخروج من تلك الحالة، أو للتخفيف من لهيبها عليه، فهو عندما يكون جالسا في مكان، ويعاني من حدة حالة الوسواس، قد يكون مجرد النهوض، أو تلقي خبر طيب، أو رؤية شخص، مخففا عنه.

هنا نعرف بأن الشيطان، والذي يسميه القرآن (الوسواس الخناس)، هو الذي يقف خلف هذه الحالة، وهو قوة شر موجودة في العالم، كما أن قوة الخير موجودة.

وقد وجدتُ قولاً لـ(ابن القيم) يقول فيه بأن الموسوس يقول:
"هذا مرض بليت به."

قلنا: نعم، سببه قبولك من الشيطان، ولم يعذر الله أحدا بذلك.
ألا ترى أن آدم وحواء لما وسوس لهما الشيطان، فقبلا منه، أُخرجوا من الجنة، ونودي عليهما ما سمعت، وهما أقرب إلى العذر، لأنهما لم يتقدم قبلهما من يعتبران به، وأنت سمعت وحذر الله من فتنته، وبيّن لك عداوته، وأوضح لك الطريق. فما لك عذر، ولا حجة، في ترك السنة، والقبول من الشيطان".

وكان الرسول يحذر أن يشدد الإنسان على نفسه، قائلا: "لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوما شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار".
مرة أتى (عثمان بن أبي العاص) إلى النبي فقال: "يارسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي، يلبسها عليّ. فقال: ذاك

شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته، فتعوذ منه بالله، واتفل على يسارك ثلاثاً.

قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله عني".

عليك أن تعرف بأن النفس هي أيضاً من مصادر الوسوسة (النفس الأمامرة بالسوء).

روي أن أحد الصحابة قال للرسول: "إني لأجد في صدري ما تكاد أن تنشق له الأرض، وتخزل له الجبال هدأً.

فقال له النبي: أوجدتموه في قلوبكم، ذلك صريح الإيمان. ثم قال: الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة".

وفي حديث آخر: "إن الشيطان ليأتي أحدكم، فيقول له: من خلق الشمس؟

فيقول: الله.

فيقول: فمن خلق القمر؟

فيقول: الله.

فمن خلق الله؟

فمن وجد ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله".

لذلك كانت الدعوة في التوجه الديني، والتوجه الطيبي، إلى تجنب التفاصيل، لأن الشيطان يكمن في التفاصيل.

متابعة التفصيل، تفتح نافذة إلى تفصيل آخر، وهلمّ جراً. (وإما ينزغناك من الشيطان نزع، فاستعد بالله، إنه سميع عليم).

فكان القرآن الكريم يذكر بموقف الشيطان من الإنسان: (قال

رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين).
ويقول: (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن
شمالهم).

جاء في (المسند) من حديث (سبرة بن أبي الفاكهة) أنه سمع النبي
"صلى الله عليه وسلم" يقول: "إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرافه،
فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آباءك وأباء
آبائك. فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر، وتذر
أرضك وسمائك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطَّوَل، فعصاه
وهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تقاتل فتقتل، فتتضح المرأة،
ويُقسم المال. قال: فعصاه فجاهد".

الوسوسة هي من صناعة النفس، عندما تنعدم الوقائع، تولد
الوسوسة.

الوسوسة هي قاع الاضطراب النفسي والعصابي، وأفضل ما يمكن
لك أن تفعله نحوها هو أن تتجنبها، أن تكون لا مبالياً نحوها.
علاقات ثمينة لا حصر لها، أفسدتها الوسوسة. بيوت عامرة، هدتها
الوسوسة.

أشخاص يتمتعون بكفاءات ومواهب مذهلة، حطمتهم الوسوسة.
الوسوسة تقف خلف الكثير من الأمراض النفسية والعصبية، وعلى
الأخص الوسواس القهري.

يمكن للوسوسة أن تفعل فعلها في شخص حتى تجعله مصدراً لها،
فيكون هذا الشخص مصدراً فعلياً لنقل عدوى الوسوسة إلى الآخرين،

أيضا وطأت قدماه. إنه ينشر الوسواس في نفوس الآخرين، يقذف بذور الشك إليهم.

ينجح هذا الشخص في الأوساط الشعبية، التي تكون حالة الأمية سائدة فيها.

بيد أنه يقف قزما أمام شخص يتمتع بالوعي، فيصغي إليه هذا الشخص المستنير، بأنه كائن نالت منه الوسوسة نيلا عظيما، إلى درجة أنه لم يعد قادرا غير أن يهلوس. ينظر إلى درجات الوسوسة في هيأته، في سحنات وجهه، في حركاته، طريقة حديثه، طريقة صمته، وهو يشفق عليه، مدركا بأنه إنسان واهن الشخصية، ترك الوسوسة تهيمن عليه، وتحيله إلى فريسة بين براثنها.

الوسوسة تشتد عليك، عندما تكون في إرهاق فكري أو بدني. عندئذ عليك أن تستلقي على ظهرك، ولا تشرذ البتة، لأنك لن تكون قادرا على اتخاذ أي قرار جدي في تلك اللحظات، ولن يكون بمقدورك أن تفكر تفكيرا جديا ومجديا في أي أمر. بعد نحو نصف ساعة من الاسترخاء، ينتهي كل شيء، وتعود إلى وضعك النفسي والبدني الطبيعي.

عندما تمضي بمشيئة الوسوسة، فإنك عند ذاك تفعلها، وتجعلها تشتد عليك، لأنك بدوت أمامها واهنا، ومضيت بمشيئتها.

عندما تقوم بفعل ما، حتى تتخلص من حالة أرقية لديك، اعلم بأنك تمضي بمشيئة الوسوسة، وأنها بعد ساعة تؤرقك للقيام بفعل آخر، وإن قمت به، سوف تؤرقك في اليوم التالي للقيام بفعل آخر،

وإن قمت به، سوف تتدخل في تفاصيل شؤون حياتك، وتفسد عليك حتى تناول شربة ماء.

في تلك اللحظات، تذكر بأن الوسوسة رأيت منفذا - ولو أوليا وبدائيا - إليك، وتذكر بأن كل ما عليك القيام به هو أن تتجنبها، وتقاومها، حتى لو كان ذلك بطريقة اللامبالاة.

إنها تزداد قوة عليك، قدر ما تزداد وهناً ترزخ تحت وطأتها، وتزداد طلباً، قدر ما تزداد استجابة، حتى تستعيد قوتك، وتوقفها عند حدها، وترسخها لأوامرك.

حال الوسوسة مع الإنسان كلعبة القط والفأر، فإما أن تحيلك إلى فأر، وتلاعبك تلك اللعبة، أو تحيلها إلى فأر، فتستطيع أن تتحكم بها وفقما تشاء.

يمكنك أن تعطيها دروساً، تجعلها لا تكرر الإلحاح عليك بمطلب ما، أو بفكرة ما.

مع الزمن والتجارب سوف تدرك الوسوسة حدودها معك، ولن تتجاوزها، حتى لو طلبت إليها ذلك.

المعنى هو لب المقصد القرآني الذي يكمن خلف مبنى الكلمة التي هي غلاق لما تعني، كما أن لب البيضة يكمن خلف القشر، ودون أن تنزع القشر عن البيضة لن يكون بوسعك بلوغ اللب.

التلقي القرآني هو عملية فض الغلاف عن لب الكلمة لبلوغ المعنى، هذا المعنى الذي تستخرج منه التدبر الذي يصلح لك شأنك، وهكذا تراك مرتقياً في قراءة القرآن لأنك تتلقى من كل قراءة معنى

جديداً، تستخرج منه تدبراً يُصلح لك شأناً جديداً من شؤون حياتك، وعلى قدر ما يجعلك ذلك مواظباً على قراءة القرآن، يقف قارئ القرآن غير الفاض عن اللب غلافه دون ذلك وهو يغدو قليل القراءة لأنه وقف أمام مبنى القرآن، دون أن يلج باطنه. إن الكلمة، هي كلمة بما تحمل من معنى، ولذلك لا يؤخذ المعتوه عمّا يقول، لأنه يلقي الكلام على عواهنه دون أن يعني به شيئاً، بيد أن هذه الكلمة تُسجّل على قائلها المتمتع بأهلية معتبرة شرعاً، ولذلك يؤخذ بها، لأنه أطلق المعنى المغلف بقشر حروف الكلمة، خلاف المعتوه الذي أطلق قشر الكلمة دون المعنى .

الفصل الخامس

مشكاة قراءة تدبرية لـ سورة البقرة

سورة البقرة هي سورة منهج حياة جديدة، لاجتماع يستمد تجدد من ثانيا هذه المقومات الجديدة، التي تشرعها وتنصها وتؤسس لها هذه السورة. إنها تقلب كل الموازين والأعراف السائدة رأساً على عقب، وتسبب لهذا الاجتماع ما يميزه ويجعله متألقاً ومتأهلاً لنشر رسالة بلوغ الدين درجة الكمال، وإتمام نعمة الله على الإنسان.

إنها ثورة استنارية جديدة، يحملها رجل اتسم بأنه على خلق عظيم، وعلى درجات متقدمة من نور الإنسانية، وإنه رحمة مهداة، ترعرع في شعاب محلية مكنته، لينشر إتمام نعمة الله على الإنسان في رحاب العالم. لقد وقع اختياري على هذه السورة الكريمة، لاتخاذها نموذجاً للتلقي القرآني، من خلال تدبرية القراءة، ليس لأنها أطول آيات القرآن الكريم فحسب، بل لكونها أكثر آياته إسهاباً في التعرض لتفاصيل الحياة اليومية للناس.

إن سورة البقرة تضع الإنسان الجديد أمام مرآة ذاته، وتجعله ينظر إلى نفسه جيداً بكثير من الإمعان. إنها تفسح أمامه آفاق الحياة، ليكتشف مدى نقاء هذا الإنسان، ومدى ما يتمتع به من عذوبة، ومن بريق الشفافية، فهي سورة قانونية، تشريعية، فقهية، نفسية، تضع المحاذير: النهي، الحلال، الحرام، تبين حدود الله، لذلك ترد فيها آيات

مباشرة يفهمها سواد الناس، ولا تحتاج إلى تفسير، كما ترد فيها آيات تغتني بأكثر من دلالة، وهي تكشف عن غناها بتغير الزمان والمكان. يقول صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة البقرة، توج بها تاجاً في الجنة" رواه الدارمي. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً، وهم ذو عدد، فاستقرأهم، فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سناً، فقال: ما معك يا فلان؟ قال: معي كذا وكذا، وسورة البقرة.

قال: أمعك سورة البقرة؟ فقال: نعم. قال: فاذهب، فأنت أميرهم" رواه الترمذي، وقال: حديث حسن. حتى أن النبي "صلى الله عليه وسلم"، وكى بيث في نفوس أصحابه المزيدي من العزيمة، يصفهم بأصحاب سورة البقرة. فقد روى ابن مردويه، من حديث شعبة، عن عقيل بن طلحة، عن عتبة بن فرقد، قال: "رأى النبي "صلى الله عليه وسلم" في أصحابه تأخراً، فقال: يا أصحاب سورة البقرة".

إنها تذكير لهم، كي يدركوا حجم مسؤوليتهم، التي أدركوها في هذه السورة الكريمة.

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود "رضي الله عنه": "أنه صلى الله عليه وسلم" رمى الجمرة من بطن الوادي، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، ثم قال: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة".

لقد اتخذت سورة البقرة، وآياتها، هذا الترتيب، كسائر السور والآيات القرآنية، التي مضت وفق ترتيب متدرج في عملية تلقي الدرس القرآني، وكما أن كل الآيات في السورة الواحدة هي مستأنفة لبعضها البعض، فإن كل سورة من السور هي مستأنفة لبعضها البعض، في كتاب القرآن.

فصاحة الم

كلمة تبدو مبهمة في ظاهرها، وأنت تستفتح قراءة السورة الأولى، بعد ولوجك متن القرآن الكريم، مستعينا ببسمة الفاتحة، ثم بفاتحة السور، وها أنت أوشكت على الاستئناف في قراءتك التدبرية المجيدة. أعد قراءة الكلمة بتؤدة، وتأمل كل حرف من الحروف الثلاث. اعلم أن كل حرف من هذه الحروف يعينك، وأن عدم وجودها على رأس أول سورة بعد الفاتحة، وأطول سورة من سور القرآن، ليس كوجودها، وأن وجودها على درجة بالغة من الأهمية، حتى لو تأملتها شيئاً من الوقت، ثم شرعت في استئناف القراءة، ذلك أن الحروف الثلاثة التي تستفتح بها هذه السورة المباركة، إنما هي آية مستقلة، تتمتع بما تتمتع به سائر آيات الذكر الحكيم، وعليك أن تقرؤها بتدبر، حتى لا تكون قراءتك ناقصة.

إنها تمنحك فرصة من التأمل فيما أنت مقبل على قراءته، وذلك يحقق لك شيئاً من التأنى والصبر في تلقي ما ستلقى من جواهر القرآن،

وَأَلَّا تَكُونَ فِي عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِكَ، فَتَقْرَأَ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ وَمَبْنَاهُ، دُونَ أَنْ تَلْجَ إِلَى دَاخِلِهِ وَمَعْنَاهُ.

آية متكاملة مفتوحة للتأمل أمام كل قارئ للقرآن، كي يقف عندها بتدبر، وتفكر.

حروف ثلاثة تتمتع بمقام آية متكاملة، قد تتألف من سطور عديدة، من كلمات عديدة، من حروف عديدة، وها هي تحقق لقارئها حالة من التفكير، والتأمل، والتسييح.

الم

الحرف الأول من الحرف الأول للفظ الجلالة، والحرف الأول من أبجدية لغة القرآن. والحرف الثاني هو الحرف الثاني من لفظ الجلالة، وهو الحرف الثالث والعشرين من أبجدية لغة القرآن. يليه الحرف الثالث، الذي هو الحرف الأول من اسم حامل رسالة القرآن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ويقع في مرتبة الرابع والعشرين بعد حرف اللام.

سيكون أمامك أن تتحرر من القراءة المغلقة للقرآن، فتغتني قراءاتك بانفتاحها على كل الأفق، وحينها ستدرك بأن ذلك لا يتحقق من تلقاء ذاته، بل عليك أن تبذل مشقة وجهداً لبلوغ سطوع هذه القراءات النورانية، التي سوف تستنير بها جميع حواسك، وتترك بها كل ذرة من ذراتك، وسوف يكون بإمكانك حينئذ أن تستخرج

نفائس اللآلئ القرآنية من ثنايا لمعات الحروف، وحينها تدرك أن قراءتك اغتنت بما لم تغتن بها قراءة ذاك المتسرع في قراءته، الذي ربما لم ينتبه إلى آية (السم)، أو لعله لم يدرك بأنها آية قائمة، وقد مرّ بها مروراً عابراً، دون أن يتوقف حيناً لتأملها وتدبرها.

إن ذلك من شأنه أن يجعلك تنظر في اسم السورة الأولى، بعد سورة الفاتحة، وقد حملت اسم حيوان من خلق الله، فالبقرة من حيوانات الله الأكثر نفعاً وغنى وهدوءاً، وقد حضرت بقوة في هذه السورة، حتى أكرمها الله بأن غدت حاملتها.

حينها تمدّ بصرك بخشية إلى الآية الثانية: (ذَلِكَ الْكِتَابُ)، القرآن الذي أنت تقرأه. (لَا رَيْبَ فِيهِ). لا شائبة ولا أخطاء ولا نقص فيه. (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) ٢.

ها هي الدعوة المفعمة بنور التشويق لقراءة هذا الكتاب، الذي يتسم بالصفاء، وأنه لا تشوبه شائبة، وهو هدى لمن اتقى.

عليك أن تكون على تقوى في حياتك، حتى تنال نصيبك من الهدى القرآني، وحتى ينثر القرآن هديه على تقواك، فتورق بنور الهدى، وذلك يعني أن التقوى تلبث ناقصة دون هدى القرآن، وتكتمل التقوى بمنازة الهدى القرآني. حينها يمكنك أن تفعل طاقة التقوى في سلوكك اليومي، فتكون تقياً مع نفسك، ثم مع عيالك، ثم مع أقربائك، ثم مع سواد الناس.

الطيب هنا يتناغم ويتفاعل ويزدهر طيباً في حضرة الطيب، مثل أن الخبيث يتناغم ويتفاعل ويزدهر خبثاً في حضرة الخبيث.

قال عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" لكعب الأحبار: حدثني عن التقوى. فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟
قال: نعم.

قال: فما عملت فيه؟

قال: حذرت وشمرت.

قال كعب: ذلك التقوى.

في تعريف المتقي يقول (شهر بن حوشب): المتقي، الذي يترك ما لا بأس به، حذراً لما به بأس.

ويرى عمر بن عبد العزيز: التقوى، ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير. ويعرفها ابن عمر بقوله: التقوى أن لا ترى نفسك خيراً من أحد.

والتقوى في مفهوم الواقدي: أن تزين سرّك للحق، كما زينت ظاهره للخلق.

وفي تفسيره يرى الرازي: نبه أولاً على أنه الكلام المحتدى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدي، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الرب، فكان شهادة بكماله، ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله^{٣٦}.

تبين الآية حاجة هذه التقوى إلى قبسات من أنوار القرآن، كي تبين وتفصح عن ذاتها.

^{٣٦} تفسير الرازي ٢/٢٥.

إن ذلك يخبرك بأن التقوى ليس بوسعها أن تكون في غنى عن الهدى القرآني.

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ): المتقون الذين يؤمنون بغيب الله،
(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) ٣.

هنا ترد صفات التكامل في شخصية الإنسان التقي، الذي من صفاته أنه يؤمن بالغيب، وأنه يقيم الصلاة، وينفق مما رزقه الله. ذلك أن الإنسان عندما يؤمن بالغيب، فإنه يمارس سلوك التقوى بشكل طبيعي، وليس بوسع أن يسلك سبلاً ملتوية، لأنه موقن بأن ذلك لا يخفى عن الله، كما أن الصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر، فيدرك بأن الله لا يحب الفاحش البذيء، ثم تقوده تقواه كي ينفق مما رزقه الله، في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وهو يوقن بأن الله رزقه هذا المال، ثم أكرمه كي ينفق من هذا المال في سبيله، لذلك فإنه يخفي ما أمكن شخصيته عند الإنفاق، ويقبل على الإنفاق سرّاً، حتى لا تعلم يمينه ما أنفقت شماله، ويكون ذلك حصانة له من أي مأرب دنيوي، ابتغاء أن يكون ذلك سرّاً بينه وبين ربه، وما ذلك إلا لإيمانه بغيب الله، وأنه يقبل على الإنفاق مرضاة لله وحده، ويحرص شديد الحرص ألا يعلم أحد بما ينفق سوى الله.

ثم يُضاف إلى ذلك: (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ): القرآن الكريم، (وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ): الرسائل الإلهية السابقة، (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) ٤.

هؤلاء الذين يؤمنون بأن القرآن من عند الله، أنزله على خاتم النبيين، وهو تكملة وخاتمة لما أنزل الله من قبل، ثم يتكلم الإيمان بيقينهم بالآخرة.

عندما يبلغ الإنسان هذه المزايا في شخصيته، وفي منهج تفكيره، وفي سلوكه، يكون على هدى من ربه، ويبلغ مرتبة الفلاح، فتبين الآية: (وَأُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ)، هداهم الله تعالى بهدائته، (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ٥.

على نقيض الذي لا يتمتع بهذه المزايا، ولا تكون لديه أرضية التقوى كي تزدهر بالهدى، وذلك هو الكافر الذي يأبى الإيمان، وبالتالي لا يكون خاضعاً للهدى القرآني، فتقول الآية: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)، كفروا بالله وبرسله وظلموا أنفسهم، (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) ٦.

الكفر بالنسبة لهؤلاء عملية منهجة، فقد اتخذوا من الكفر منهاجاً أساساً لحياتهم، وثبتوا فيه، حتى باتوا في حال يرفضون فيها أي حوار من شأنه أن يخفف من الكفر المترسخ في ذواتهم، أو يتزحزحوا عنه قيد أنملة، مثل السارق الذي اتخذ من السرقة منهاجاً لمعيشته، فإنه لا يشعر بالظفر، إلا إذا سطا على شيء، ولا يشعر بمتعة قبض الأجر لقاء جهد، بل يستشعر بها وهو يمدّ يد السرقة، كمثّل الذي اتخذ من الزنا منهاجاً لحياته، فهو يلبث زانياً مهما تزوّج، ومهما أنجب من بنين وحفدة، ذلك أن به نظرة الزنا، وهو ينتهج منهج الزنا من خلال أي امرأة يلتقيها. إن كل امرأة بالنسبة إليه هي امرأة يمكن لها أن تخضع

للزنا، وما ذلك إلا لأنه ينطلق من نفس موبوءة بلوثة الزنى. ويأتي ذلك على سلوكيات شائنة متعددة، مثل: الرياء، والنميمة، والوشاية، والفتنة، والنفاق. إنها علامات من علامات الكفر، وهي تنويج طبيعي لمنهج الكفر، كما أن تلك الخصال الحميدة هي تنويج طبيعي للتقوى المكلفة بالمهدى.

سيكون بوسعك هنا أن تتأمل بديع التناسق والتماسك والتكامل في هذه الآيات، ومدى ترابطها مع بعضها البعض، وهذا من شأنه أن يفكك بنية شخصية الكافر، ويقدمها إليك.

إنه لا يؤمن بما أنزل على النبي، وما أنزل من قبله، وهذا يقوده إلى عدم يقينه بالآخرة. إنها منطلقات ثابتة ينطلق منها لممارسة سلوك الكفر، وهو بذلك لا يكون على هدى من ربه، ولا تصيبه مكرمات فلاح ربه، فقد:

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ٧.

وبذلك فقد استحقوا عذاباً عظيماً، جراء كل ذلك التاريخ المقيت الذي خلّفوه، وقد ألقوا الأذى والظلم بأنفسهم، وبمن تمكنوا منهم، لقد مارسوا الشر والعدوان على الناس، وكما في الحديث الشريف: "شرّ الناس من يتقي الناس شرهم".

إنه العذاب العظيم الذي هو تحصيل حاصل، وهنا تتيح لك هذه الآية الكريمة كي تتأمل ما يعانيه الكافر، الذي يمضي وفق منهجه الكفري، وما يجنيه المؤمن في منهجه الإيماني. سنتنظر إلى شخصين

نقيضين:

أمين، عفيف، صادق، طيب، نقي، جواد، وفي، تقى، مؤتمن، شاكراً، يقف بنورانية هيأته إزاء شخص: خائن، زان، كاذب، خبيث، منافق، لص، واش، مغتاب، تمام، جاحد.

تتأمل علامات النقيض بينهما، كل شيء فيهما يختلف عن الآخر، حتى الصوت الذي يتحدث به الأول، فإنه يختلف عن صوت الثاني، حتى النظرات التي ينظرها، فإنها تختلف عن نظرات الثاني، كذلك الثياب التي يرتديانها، حيث تختلف هيئة ثياب الأول عن الثاني، وينسجم كل ثوب مع تركيبة صاحبه، حتى النعل الذي يرتديه كل واحد، فإنه يكون على ذلك.

ويأتي ذلك إلى تركيبة الأعضاء، وملامح الوجه، التقييم الاجتماعي، المنزلة في الناس، الأعمال.

هكذا، فإن الذي لا دين له، حتى أسنانه تخذله، لأنه يهرس بها طعاماً حراماً، حتى لسانه يخذله، لأنه يجري عليه الرياء، كل عضو يسبب له ألماً واضطراباً، جزاءً له، حتى وجهه المنطفئ فيه نور الإنسان.

إنه كائن فريسة لأعضائه، لوساوس نفسه، لزوجه، لولده، لعزله، لنظرات الناس المزدرية إليه.

إنه يمضي في جنبات الحياة، وبه ألم عظيم، حتى يخرج من الحياة خروجاً مخزياً، مخلفاً سيرة مشينة، ذلك أنه باء بغضب من الله، فختم على قلبه، وعلى سمعه، وجعل على بصره غشاوة.

تستمر السورة في منهجها التكاملي التوافقي، فتأتي إلى الفئة المزدوجة الفصامية، التي تقول بشيء، وتكون على نقيضه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ٨. تعاني هذه الفئة كذلك أوبئة تلك الآفات، وما ذلك إلا لأن المرء لا يقف على موقف ثابت في شأنه، ويلبث في حالة شتات ذهني وعضوي ونفسي، تؤدي به إلى إهتزازات نفسية مفرعة، تكون له بمثابة عقاب النفس لصاحبها.

وفق هذا التسلسل التشويقي، والاكتشافي، والمعرفي، تستأنف الآية التالية:

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ) يُخَادِعُونَ، وليس يخدعون، لأن الذي يُخدع هو خلاف الذي يخدع، كما أن الذي يتوقف هو غير الذي يقف. فعندما تُخدع، لا يكون الآخر مخدوعاً بك، لأنك غير متمكن من خداعه، بيد أنك تتمكن من ذلك عندما تُخدع، فيكون الآخر مخدوعاً بك. ولذلك تبين الآية بأنهم لا يتمكنون من خداع الله، (وَالَّذِينَ آمَنُوا)، وكذلك لا يتمكنون من خداع الذين آمنوا، وهم أقل من أن يتمكنوا من ذلك، والله أكبر من أن يُخدع بهم، وكذلك فإن الله يقفي المؤمنين حتى لا يكونوا ضحايا خداع هؤلاء، فيأتي خداع هؤلاء على أنفسهم فقط، دون أن يشعروا، دون أن يشعروا بأنهم غير مؤهلين، وغير متمكنين، من خداع الله، وأنهم غير مؤهلين، وغير متمكنين، من خداع الذين آمنوا، ثم أنهم لا يخدعون سوى أنفسهم فحسب. وحيث أن الخداع يبلغ مراده هنا في نفس المخادع، فتقول الآية:

(وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) ٩، ولم تقل: وما يُخادعون إلا أنفسهم. ذلك أن هؤلاء يَكُونُونَ غُلًّا في قلوبهم التي بها مرض، فهم ليسوا أسوياء، وبالتالي لا ينتهجون منهجاً سويًا. إنهم مرضى الغل، والنفاق، والخذية، وما داموا يرسخون هذه السلوكيات في نفوسهم، ولا يسعون إلى إصلاح ذات بينهم، فيبلغون عذاباً عظيماً جزاء ما أقدموا عليه.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ١٠.

هنا يمكن استنتاج بأن الناس هم الذين يسبون لأنفسهم الأمراض النفسية التي يكونون ضحيتها، ويعانون أهوالها بوتائر حادة تنتهي بهم إلى نهايات قائمة مفرعة. وعلى الأغلب، فإن الذين يركنون إلى ضوابط إنسانية وأخلاقية ودينية، يعيشون حالة سكينه وطمأنينة. فكما أن الناس هم الذين ينجحون إلى أسباب الأوبئة الروحية، فإنهم كذلك ينجحون إلى أسباب العافية.

وكما أن الفريق الأول يثبت على منهجه، فإن الفريق الثاني يلبث ثابتاً على منهجه، وكما أن الفريق الأول يجني ثمار شجرة منهجه، فإن الفريق الثاني يُشاك بأشواك شجرة منهجه. ولننظر إليهم:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ)، حيث يسعون إلى إفساد الناس، بناء على ما في قلوبهم من مرض، والمرض هو نزعة الشر، والميل إلى نشر رقعة الشر والفساد في الناس: (قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) ﴿١١﴾، يقول الله: (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا

يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ . (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ
كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا
لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ
إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) ﴿١٤﴾ .

وقد نزلت هذه الآية في (عبد الله بن أبي)، وأصحابه، كما يقول
(الكلبي) عن (أبي صالح) عن (ابن عباس) عندما رأوا ذات يوم بعض
أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم، فقال (عبد الله بن أبي): انظروا
كيف أورد هؤلاء السفهاء عنكم، فذهب فأخذ بيد (أبي بكر)، فقال:
مرحباً بالصديق، سيد بني تميم، وشيخ الإسلام، وثاني رسول الله في
الغار، الباذل نفسه وماله. ثم أخذ بيد (عمر)، فقال: مرحباً بسيد بني
عدي بن كعب، الفاروق، القوي في دين الله، الباذل نفسه وماله
لرسول الله. ثم أخذ بيد (علي)، فقال: مرحباً بابن عم رسول الله،
وختنه، سيد بني هاشم، ما خلا رسول الله.

ثم افترقوا، فقال (عبد الله) لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت، فإذا
رأيتموهم فافعلوا كما فعلت، فأتوا عليه خيراً، فرجع المسلمون إلى
رسول الله صلى عليه وسلم، وأخبروه بذلك، فأنزل الله هذه الآية.
يبين الله بأن هؤلاء لا يقدمون الأذى إلا لأنفسهم، لكن دون أن
يشعروا، وما ذلك إلا لأنهم أبوا أن يستشعروا أفق ذلك، فعندما
يعترف الإنسان بمرضه، ويجنح إلى نور الهدى، وإلى العلاج، وتغيير ما
بالنفس من وباء، فإن الله يكون له معيناً، ويجعل له أسباباً ميسرة شطر
ذلك.

إن هؤلاء لا يكتفون بما هم فيه، ويركنون إلى الصمت، بل يتجاوزون ذلك إلى الاستهزاء بأهل الاستقامة، الذين هداهم الله الصراط المستقيم، وبالتالي يسعون للنيل من فضائل تقواهم، وما ذلك إلا لشعورهم بأن هؤلاء باتوا أعداء لهم، فقط لأنهم لا يشاركونهم سلوكيات الإفساد في العباد، وقد بلغوا من العناد ما بلغوا دون أن يترددوا. تأتي الآية التالية مبيّنة: (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) ١٥.

يستهزئ بهم الله، ويزيدهم تيهًا وتشتتًا في طغيانهم: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى). يتأكد لك بشيء من البيّنة بأن الإنسان يقبل على شراء الخير، كما يقبل على شراء الشر، فقد (اشترؤا)، وبالتالي دفعوا ثمن ما شروا، وكان الثمن هو الهدى الذي خسروه، وكان يمكنهم ألا يشتروا، وألا يخسروا، ولقاء ذلك يمكنك أن تستنتج بأن الفريق الأول كذلك اشترى الهدى بالضلالة، فدفع بالتي هي أحسن وأقوم، فغدا مهتديًا.

هنا تراك أمام جملة من التجار، فيلبث المرء منافقًا، حتى يتحول إلى تاجر للنفاق، ويلبث يكذب، حتى يتحول إلى تاجر للكذب، ويلبث يزني، حتى يتحول إلى تاجر للزنى، ذلك أن هذه السلوكيات تترسخ في نفوسهم:

(فَمَا رِيحَتْ تُجَارُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) ١٦، ذلك أن الذي يخسر الهدى ليس بوسعه أن يربح شيئًا، كونه قد خسّر كل شيء، وبالتالي لا شيء بمقدوره أن يحفف عنه من وطأة الخسارة، وحتى

ترسخ الحقيقة في نفسك، فإن الله يضرب بذلك المثل، فيقول: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ١٧.

إن الله لا يهدي نوره للظالمين، فهم في ظلمات أنفسهم، وظلمات حقيقة الحياة، لا يتمكنون من الاستمتاع بمزايا الإنسان الطبيعي، المعافي، الذي يبصر ما حوله، كما أنه يبصر نفسه، وهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ١٨.

الذي يكون في ظلمات لن يكون بمقدوره أن يبصر نفسه، ولا أن يبصر ما حوله، في حين أن الذي يكون في نور الله عز وجل، يتمكن من رؤية نفسه، فيكون على علم ودراية بموقعه، ومكانته، ومنزلته في المجتمع، الذي يعيش فيه.

(أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حُدُورَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ) ﴿١٩﴾
يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأُوهُ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

مثلهم كمثل أناس أصابهم مطر كثيف، نتيجة غيوم داكنة، تحمل إليهم عوامل الفزع“ من ظلمات، ورعد، وبرق، فيقعون في شتات من أمرهم.

ثم يبين الله سبيل النجاة من هذا الشتات:
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ .

كيف يصيبك هدي القرآن كي لا تكون من أولئك في تيه من أمرك، وفرع مستمر في مقومات حياتك، واضطراب في جل أوقاتك؟ أن تكون تقياً، هذه التقوى التي تتحقق من خلال عبادة الله. حينها تكون الأرض لك فراشاً، والسماء بناء، والمطر رزقاً، فتستمتع بجمال الحياة، وأنت تسبح بحمد ربك، وبالعودة إلى هذه الآيات الكريمات، يكون بإمكانك أن تجعل مقارنة بين حالك، وحال من لا يؤمن بالله.

ثم تردف قراءة كتاب ربك، قراءات تدبّرية تأملية تفكرية عقلية: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ لِهَذَا وَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ .

هذا هو البيان الإلهي، الذي يقدم لك عوامل ومقومات اليقين، عن قناعة وإيمان، ذلك أن لا أحد بمقدوره أن يأتي بسورة من مثل الذكر الحكيم.

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالَُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾.

قال ابن عباس في رواية أبي صالح: لما ضرب الله سبحانه هذين المثلين للمنافقين، يعني قوله: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا)، وقوله: (أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ)، قالوا: الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثال. فأنزل الله هذه الآية.

ضحكت اليهود، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله. فأنزل الله هذه الآية.

إنها أمثال يضربها الله للناس، وهي أمثال تفسح أمام الإنسان أفقاً، كي يتحاور مع ذاته، كونها تقدم أسباب هذا التحاور. وكما ترى سمات الإنسان التقي في هذه الآيات، فإنك ترى سمات الإنسان الفاسق. ثم يقول الله:

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ﴿٢٨﴾ وَالَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾.

هنا يعيد الله الإنسان إلى سيرته، ويبين له منزلته، وما دار بينه وبين

الملائكة: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً).
 إنه يخبرهم بأمره الذي أقره، وأول ما يصف به الله هذا الخلق، بأنه
 سيكون خليفته على الأرض، أي أنه يتولى ملكية وإدارة وإعمار
 الأرض، في حياة جديدة، لم تكن موجودة من قبل، هذه الحياة التي
 سيشكلها هذا الخليفة.

بعد سماعهم هذا النبأ من ربهم: (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا
 وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ).

إن كلمة (أَتَجْعَلُ) هي من باب السؤال، وليس من باب
 الاعتراض، وهذا السؤال انبثق من إخبار الله لهم بما سيقدم عليه
 الإنسان بعد خلقه، ذلك أن الخلق جميعاً ليس بوسعهم أن يعلموا شيئاً
 لا يعلمه الله، بل أن كل ما يعلموه هو بمشيئة الله، الذي يعلمهم من
 علمه. ولذلك، فإن سؤال الملائكة ليس منبثقاً من تكهن، أو من علم
 بالغيب دون مشيئة الله، بل ليخبرهم الله المزيد عن هذه الخليفة
 الجديدة، التي تبدو منذ البدء بأنها تحظى بعناية إلهية خاصة.

لذلك يجيب الله على سؤالهم: (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ٣٠.
 ويلتزم الملائكة بهذه الإجابة. وهذه إشارة أخرى بأنهم لم يقفوا موقف
 اعتراض من خلال قولهم. فيرد في الآية التالية: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ
 كُلَّهَا)، هذه ميزة أخرى لهذا الإنسان، بأن علمه الله علماً لا تعلمه
 الملائكة: (ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ٣١. هنا يظهر مرة أخرى بأن الملائكة لا يعلمون ما
 يعلمه الإنسان. وإن كان سيفسد في الأرض، ويسفك الدماء، كذلك

سيأتي من نسل هذا الإنسان من يقومون بالإصلاح، ويحملون رسالات الله:

(قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) ٣٢. هذا قبول بمشيئة الله، عندئذ: (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ)، هذه هي أيضاً ميزة للإنسان، حيث علمه الله، وهذا الإنسان علم الملائكة، إذ أصبح وسيطاً بين الله والملائكة، ليخبرهم بما لا يعلمون. هنا يجلو بأن الإنسان كائن يتعلم، وما دام يتعلم، فإنه سيتعلم من أخطائه، وكذلك سيرتقي في درجات الفضيلة والمعرفة. (فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) ٣٣.

الآن انتهت هذه المرحلة، وتقبل المراحل الأخرى، حيث يبقى الإنسان يحظى بعناية الله، فيأمر ملائكته بأن يسجدوا لهذا الإنسان: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) ٣٤.

السجود هنا ليس كسجود عبادة الإنسان لله عز وجل، عندما يسجد ويضع جبهته على الأرض خشوعاً بين يدي ربه، بل هو سجود تحية وتقدير، ولا أحد يستحق أن يسجد له سجود العبادة سوى الله تعالى. وفي ذلك يقول النبي "صلى الله عليه وسلم": "لو كنتُ امرأةً أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها" ٣٧.

هنا أيضاً يبدو اعتراض إبليس واضحاً، كذلك تظهر معاداته

٣٧ رواه الترمذي وقال حسن صحيح، كما ورد في الترغيب والترهيب ٣ / ٥٦.

للإنسان، وهو ليس من الملائكة، كما يقول الله في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ الكهف/٥٠.

كما أن ذلك يظهر من كبريائه، عندما يجيب على سؤال الله، في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ الأعراف/١٢.

تقول عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم": "خلقت الملائكة من نور، وخلق الجن من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصف لكم" ٣٨.

إن الشيطان هنا أراد أن يتدخل في مشيئة الله، وهو معترض على هذه المشيئة في خلق الإنسان، ولذلك فإنه يرفض الترحيب به، وكأنه يريد أن يضع حدوداً لله، وهذه نتيجة طبيعية للكبرياء. ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم، إنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر.

رأى الشيطان هنا أن الإنسان تسبب في لعنة الله عليه، وجعله من الكافرين، بعد أن كان من المقربين، ولذلك لا يكتفي بهذا، فيتدخل في شؤون الإنسان، في مسعى انتقامي لإفساد العلاقة بينه وبين الله. وهو ليس بوسعه أن يقدم على ذلك دون مشيئة الله.

تستأنف الآية التالية قول الله سبحانه وتعالى: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ

٣٨ صحيح مسلم، كتاب الزهد، ٢٩٩٦.

سِئْتُمْ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) ٣٥.

هنا تبدأ خطوات الانتقام الأولى، التي تبدر من الشيطان في التنفيذ، فيستغل هذا النهي عن هذه الشجرة، ليعمل عليه، كي يحدث خللاً بين الإنسان وربه. تبين الآية التالية:

(فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ).

في هذا الحدث يتعلم الإنسان حجم مسؤوليته تجاه حياته، ويكتشف حجم معاداة الشيطان له، فكما أنه تسبب في هذه اللعنة الإلهية على الشيطان، فهذا هو الشيطان يتسبب في خروجه من الجنة:

(وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ

إِلَى حِينٍ) ٣٦.

إنك وأنت تقرأ هذه الآيات، تبلغ اليقين بأنك أمام كتاب ربك، الذي يجبرك كل هذه المجريات، وبالتالي تزداد يقيناً بأنه كتاب من عند ربك، وليس بوسع أحد أن يأتي بسورة من مثله.

إن خطيئة الإنسان الأول الذي خلقه الله، تبين بأن الإنسان يقبل على الخطأ، يقبل على الذنب، بيد أن الله يغفر في علاقة تكاملية بين العبد المذنب، وبين ربه الغفور، ولكن في كل الأحوال، فليس بوسع أحد أن يستغني عن القرآن، ذلك أنه هدى للإنسان، وليس للإنسان من هدى دونه.

وهنا تدرك مدى حاجة الإنسان إلى ربه، كي يعلمه، ويهديه الصراط المستقيم. فإن آدم عليه السلام لم يكن ليهتدي، لولا أن هداه الله، عندما تلقى كلمات ربه.

ثمة حديث للنبي يقول: "إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات، استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه. ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب" ^{٣٩}.

حيث أن الإنسان كائن قابل للتعلم، فهو يخطئ، وعندما يندم ويسأل ربه التوبة، يتوب الله عليه. إنه يتعلم من أخطائه، مادام ينطلق من قاعدة الإيمان بالله، وقد بيّن الحديث النبوي الشريف أن كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.

المؤمن يخطئ، بيد أنه يسارع إلى التوبة، ويطلب من ربه المغفرة.
(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)
﴿٣٧﴾

بعد هذا الاكتشاف بحجم عداوة الشيطان، يعبر الإنسان لله عن ندمه، ويطلب العفو منه، ولا ينجح الشيطان بأن يجعل هذا الإنسان يقتدي به في العصيان:

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً): خروج من الجنة كعقاب للإنسان، ثم إخبار بأن الله لن يتخلى عنه في الأرض، وهنا بإمكاننا أن نعود إلى الآية ٣٠ من هذه السورة، حيث قرأنا: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)، قال: (فِي الْأَرْضِ)، ولم يقل: إني جاعل في

^{٣٩} متفق عليه واللفظ لمسلم، كتاب المساقاة، ١٥٩٩.

السماء خليفة، وهذا بيان للإنسان بأن الله عالم الغيب والشهادة. لسوف يعتمد الإنسان على هداية الله، ويتخذ منها منهاجاً لمقومات حياته في الأرض: (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ٣٨. بقي أمام الإنسان أن يثبت لله، بأنه يقدر هذه المنزلة التي بوأه إياها الله، فبات يجد في إعمار الأرض.

إن تاريخ الإنسان يثبت بأنه كائن مقاوم، فقد استطاع أن يبني الأرض، ويقدم ما يستطيع في سبيل أن يجعل من الأرض مسكناً صالحاً له. ومن جانب آخر، فقد تأججت نزعة الشر لدى فئات كثيرة من الناس، وهذه الفئات، التي تمضي وفق ما يملي عليها الشيطان، تتبغى نشر الفساد والطغيان في الأرض والناس معاً، ذلك أن هؤلاء قد تحولوا إلى جنود للشيطان، الذي يجنّدهم لمقاومة العداوة والبغضاء في الناس، لكن أهل الخير لبثوا يعملون جاهدين وهم يبتكرون الأدوية، ويقدمون للإنسانية كل ما من شأنه أن يجعلها في تقدم وازدهار. فإذا نظرنا إلى الأسماء الطيبة في مسيرة الإنسان، نراها تفوق الأسماء الخبيثة في هذا التاريخ البشري. وإذا نظرنا إلى المنجزات الكبرى التي حققها الإنسان، سنراها أهم بكثير من الإخفاقات التي مُني بها. تبين الآية التالية:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ٣٩.

إن الهداية هنا هي للإنسان على مدار الزمن، وقد بلغت الإنسان

بتدرّج، عبر الأنبياء والرسل، حتى تكلمت واختتمها الله برسالة القرآن، التي هي آخر الرسالات السماوية، وحاملها "صلى الله عليه وسلم" هو آخر أنبياء ورسول الله إلى الناس.

إن هذه الآيات تبيّن لك منزلة عظمة الهدى الذي يكمن في القرآن، وما يظفر به الإنسان وهو يتبع هدى ربه.

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) القرآن الكريم ليس مقتصرًا على أمة محمد فحسب، بل هو لكل الأمم، ذلك أن الرسل يحملون رسالة رب العالمين، وهو دين واحد، دين الإسلام. (اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون) ﴿٤٠﴾. ثم يقول لهم الله: (وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ)، الاستمرار في الإيمان برسالة الإسلام، الذي دان به أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، واستمرت من خلال أنبياء الله ورسله: (وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُون) ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾.

يوجه الله أن يلبث الناس على رسالة الإسلام، ولا يتفرقوا.

قال ابن عباس في رواية الكلبي عن أبي صالح: نزلت في يهود أهل المدينة، كان الرجل منهم يقول لصهره، ولدوي قرابته، ولمن بينهم وبينه رضاع من المسلمين: أثبت على الدين الذي أنت عليه، وما يأمرك به وهذا الرجل، يعنون محمدًا صلى الله عليه وسلم، فإن أمره

حق، فكانوا يأمرون الناس بذلك، ولا يفعلونه، ولا يطبقونه على أنفسهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية. ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ٤٥ ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ٤٦.

إن القرآن الكريم هو ذاكرة الإنسان، ولذلك يرجع إليه الناس جميعاً، على اختلاف ألسنتهم وأقوامهم، فيتعرفون على تاريخهم، وكذلك يتعارف الناس من خلال هذا القرآن على بعضهم البعض، وعلى تاريخ بعضهم البعض:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾.

يتعرف القارئ هنا على سيرة بني إسرائيل، ومن خلال هذه السيرة يستطيع أن يتعرف على سمات المجتمع الإسرائيلي. يقول الله مخاطباً بني إسرائيل:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ

بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ
عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا
مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

إن ذكر مثل هذه الوقائع يعزز حالة التعارف بين الناس، فيكونوا
على دراية بتاريخ بعضهم البعض، ثم يقدم القرآن الكريم هؤلاء
لأنفسهم، كي يكونوا على معرفة بسيرة أجدادهم.

يقول الله تبارك وتعالى:

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن
طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾
وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا
الْبَابَ سِجْدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا
عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ
اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا
عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا
تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُّصْبِرَ عَلَىٰ
طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا
وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيَّهَا وَبَصَلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي
هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ
وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبِ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ

اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾.

إنك تتعرف هنا على منزلة عباد الله جميعاً عند ربهم، وأن الإيمان ليس حكراً على قوم دون غيرهم، وبإمكان أي إنسان أن يقدم على فعل الخير، كما يمكنه أن يقدم على فعل الشر. بإمكان أي إنسان، من أي ملة، أن يؤمن بالله، أو يشرك به، ذلك أن الناس جميعاً هم سواء عند الله، ولا أحد له ميزة على أحد، سوى بمقدار ما يكون تقياً، والتقوى ليست حكراً على أحد من أبناء آدم عليه السلام، بل هي للناس عامة.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾.

تري هنا كيف أن النبي يكون وسيطاً بين الله وعباده، وكيف أن الله يستجيب لأسئلتهم حتى يفقهوا الحق:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، نَتَأَمَّلُ هُنَا كَيْفَ يَكُونُ النَّبِيُّ وَسَيْطاً بَيْنَ اللَّهِ وَعِبَادِهِ مِنْ خِلَالِ الْحَوَارِ: قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا

هَزُورًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بُكْرٌ عَوَازٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ ثم نتأمل أهمية الحوار من خلال أسئلة وأجوبة، رغم قدرة الله تحقيق ذلك دون حوار: قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْثُهَا تَسُرُّ النَّاطِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذُلُورٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيبَةَ فِيهَا، يتيح لنا ذلك أهمية التحوار من خلال اللغة، هذا الحوار الذي يفضي إلى نتيجة بين المتحاورين: قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذِ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مِمَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ يبيِّن الله جل جلاله مقدرته على فعل ما يشاء، فعل ما لا يقدر عليه سواه: فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾.

إنها مقدره الله على فعل ما يشاء، وهنا يبيِّن الله للناس بأنه قادر على كل شيء.

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً، يظهر لك هنا أن القلوب تلين وتترطب بالإيمان، وأنتك تتوسم تيسيراً من أصحاب القلوب المفعمة بمنارة الإيمان، بيد أن القلوب الخالية من الإيمان تكون خلاف ذلك: وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لِمَا يَنْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لِمَا يَشَقُّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لِمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ

اللَّهِ ، لقد ذكرك الله بالخشية، ذلك أن الإيمان يعزز في القلب خشية الله، فينبثق من ذلك لين القلب ليكون الإنسان بعد ذلك شفوفاً، عفواً، ميسراً وهو يجني ثمار الإيمان كلما زاد خشية من ربه:

يبين الله كيف يمكن للإنسان أن يحمل قلباً أشد قسوة من الحجارة، فيكون قاسياً في سلوكه، وجل علاقاته، بنفسه، وبالناس:

(وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) ﴿٧٤﴾ أَقْتَطَمْعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ يريك الله بأن الإيمان في جميع الأحوال هو نفع لذات المؤمن، كما هو نفع للآخرين، وأن حاجة الإنسان إلى الدين هي حاجة أولى، لأنه يعجز أن يحقق إنسانيته، ويتمتع بمزايا هذه الإنسانية في معزل عن الدين:

بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ الإيمان لوحده، ومجرد الإيمان لا يغني الإنسان،

بل الإيمان الذي يتكامل بالعمل الصالح، ولا ينحصر العمل الصالح في عبادة، بل يشمل سائر العبادات من كلمة طيبة، وصدقة، وعفو، وصلة رحم، وعبادة مريض، وخلق حسن، والعبادات المكتوبة من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، هي دفع نحو تفعيل ما تتمتع به من مزايا إنسانية حتى تصبح كائناً اجتماعياً تعيش حالة أنك جزء من المجتمع، وأن المجتمع هو جزء منك، فتستأنف قول ربك مقرناً بالإيمان بالعمل الصالح: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾.

تصبح على بينة من أمرك هنا، فتدرك أن الإنسان كلما مارس سلوك الإيمان يصفو قلبه ويتجنب القسوة، ذلك أن السلوك الإيماني هو الدرجة المتقدمة من روح العلاقات الإنسانية، وقد ورد في الحديث الشريف: "تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض، وآخر أسود مريداً، كالكوز مجخياً، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه"^{٤٠}.

تدرك مع هذه الآيات، أن لا رأس إيمان عند الإنسان، سوى رأس إيمان العمل الصالح، وليس بوسعك أن ترتقي في درجات الإيمان، إلا إذا بلغت مراتب متقدمة من أعمال صالحة، جعلتها من مقومات الحياة لديك.

^{٤٠} رواه مسلم، كتاب الإيمان ١٤٤

ثم ترى كيف أن الله يوجه الإنسان، كي يمارس مزايا إنسانيته: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)، وأن يكون محسناً لوالديه، وهذا يكون له أيضاً عندما يصبح أباً، فيحسن له أبناؤه، تنفيذاً لأمر الله: (وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا)، وكذلك الأمر بالنسبة للعلاقات الإنسانية والاجتماعية عامة: (وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ) ٨٣.

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُواكُمْ أَسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفْتُؤِمِّنُونَ بَعْضَ الْكِتَابِ وَكُفِّرُونَ بَعْضَ مَا جَزَاءَ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾.

إن سورة البقرة هي سورة الماضي، والحاضر، والمستقبل، فهي - وإن كانت تتطرق للواقع اليومي في حياة المجتمع الإسلامي الجديد - فهني تعود بهم إلى صفحات الماضي الغابر، وتستشرف لهذا المجتمع آفاق المستقبل. إنك ترى وقائع حياة كاملة تتغلغل في ثنايا هذه الآيات، ولذلك فإن هذه السورة تذكر الإنسان بجذوره، وتروي له تفاصيل ما حدث، سواء مع الله وملائكته، أو بعد ذلك مع الإنسان.

يقول الله:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيُكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجَلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ .

تبقى السورة محافظة على سياقها، حيث هي شرح مفصل للنبي، الذي يحمل هذا الشرح للناس، فيقول له الله:

(قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ

أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضَخٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾.

إنها آيات بينات تبين للناس سبل الحق من الباطل، وبعد هذا البيان ليس بوسع الإنسان أن يكفر بهذا الحق، إلا إذا كان على فسق.

(وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ آيَاتٍ وَاضِحَاتٍ لا غموض فيها، وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ الذين يتجنبون ما في هذه الآيات من بينات أو كلما عاهدوا عهداً نبده فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ﴿١٠٠﴾ ولما جاءهم رسولٌ من عند الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خِلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾).

إن الله يريد للناس التكاثر، والتواد، وصلة الرحم، والتواصل في

العلاقات الإنسانية، ولذلك ذكر التفريق بين الزوجين، وفي ذلك هدم لبناء الأسرة الإنسانية.

عن جابر "رضي الله عنه"، أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم"، قال: "إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقتُ بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نعم أنت" ^{٤١}.

وقد وجه النبي إلى تجنب السحر، لأنه لا خير فيه، كونه عملاً يحمل نتيجة غير طبيعية، ولذلك فإن هذه النتيجة تحمل الأذى للناس. وقد عدّ السحر من الموبقات السبع، فعن أبي هريرة "رضي الله عنه"، أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قال: اجتنبوا السبع الموبقات. قيل: يا رسول الله، وما هنّ؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات. ^{٤٢}

إن الأسرة هي أساس المجتمع، والعلاقة الزوجية تبنع فروع القرابة بين الناس.

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾)

إظهار لنزعة الشر عند أهل الكفر، وأول شر لهم هو شرهم مع

^{٤١} صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين، ٢٨١٣.

^{٤٢} صحيح مسلم، كتاب الإيمان، ٨٩.

أنفسهم، فمن لم يكن شريراً مع نفسه، لن يكون بطاقته أن يكون شريراً مع الآخرين، ومن لم يكن خيراً مع نفسه، لن يكون بطاقته أن يكون خيراً مع الناس، ذلك أن الإنسان ليس بإمكانه إلا أن ينطلق من قاعدة نفسه.

إن الله يبين الهدى للذين آمنوا كي يزدادوا إيماناً، وبالتالي يزدادوا معرفة للحقيقة، وهم يقعدون على قاعدة الإيمان بالله:
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)).

ثم يبين العلاقة بين أهل الخير وأهل الشر، وهنا للإنسان أن يستوعب طبيعة نزعة أهل الشر، التي هي نقيض لطبيعة أهل الخير، وهذا بذاته يجعل المؤمن أكثر نضجاً في تعامله مع تلك الفئة.

هذا من شأنه أن يظهر أهمية الصراع، الذي يخوض الإنسان غماره، في سبيل أن ينتصر على كل أشكال الشر والعدوان، وغرائز العدوانية، والدونية، التي تتسرب إليه، وتسعى إلى شيء من الترسخ في نفسه. هذا هو حال الإنسان الحذر المقاوم، أمام حال الإنسان العبثي الإنهزامي، الذي ينقاد وفق هوى نفسه. إنه الشكل الأنصع من أشكال جهاد النفس، من أجل أن يلبث محافظاً على سمو نفسه، وفضيلة الخلق الحسن، منتهجاً في حياته منهج سلوك الإنسان، هذا الإنسان الذي تفوح منه رائحة المسك الإنساني، يرتقي في مدارج

السلوك الإنساني، حتى يكون جديراً بأن يكون خليفة الله في الأرض.

(مَا نُنسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا): ذلك أن القرآن الكريم متكامل، ومتوافق مع بعضه البعض، ولذلك ليس بوسع الإنسان أن يأخذ العلم منه، إن لم يقرأه ويفقهه كاملاً. (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)).

إنها الدعوة المتجددة إلى النزوع شطر العفو والصفح، إذ ليس بوسع الإنسان أن يستمر في الحياة، بشكل جيد، إن لم يستند في علاقاته مع الآخرين بالعفو والصفح. وليس هذا فحسب - بل إن لم يستند على ذلك حتى مع نفسه، أو مع عياله - ذلك أن ثمرة العفو هي أكثر نضجاً من ثمرة الغلو والعقاب. وإذا نظرنا إلى مسيرة الإسلام، نرى بأن عفو الله يقف في المنزلة الأولى في إسلام الناس، وفي ممارسة السلوك الإسلامي لدى المسلمين.

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى): يبين الله أن

الجنة لا تكون حكراً على قوم دون غيرهم، بقوله: (تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ١١١. وحيث أنه لا يوجد برهان على قولهم، يقول تبارك وتعالى: (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (١١٢) يحضك هذا إلى أبواب الإحسان، فليس بوسعك أن تسلم وجهك لله دون أن تفعل سلوك الإحسان في ذاتك، فيصيب إحسانك الإنسان، والطير، والشجر، والجماد، وقبل ذلك تكون نفسك قد نفعت به: وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا ذَلِكَ أَنْ الْمَسَاجِدَ هِيَ بِيوتِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، يجتمع الناس فيها للخير، فيكونون كعائلة واحدة، ورواد المسجد يتعارفون على بعضهم البعض، ويزدادون محبة لبعضهم البعض، ذلك أن المساجد يُذكر فيها اسم الله، وذكر الله يفضي إلى تنمية مشاعر التعاضد الإنساني في الناس: أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ
(١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ
الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ
مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي
جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠).

الإيمان هو حالة متقدمة من حالات صفاء النفس، هذا الإيمان المترسخ، الذي يبلغ المؤمن به درجة اليقين، إنه يعبد الله حتى يبلغ اليقين، وهذا يشير أن الإيمان يؤدي بصاحبه إلى اليقين، واليقين هو حالة السكينة الإنسانية الطبيعية، هذه الحالة التي يصارع الكثيرون من أجل بلوغها. فترى حاكما يستعد أن يهلك النسل والأرض، فقط ليبقى متشبثاً بكرسيه، وليس الكرسي بذاته هو الهدف، بل هو المسعى إلى اكتساب حالة السكينة، وهو قاعد على الكرسي، ولذلك نرى أن النيران تشتعل تحت هذا الكرسي، وتزداد اشتعالاً، كلما طغى هذا الحاكم، وتسبب في إلحاق الويل بالبلاد والعباد. وعلى مدار التاريخ، نرى بأن هذا الكرسي في النهاية يؤدي إلى حرق الجالس عليه، فهي سنة الله السارية في عباده. وقد سرى ذلك إلى عصرنا الحديث، حيث عاقب الكرسي صاحبه، كما كان يعاقب وهو جالس عليه، وكذلك أحسن هذا الكرسي إلى صاحبه، كما كان يحسن وهو جالس عليه. هذا من شأنه أن يأتي على سائر أشكال الكراسي، من كرسي المنزل الذي يقعد عليه رب البيت، إلى كرسي الدائرة التي يقعد عليه مديرها، وما إلى ذلك من مقاييس ومستويات.

تبيّن هذه الآيات، بأن الذي ينتهج منهج الحق، يلقي في دربه معوقات تريد أن تحول بينه وبين الحق الذي يمضي فيه، وكلما كانت المعوقات شديدة عليه، عمل على مواجهتها وعلاجها بالحكمة، وهو منطلق من قاعدة إيمانه، موقناً بأنه يمضي في سبيل الخير.

يأتي ذكر (إبراهيم عليه السلام) في الآيات التالية، حتى تنظر إلى أبي الأنبياء، وما واجه في حياته اليومية، وهو يزداد ثباتاً على الإيمان، ويزداد يقيناً بما هو عليه من حق:

الَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْكِتَابَ يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣).

لقد جعله الله تعالى - بفضله - إماماً للناس كافة، وهنا ترى بأن العمل الصالح وحده يجعل الإنسان يتبوأ المنزلة الطيبة، وكذلك الصبر على الشدائد، والتزود بالتقوى. ترى هنا بأن الإنسان يريد هذا الخير لذريته، بيد أن ذلك لا يتحقق للإنسان من خلال حسبه ونسبه، بل يتحقق له بعمله الصالح: (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا). إنه يتذكر بذات الوقت ذريته، ويسعى لهم إلى الصلاح، لذلك يسأل ربه: (قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي). يجيبه الله تعالى: قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤).

إن الذي يلحق الظلم بنفسه، لا يكون قابلاً كي يتولى مسؤولية

الإمامة في الناس، كون الذي يفتقد إلى مزية لنفسه، ليس بوسعه أن يهبها لغيره، ذلك أن ملكيته لهذه المزية غير محققة.

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨). رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩).

ثم هنا يبين الله جلّ شأنه منزلة إبراهيم عليه السلام: (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) ١٣٠.

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ

قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥). قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) .

إن تلك الأحداث تكون بمثابة دروس للناس كافة، على مختلف الأحقاب البشرية، ومختلف البقع الجغرافية، وهي مواقف من شأنها أن تنير لهم الدروب. يقول الله:

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) . سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) .

يبين الله هنا خصائص أمة الإسلام الجديدة، التي حمل رسالتها نبي

الأمة، وخاتم أنبياء الله ورسوله، وقد اتخذت موقع الوسطية، وبذلك اختلفت الأحكام بناء على هذه الوسطية. ولذلك تتوسع السورة في شرح مستفيض في الأحكام، بالنسبة للمنهج الذي تمضي عليه هذه الأمة.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَعُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَتِّينَ (١٤٧) وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لَقَدْ

يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
وَإِخْشَوْنِي وَلَآتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠).

يخبر الله نبيه بأنه يتم نعمته على هذه الأمة بهذه الرسالة الخاتمة،
التي يكمل بها الله تعالى الدين. ويأتي الخطاب للناس بقوله تعالى: (كَمَا
أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) (١٥١).

إنه يأتي الناس بعلم جديد لم يكن لهم عهد به، هنا يتعرف الإنسان
من خلال القرآن على ما ليس بوسعه أن يتعرف في أي كتاب آخر،
حيث يحمل القرآن الجديد الذي لم يعرفه أحد من قبل. ثم يقول الله
تعالى: فَادْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)
وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ
(١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ
وَالْأَنْفُسِ وَالْثَمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ
مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ
مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ
مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ
بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ
مَّا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ
يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا
فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ
(١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
(١٦٢).

يتعلم الإنسان من قراءة هذه الآيات، كيف يعيش حالة من الاعتدال والتوازن، كيف يبلغ مراتب متقدمة من السمو الإنساني. إنه يتعلم كيف يصبر على كل ابتلاء، يستمد سلوك الصبر من ثنانيا هذه المنارات الإلهية، فهو يعيش روح حالة العلاقة بينه وبين ربه، يتفقه في هذه العلاقة. إن الله يقدم له كل ما هو نفع له، ويعلمه من خلال الخبرات والتجارب، لأن الجمود في موضع واحد ليس بوسعه أن يقدم للإنسان شيئاً مجدياً. إنه هنا يخوض غمار الحياة، وكل يوم تشرق نفسه على معارف جديدة لم يكن يفقهها من قبل.

على هذا النحو ينتشى هذا القارئ، المتدبر في قراءته لآيات هذه السورة الأولى بعد الفاتحة، وهو يقرأ القرآن. إنها تعلمه كيف يعيش حياته، ويكون فعّالاً ومنتجاً في هذه الحياة، ولا يمضي حياته على الهامش.

إن كل ذلك صادر من الله رب العالمين، الذي هو واحد لا شريك له، فيقول الله:

وَالْهَكُّمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣).

كذلك يخبر الله عباده:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ

فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَكَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ
وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤).
إن الإنسان هنا يقرأ كذلك آيات الطبيعة، التي تظهر مقدره الله عز
وجل، فهو ينظر إلى مقومات الحياة من حوله، ويسبح الله القادر على
كل شيء. ثم تقرأ:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ
الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا
مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ
الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ
اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) يَا
أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا
بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا
يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا
دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١).

إن الله يوجه إلى التمتع بما أحل من الطيبات، وقد أحل الطيبات
للمؤمنين، ولم يحجبها، أو يحرمهم منها، ولذلك على المؤمن أن يشكر
الله، الذي جعل هذا الطيب، ثم أحله، ثم رزق هذا الإنسان به، ثم
رزقه طاقة كي يستمتع بهذا الطيب:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ
كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢). نظير دعوة الله أن يأكل الناس الطيبات مما
رزقهم، فإنه يخبرهم: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا
أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ
وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا
يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَئِكَ
الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى
النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي
الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦). يبين الله بأن الإسلام هو تفاعل مع
سائر مقومات الحياة، وهنا يقول الله: لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى
الزَّكَاةَ وَالْمُؤْفُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ
وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ
بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ
وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ
ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ

خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)
 فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
 عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ
 عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢).

تأتي هنا إلى بيان لشهر رمضان الكريم، فيعرفك الله على دلالات
 ومزايا هذا الشهر الفضيل. في البدء تدرك أن الصوم هو لكل إنسان
 مؤمن، وهو سبيل إلى التقوى، ولكل أمة مؤمنة مواقيت صيامها، وقد
 تميز شهر رمضان بأنه شهر صوم في الإسلام، إنها عبادة مكتوبة على
 سائر المؤمنين.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، خطاب من الله إلى الذين آمنوا بالله وبرسالة
 خاتم أنبيائه، يخبرهم فيه: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ أَنَّهُ يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِمُ
 الصِّيَامُ كَأَحَدِ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ الْأَسَاسِيَّةِ، كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِكُمْ مِثْلَكُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَهَذَا يَعْنِي بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ
 قَبِلَ دُخُولَهُمْ إِلَى مِلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ خِلَالِ إِيمَانِهِمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَشَهَادَتِهِمْ
 أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَغَدُوا يَتَمَتَّعُونَ بِمَزَايَا الْمُؤْمِنِينَ
 لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) بيان من الله بأن الصوم من أسباب التقوى.

شهر الصوم هنا يتخذ خصائص جديدة بالنسبة للمجتمع
 الإسلامي، وهي تختلف عن شكل الصيام بالنسبة لما سبق، وهذا ما
 تبيّنه الآيات:

أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ أَيَّامِ الصِّيَامِ الْمَعْدُودَةِ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ
 عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامِ مِسْكِينٍ

فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ لِلصَّوْمِ فِي شَهْرِ الصَّوْمِ بَرَكَاتٍ قَدْ لَا تَصِيبُ الْإِنْسَانَ فِي شَهْرِ سِوَاهُ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا صَامَ فِي أَيَّامٍ أُخْرَى، فَهُوَ لَا يَدْخُلُ تِلْكَ الْحَالَةَ الَّتِي يَدْخُلُهَا عِنْدَمَا يَحِلُّ الْغُرُوبُ وَيَسْتَشْعُرُ بِأَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا الْآنَ يَجْلِسُونَ عَلَيَّ مَا نُدَّةُ الْإِفْطَارِ، حَتَّى وَهُوَ يَمْضِي فِي الطَّرِيقِ، يَرَى النَّاسَ جَمِيعًا فِي صَوْمٍ، بَيْنَمَا فِي صِيَامِهِ لَوْحَدِهِ، يَشْعُرُ بَغْرَبَةٍ لِأَنَّهُ يَرَى نَفْسَهُ صَائِمًا دُونَ النَّاسِ، وَكَذَلِكَ دُونَ أَفْرَادِ عَائِلَتِهِ الَّذِينَ يَتَنَاوَلُونَ عَلَيَّ مَرَّاتٍ مِنْهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ.

عَلَى هَذَا النَّحْوِ يَحَقِّقُ الصَّوْمُ أَوْاصِرَ الْعِلَاقَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي النَّاسِ، وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ : وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤).

إِنَّ الصَّوْمَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ هُوَ خَيْرٌ وَنَفْعٌ لِلْإِنْسَانِ، ذَلِكَ أَنَّهُ شَكَلَ مِنْ أَشْكَالِ التَّقْوَى، وَالْإِنْسَانَ الصَّائِمَ يَدْرِكُ بِأَنَّهُ فِي حَالَةِ عِبَادَةٍ، وَهُوَ يَقْطِفُ زَهْرَ هَذِهِ الْعِبَادَةِ، حَيْثُ يَزْدَادُ مَحَبَّةً، يَزْدَادُ كَرَمًا، يَزْدَادُ تَسَامُحًا.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ شَهْرٌ يَتَمَيَّزُ عَنْ سَائِرِ شَهْرٍ السَّنَةِ، وَلَعَلَّهُ أَكْثَرَ شَهْرٍ السَّنَةِ شَهْرَةً، ذَلِكَ أَنَّهُ أَكْثَرَ شَهْرٍ السَّنَةِ غِنَى، وَمَغْفِرَةً، وَرَحْمَةً، مِنْ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ أَكْثَرَ شَهْرٍ السَّنَةِ سَخَاءً، وَصِلَةً لِلرَّحْمِ، وَتَسَامُحًا بَيْنَ النَّاسِ .

تَأْتِي هُنَا إِلَى بَيَانِ لَشَهْرِ رَمَضَانَ الْكَرِيمِ، فَيَعْرِفُكَ اللَّهُ عَلَى دَلَالَاتٍ وَمَزَايَا هَذَا الشَّهْرِ الْفَضِيلِ. فِي الْبَدءِ تَدْرِكُ أَنَّ الصَّوْمَ هُوَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مُؤْمِنٍ، وَهُوَ سَبِيلٌ إِلَى التَّقْوَى، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ مُؤْمِنَةٍ مَوَاقِيتَ صِيَامِهَا، وَقَدْ

تميز شهر رمضان بأنه شهر صوم في الإسلام، إنها عبادة مكتوبة على سائر المؤمنين.

من بركات هذا الشهر الفضيل أن القرآن الكريم نزل فيه، فكلما يحل رمضان، تحل ذكرى نزول القرآن معه، ولذلك يتمتع شهر رمضان بأنه شهر قراءة القرآن الكريم بامتياز، ذلك أنه شهر عبادة خالصة، يتفرغ فيه كثير من الناس للعبادة، وقراءة القرآن، وفعل الخيرات، هُدَى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، بذلك فهو شهر تتحقق فيه الهداية للناس، وهو شهر معلوم ليس كشهور سائر السنة، البيّنة، هي الدلالة الجلية مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ، فبعد الناس عدتهم له، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ، يُخْبِرِ اللَّهَ عِبَادَهُ بِأَن شَهِرَ رَمَضَانَ إِذَا أَقْبَلَ عَلَى أَحَدِهِمْ : فَلْيَصُمْهُ، وهذا أمر ملزم من الله بصيامه، ورأفة منه جل وعلا، يستثنى من لا تكون له طاقة لصيام الشهر رغم أنه شهده وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا ذَلِكَ أَنْ الْمَرِيضَ يَحْتَاجُ إِلَى أَدْوِيَةٍ، وتغذية بشكل جيد كي يقاوم بدنه المرض، أَوْ عَلَى سَفَرٍ، لأن المسافر يحتاج إلى بذل طاقة في سفره، وعلى العموم، فإن الإنسان لا يسافر في شهر رمضان إلا إذا وجد نفسه مضطراً إلى ذلك، فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، لم يحرمه الله مكرمات الشهر، بل جعل له هذه المكرمات في أيام قادمة يسترد فيها طاقته، فيصوم رمضان في غير رمضان، وهذا ترخيص ومنّة من رب العزة عليه، ذلك أنه : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمُ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) .

يتميز شهر رمضان، دون غيره من شهور السنة، بأنه شهر مفعم

بنورانية الروحانية، إنه شهر يحقق فيه الإنسان مزايا إنسانيته، في المجتمع الذي يعيش في ظهرائه، من جهة، ومن جهة أخرى يحقق فيه سلطة قوامته على نفسه، حيث يركن فيه إلى الانضباط والتوازن، أكثر مما يفعل في ما خلا من شهور السنة، ولذلك ترى الكثيرين ينتظرون شهر رمضان ليقوموا بتصفية حساباتهم مع أنفسهم، إذ أن روحانية هذا الشهر تكون فرصة ذهبية ليتحاور في محرابها الإنسان مع ذاته، مع ثورة جنوح طموحاته، حتى يبلغ درجة التصالح مع ذاته، وعقد ميثاق قويم معها، بأن يلبث منضبطاً ملتزماً بمعايير القيم والأخلاق الإنسانية العفيفة.

شهر رمضان يكون بمثابة تربية للنفس، وفرصة ذهبية سانحة، كي ينزع الإنسان عن نفسه ما علق بها من أشواك، خلال شهور السنة المنصرمة، ويضمّد جراحه. الصوم هنا إذن، حالة من العلاج الروحي للإنسان، الذي لا يودع شهر رمضان، إلا وقد أحس بأن كل ذرة فيه تجددت، فلا يلبث حتى يلج أياماً ثلاثة من عيد فطر سعيد، يكافئ فيها نفسه وعياله، بما طاب ولد من طعام وشراب وثوب حسن.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦).

هذه الآية تجعل الإنسان يمتلئ ثقة باستجابة الله لسؤاله، ومع الاستمرار يكتشف بأن الله لم يستجب له لما سأل فيما مضى، ويشكر الله الذي لم يستجب له، ذلك أنه تسرّع في الدعاء، والآن إن استجابة الله لذلك الدعاء سيلحق به الأذى، لذلك يسأل ربه ألا يستجيب

لدعائه السابق. لكن رغم ذلك، فإن الله بفضله يحقق له استجابة لخير في أمر آخر، كبديل عن الاستجابة السابقة، التي تضره، ولا تحمل إليه نفعاً، بيد أنه تسرّع في دعائه، وفي سؤاله ربه. ذلك أن الله قال: (أجيب دعوة الداع، إذا دعان).

يبين الله بأن الرجل هو ستر لزوجته، كما أن زوجته هي ستر له، وكل واحد منهما هو حصن للآخر.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ، قد لا يطيق بعض الناس إمساك أنفسهم عن نسائهم، وأن الرجل إذا نام في فراش منعزل عن امرأته، قد يعتاد إلى ذاك اللون من الهجر، ثم أن الليل هو وقت فرح بالإفطار، والرجل والمرأة يحتاجان إلى التسامر، فهي حليلته، وبذات الوقت محظورة عليه، ثم لعله يقع في هذا الإثم، وإن كان الإنسان يبدو واهناً ساعة الجوع والعطش، فإن عوامل القوة تدبُّ في بدنه عند الشبع. هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ، يعفُّ الرجل بامرأته، وتعفُّ امرأته به، يستغني بامرأته عما نهى الله، وتستغني به امرأته عما نهى الله، يبين الله بأن الرجل هو ستر لزوجته، كما أن زوجته هي ستر له، وكل واحد منهما هو حصن للآخر، وكما أن الثوب يستر عورة الإنسان، فإن الزواج هو ستر لشهوة الإنسان. الرجل هنا يسكن بامرأته، مثلما تسكن امرأته به، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من تزوج فقد أحرز ثلثي الدين). عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ أي تجامعون النساء بعد العشاء فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ، ثم يرخص الله بذلك بقوله: فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ كان

الناس قبل ذلك إذا ناموا في ليل رمضان، واستفاقوا، امتنعوا عن الطعام والشراب، والجماع، لكن البعض كان يقع في ذلك، ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعدما صلى العشاء وقع على أهله، فلما اغتسل، بات يلوم نفسه ويبكي، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: يارسول الله إني أعتذر إلى الله وإليك من نفسي هذه الخاطئة، فجامعت أهلي، فهل تجد لي رخصة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما كنت جديراً بذلك يا عمر، فقام رجال واعترفوا بمثله، فنزل ذلك في عمر وأصحابه، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَنْتُمْ الصَّيَّامُ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) هذه آيات الله في الناس لعلهم يتقون في تدبرها وتلقي معانيها،

عن سعيد بن المسيب عن سلمان قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر يوم من شعبان فقال: (يا أيها الناس، إنه قد أظلكم شهر عظيم - وفي رواية قد أظلكم - أشرف شهر عظيم، شهر مبارك، شهر فيه ليلة القدر خير من ألف شهر، شهر جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعاً، مَنْ تَقَرَّبَ فِيهِ بِخِصَالٍ الْخَيْرِ كَانَ كَمَنْ أَدَّى فَرِيضَةَ فِيمَا سِوَاهُ، وَمَنْ أَدَّى فِيهِ فَرِيضَةَ كَمَنْ أَدَّى سَبْعِينَ فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ، وَهُوَ شَهْرُ الصَّبْرِ، وَالصَّبْرُ ثَوَابُهُ الْجَنَّةُ، وَشَهْرُ الْمَوَاسَاةِ، وَشَهْرٌ يَزْدَادُ فِيهِ الرِّزْقُ، وَمَنْ فَطَرَ فِيهِ صَائِماً كَانَ لَهُ مَغْفِرَةٌ لِدُنُوبِهِ، وَعَتَقَ رَقَبَتَهُ مِنَ النَّارِ، وَكَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ

ينقص من أجره شيء. قالوا : يارسول الله ليس كلنا نجد ما نفطر به الصائم، قال : يعطي الله هذا الثواب لمن فطر صائماً على مذقة لبن، أو تمرة، أو شربة من ماء، ومن أشبع صائماً سقاه الله عز وجل من حوضي شربة لا يظماً بعدها حتى يدخل الجنة، ومن خفف عن مملوكه فيه، غفر الله له وأعتقه من النار حتى يدخل الجنة، وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار، فاستكثروا فيه أربع خصال، خصلتين ترضون بهما ربكم، وخصلتين لاغنى بكم عنهما، أما الخلستان اللتان ترضون بهما ربكم، فشهادة أن لا إله إلا الله، وتستغفرونه، وأما اللتان لاغنى بكم عنهما، فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار).

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ

قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ
(١٩٥) وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ
الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ
مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا
أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ
يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ
ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ
الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ
يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ
(١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ
عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ
كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ
وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ
فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ
رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ
يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ
(٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)
وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ

وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْأَمْنَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠) سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَ آيَاتِنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَهُ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١) زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢).

يستنير الإنسان بهذه الأحداث والوقائع المختلفة التي يطلعه ربه عليها، وذلك من شأنه أن يجعله أكثر معرفة، وأكثر إدراكاً، وهو يمارس وقائع حياته اليومية.

إنها علاقة تكاملية بين العبادة، من خلال القرآن، وبين المعرفة، حيث يتحول القرآن هنا، بالنسبة إليه، إلى مرجع معرفي لا غنى عنه. يتعرف كذلك على الأحكام، التي يحتاجها في علاقاته الإنسانية والاجتماعية، حيث يرى فيها الشرائع والقوانين، التي تقوم له أركان

الحياة البشرية، كما تبين له النواميس، التي تجعله في ميزة إنسانية.
يقول الله:

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ
مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ
فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ
الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْأَسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ
الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ
(٢١٤) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ
وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ
اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ
تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ
قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ
يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن
دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ

كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَرُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) .

بيّن الله هنا جوهر العلاقة بين الرجل والمرأة، في مختلف المراحل، بقوله: نَسَأُكُمْ حَرْتٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَمَكُمْ أَى شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصٌ أَرْبَعَةٌ أَشْهُرٌ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ

يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتِهِنَّ أِحْقَ بِرِدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فِيمَا سَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمَسِّكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَرْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ

عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَالَّذِينَ يُتَوَقَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَدَكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرُضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَيَصِفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يُغْفُونَ أَوْ يُغْفَرَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَغْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) وَالَّذِينَ يُتَوَقَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢).

إنها أحكام ترشد إلى الحفاظ على المشاعر الإنسانية بين الرجل والمرأة، في مختلف المراحل، التي قد تبلغها العلاقة الزوجية.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَلَيْسَ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا

اللَّهُ كَمِ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ يَأْذُنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أفرغ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ يَأْذُنُ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْ نَشَاءُ اللَّهُ لَنَسَفْنَا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّاوُا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤).

آية الكرسي

تأتي هنا إلى آية الكرسي، التي تُظهر لك مقدرة الله وعظمته، وقد وردت أحاديث عديدة في فضلها، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله الزواج: أليس معك آية الكرسي: الله لا إله إلا هو؟، قال: بلى، قال: ربع القرآن. (رواه أحمد). وقوله "صلى الله عليه وسلم": "وفيها آية هي سيدة آي القرآن، هي آية الكرسي". (رواه

الترمذي).

إنها آية تبين عظمة الله عز وجل:

(اللَّهُ) تبدأ الآية بلفظ الجلالة، ثم (لَا) الجازمة، التي تنفي وجود (إِلَهَ إِلَّا هُوَ). لفظ الجلالة الله (الْحَيُّ): حياة يقظة دائمة، (الْقَيُّومُ): الذي يقوم على عباده، (لَا تَأْخُذُهُ): لا تقوى عليه، (سِنَّةً): نعاس ما قبل النوم، وبذلك لا يقوى عليه نوم: (وَلَا نَوْمٌ)، ذلك أن النعاس يأتي نتيجة الإرهاق، والنوم يكون راحة، فالله يبين قوته التي لا تخضع لأي شكل من أشكال الوهن.

بعد التوحيد بالوهية الله جلّ جلاله، تقول: (لَهُ)، لله وحده الذي لا إله إلا هو (مَا فِي السَّمَاوَاتِ): كل مخلوق في السموات جميعاً، (وَمَا فِي الْأَرْضِ): وكل ما في الأرض من خلق الله.

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ): ليس بوسع أحد أن يشفع عند الله (إِلَّا بِإِذْنِهِ)، والله (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)، يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وهي ميزة له وحده، يتفرد بها سبحانه وتعالى: (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ)، ليس بوسع أحد أن يعلم شيئاً من علم الله، (إِلَّا بِمَا شَاءَ) الله، أن يأتيه من هذا العلم.

(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) ٢٥٥.

هذه الآية تعرّف بقدرة الله وعظمته، وهو الذي يقدر على كل

شيء.

ورد في الحديث الشريف عن أبي موسى الأشعري أنه قال: قام

فينا رسول الله "صلى الله عليه وسلم" بخمس كلمات، فقال: "إن الله عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه".^{٤٣}

وفي حديثه عن كرسى الله جل جلاله، يقول النبي "صلى الله عليه وسلم"، وفق ما أخرجه ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي ذر "رضي الله عنه"، أنه سأل النبي "صلى الله عليه وسلم" عن الكرسى، فقال: "يا أبا ذر ما السموات السبع، والأرضون السبع، عند الكرسى، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسى، كفضل الفلاة على تلك الحلقة".

إن كل ذلك يعرف الإنسان بربه، إنه يتعرف على مقدرة الله، وعلى عظمته، فيؤمن به.

يقول الله:

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُخْبِي

^{٤٣} صحيح مسلم، كتاب الإيمان/ ١٧٩.

وَمِيمتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ
 الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا
 قَالَ أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ
 لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى
 طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ
 وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ
 أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي
 كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أُنزِلَ عَلَيْكَ مِنْ سَمَوَاتِنَا عِطْفًا قَالَ
 فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ
 جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠).

بيّن الله للناس سبل الإنفاق في سبيله، حيث يقبل على الإنفاق
 ابتغاء مرضاة الله، وبذلك يتقبل منه الله ذلك، فيقول:

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَعًا
 سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ
 عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَعُونَ مَا
 أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ (٢٦٢).

كذلك عندما يبطل الإنسان صدقاته بالمن والأذى، وهو بذلك في
 واقع الأمر يسبب جرحاً للفقير. وفي ذلك يقول الله:
 قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ

(٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، تَصْبِحَ النَفْسُ قَاسِيَةً لَانْتَبِتَ فِيهَا نَبْتَةُ الْخَيْرِ إِذَا أَنْفَقَ الْمَرْءُ مَالَهُ دُونَ ابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَمَهْمَا حَلَّ عَلَيْهَا الْمَطَرُ فَإِنَّهُ لَا يَقْدَمُ إِلَيْهِ نَفْعًا: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤).

ثم يبين الله عز وجل فضل الإنفاق ابتغاء مرضاة الله:

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَكَثِيرًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَنْفِقُونَ أموالهم خالصة في سبيل الله كسلوك إيماني، وعلاقة تواصلية مع الله، دون أن يعينهم الناس، لأن العلاقة التي تربطهم بالله، هي أكثر قوة من تلك العلاقة التي تربطهم بالناس، ومن صلب تلك العلاقة القوية بالله، تنبت علاقتهم بالناس، مثل هؤلاء، يشبه الله هنا المال بخضرة على أرض خصبة، ذلك أن نفس الإنسان هي أرض طيبة تحتوي على تربة خصبة مغروسة ببذور الخير، هذه البذور التي يحتاج نموها إلى العمل الصالح، حينها تغدو: كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ، إن الشرط الذي آتت، أي أينعت أكلها ضعفين بموجبه، كمن بوابل المطر: فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ، ودون تحقيق هذا الشرط: فَطَلَّ، تبقى جنة على ربوة من خلال الظاهر دون أن تتحقق فيها مقومات الجنة لأنها لا تقدم ما تقدمه الجنة كونها تفتقد عنصر النمو، وذلك هو الغني الذي تُطلق عليه صفة الغنى لأنه يمتلك أموالاً، بيد أن غناه يبقى دون تفاعل، مثله كمثل أي عائل لا يملك شيئاً،

فكلاهما لا ينفقان في سبيل الله، لأن الأول به شح، والثاني، لا يملك، وهذا يشير بأن المال لا ينقص بالانفاق ابتغاء مرضاة الله، وتشبيهاً من نفس المنفق، على قدر ما يؤتى أكله ضعفين **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)** **أَيُّودُ أَحَدُكُمْ**، يسأل الله عباده: **أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ،** والمؤكد أن الإنسان يجيب ربه قائلاً: لا يارب، لأود أن يحل بي ذلك: **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)** **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ** لأن الإنسان عندما يريد أن يعطي لله، فلا بد له أن يعطي الطيب حتى يرى عند الله الطيب الذي أنفقه ابتغاء مرضاته، فقد جعل من أطيب طيبات ما لديه وسيلة له عند الله **وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ،** فإن أعطيت الله خبيثاً، يخبرك بقوله: **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)** غني حميد عن خبيثك هذا الذي أرت أن تجعله وسيلة لك عند الله، وكان الأجدر بك أن تنفق من طيبات ما كسبت، ومما أخرجت لك الأرض.

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ذلك أن تتبع خطوات الشيطان يفضي إلى الفقر **وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ،** يتبعى إفشاء الفاحشة فيكم، لأنه يراكم سبباً في اللعنة التي حلت عليه، **وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)** **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَدْرِكُهُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)** **وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ**

نَفَقَةٍ أَوْ نَذْرًا مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠)
 إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَبِعَمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤَثِّوهُهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ
 لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) لَيْسَ
 عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
 فَلِأَنْفُسِكُمْ يَبِينُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّ مَا أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ طَيِّبَاتٍ،
 إِنَّمَا كَانَ لِنَفْسِكَ، فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ لِأَنَّكَ أَحْسَنْتَ إِلَى عَائِلٍ،
 وَتَصَدَّقْتَ عَلَى مَسْكِينٍ، وَنَفَسْتَ عَنِ إِنْسَانٍ كَرِيهٍ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا
 ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ
 (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي
 الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَقُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا
 يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)
 الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، يَدْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ بِاللَّهِ
 إِلَى أَبْوَابِ الْإِحْسَانِ لِلنَّاسِ، فَلَا يَقَعُونَ عَلَى مَحْتَاكِ إِلَّا وَيَدْخُلُوا إِلَى
 نَفْسِهِ فَرِحَةً بِمَا لَهُمْ، عَلَى هَذَا النُّحُو يَسْعُونَ إِلَى تَنْمِيَةِ الْمَشَاعِرِ الْإِنْسَانِيَّةِ
 وَالْإِرْتِقَاءِ بِهَا نَحْوَ الرُّوحِ الْعَائِلِيَّةِ الْمَشْرُوكَةِ لِلنَّاسِ جَمِيعًا، يَعِدُ اللَّهُ هَؤُلَاءِ
 بِقَوْلِهِ: فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
 (٢٧٤) الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ
 الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ، خَيْرُ الْمَالِ هُوَ مَا بَدَلْتَ فِي كَسْبِهِ جَهْدًا، وَخَيْرُ
 لِقْمَةٍ قَدَّمَهَا إِلَى عِيَالِكَ، لِقْمَةٌ بَدَلْتَ فِي كَسْبِهَا جَهْدًا، وَخَيْرُ مَالٍ
 تَصَدَّقْتَ بِهِ، هُوَ مَالٌ بَدَلْتَ فِي كَسْبِهِ جَهْدًا، ذَلِكَ أَنَّهُ مَالٌ حَلَالٌ
 كَسَبْتَهُ بِذَلِكَ جَهْدِكَ وَوَقْتِكَ، وَأَنْتَ تَقْدِمُ نَتَاجِئَ نَظِيرِ كَسْبِكَ هَذَا الْمَالِ،

بيد أن الربا هو تداول بالعملات دون إنتاج، وهو يفضى بصاحبه إلى التقاعس، يستخدم كل مقومات الحياة دون أن تكون له مهنة يقدم من خلالها إنتاجاً كمساهمة منه لعمارة الحياة، ولذلك نهى الله عن الربا، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يوجه الله عباده إلى أبواب الاسهام في عمارة الحياة، وأن يتقنوا أعمالهم بغية إصابة الجودة فيها بقوله: يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١).

آية الدين

كما أن هذه السورة أطول سورة في القرآن الكريم، فإنها تضمنت كذلك أطول آية من آيات القرآن الكريم، حيث لا توجد في القرآن

الكريم آية أطول منها، كما لا توجد في القرآن سورة أطول من سورة البقرة.

يُعد الدين من العلاقات التعملية والتعاونية والتواصلية بين الناس، حيث يمكن له أن يفرج عن كرب لشخص دهمته ضائقة، كما يمكن له أن يُظهر مشاعر التوادد والتآزر لدى الشخص، الذي رحّب، واستجاب لمطلب الدين.

عندما يتعرض شخص لضائقة، ويلجأ إلى شخص آخر، يتوسم فيه العون، ويطلب منه مبلغاً من المال على سبيل الدين، ليفك به ضائقته، وعندما يؤازره هذا الشخص، ويبي له مطلبه، فإن هذا الفعل من شأنه أن يعزز بينهما مشاعر الحبة، وقد تزداد أواصر العلاقة الاجتماعية بينهما، بحيث يصبح الاستعانة بالدين كدليل على متانة أواصر العلاقات الإنسانية، وترسيخ لبنية العلاقات الإنسانية، والاجتماعية، بصورة عامة. كما أن الدين كذلك يؤدي مصالح ومنافع الناس.

لكن من جهة أخرى، فيمكن للدين - رغم كل هذه المزايا - أن ينعكس سلباً على جوهر هذه العلاقة بين الناس، لأسباب مختلفة، مثل: النسيان، أو النكران، أو التماطل. فنتج عن ذلك شروخ في صلب العلاقة الاجتماعية، بسبب هذا الدين. لذلك يقول الله، في مستهل هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى هُنَا رخصة بأن ييسر الناس أمور بعضهم البعض، فيقبل الميسور على إعطاء شيء من المال لمن أصابه عسر في أمره على سبيل الدين، يقول الله :

فَاكْتُبُوهُ، دُونَ ذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى وَثِيقَةٌ مَكْتُوبَةٌ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ أَنْ يَكُونَ كَاتِبَ الْوَثِيقَةِ عَلَى بَيْنَةٍ بَيْنَ الدَّائِنِ وَالْمُدِينِ لِأَنَّ كِتَابَتَهُ سَوْفَ تَتَحَوَّلُ إِلَى شَرِيعَةٍ يَرْجِعَانِ إِلَيْهَا فِي حَالِ نَشُوبِ خِلَافٍ، لِذَلِكَ: وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ إِسْتِنَادًا إِلَى مَا شَرَعَ اللَّهُ، وَأَنْ يَمْتَنِعَ عَنِ كِتَابَةِ هَذَا الدِّينِ إِذَا رَأَاهُ مُخَالَفًا لَشَرَعِ اللَّهِ، وَحَتَّى يَبَيِّنَ لِلطَّرْفَيْنِ مَا سَيَكْتُبُ، عَلَيْهِ أَنْ يَشْرَحَ لهُمَا مَضْمُونِ هَذِهِ الْوَثِيقَةِ الَّتِي عَلِمَهَا مِنْهُمَا، وَكَذَلِكَ مَا يَتَوَجَّبُ فِيهَا عَلَى الْمُدِينِ دُونَ أَنْ يُوَارِيَ عَمَّا كَتَبَ شَيْئًا: فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَنْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ). وَذَلِكَ حِفْظًا لِحَقِّ الدَّائِنِ الَّذِي أَرَادَ التَّيْسِيرَ لِهَذَا الشَّخْصِ الَّذِي وَقَعَتْ عَلَيْهِ ضَائِقَةٌ. الْكِتَابَةُ وَحْدَهَا أَيْضًا لَا تَكْفِي، لِأَنَّهَا قَدْ تَتَعَرَّضُ لِلتَّلْفِ، أَوْ لِلنَّكَرَانِ، أَوْ لِلتَّزْوِيرِ، فَيُرْشِدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى: (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى).

وَالشَّاهِدُ هُنَا مَا دَامَ قَدْ قَبِلَ بِالشَّهَادَةِ، وَشَهِدَ عَلَيْهَا، فَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَمْتَنِعَ عَنِ الشَّهَادَةِ بِمَا شَهِدَ، فَهُوَ الَّذِي يُؤَكِّدُ الدِّينَ الْمَكْتُوبَ عَلَى الْوَرَقِ، وَيَقْسِمُ بِأَنَّهُ شَهِدَ ذَلِكَ. يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ).

إِنْ مِنْ شَأْنِ هَذَا التَّوْثِيقِ، مِنْ جِهَةِ أُخْرَى، أَنْ يَجْعَلَ الْمُدِينِ، الْمُرْتَدِّدِ

عن سداد الدين، متراجعاً عن ترده، لأن الدائن قد يلجأ إلى القضاء بوثاقه، وكذلك يطلع الناس على هذه الوثائق، فتكون مؤاخذة على المدين، هذه المؤاخذة التي تجعل الناس يترددون في تعاملاتهم معه في شؤون أخرى أيضاً. يقول الله تبارك وتعالى: (ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ). وفي نهاية الآية يبين الله عز وجل للناس، بأنه يعلمهم من علمه ما لا يعلمون:

(وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (٢٨٢).

تتحول هذه التعاليم الإلهية إلى منارات أمام الإنسان، فيتبعها حتى يصلح بها شأنه.

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهَا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤).

فضل الآيتين الأخيرتين:

تختتم سورة البقرة بالآيتين الأخيرتين، وقد وجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإكثار من قراءتهما. يقول صلى الله عليه وسلم: إن

الله ختم سورة البقرة بآيتين، أعطانيهما من كنزه الذي تحت العرش، فتعلموهن، وعلموهن نساءكم، فإنها صلاة، وقرآن، ودعاء. (رواه الحاكم في المستدرک، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري).
يقول الله:

(آمَنَ) الإيمان هو رأس الصلاح، عندما يؤمن الإنسان، ذلك يعني أنه استقر. (الرَّسُولُ): رسول الله "صلى الله عليه وسلم". وعلى قاعدة هذا الإيمان، ينشر رسالة الله: (بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ). كذلك تتبع الرسول ملته: (وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)، يشترك أنبياء الله ورسله برسالة الإسلام، التي ترشد إلى الإيمان، وكذلك يشترك المؤمنون جميعاً بإيمانهم بالله: (وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) ٢٨٥: العمل بما أمر الله، والتوكل عليه.

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا): ما لا تكون قادرة عليه، (لَهَا مَا كَسَبَتْ) من خير، (وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) من شر، ذلك أن الإنسان ينفطر على الخير، ويكسبه وفق فطرته، في حين أنه لا يكسب الشر، لأن الشر دخيل عليه، بل يكتسبه. (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)، ذلك أن المؤمن قد يتعرض لذنوب نسياناً، أو خطأً، فيطلب المغفرة من ربه: (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (٢٨٦).

مع قراءة هاتين الآيتين ترى مزايا الإيمان، الذي هو أساس الصلاح. كذلك ترى بأن الله لا يكلفك بما هو فوق سعتك، وكل ما شرّعه الله لك، وأمرك به، فهو بمقدرتك، بيد أنك قد تتعرض لشيء من النسيان، أو الخطأ، فتسأل الله عدم المؤاخذة في ذلك. وإن جنحت إلى شيء من كسل، أو ذنوب، وأنت في إيمانك، تسأل ربك العفو والمغفرة والرحمة، وأن ينصرك على القوم الكافرين، في مكانه، وزمانه، وتهيئتك لاغتنام مزايا هذا النصر، وتفعيله في حياتك. ويمكنك عكس ذلك على حياتك، فتزى أن الإخفاق في المراد، هو بمثابة الاستعداد والتهيئة لاستقبال النجاح.

يقول النبي "صلى الله عليه وسلم": "البقرة سنم القرآن، وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت " الله لا إله إلا هو الحي القيوم " من تحت العرش، فوصلت بها، فوصلت بسورة البقرة". وعن أبي هريرة "رضي الله عنه"، أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قال: "اثنان هما قرآن، وهما يشفيان، وهما يحبهما الله: الآيتان من آخر سورة البقرة".

وعن ابن مسعود الأنصاري، أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قال: "أنزل الله آيتين من كنوز الجنة، كتبهما الرحمن بيده، قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة.. من قرأهما بعد العشاء الآخرة، أجزأته عن قيام الليل".

وأخرج ابن مردويه، عن معقل بن يسار، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"أعطيت فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، من تحت العرش".
سُميت هذه السورة الكريمة بـ البقرة ، وكذلك بـ العوان -
قسطاس القرآن - سنام القرآن^{٤٤} - الزهراء^{٤٥}.

وعن فضلها وردت أحاديث كثيرة منها:

حديث أبي هريرة "رضي الله عنه"، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ "صلى الله عليه
وسلم" قَالَ: "لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ
الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ".^{٤٦}

حديث أبي أمامة الباهلي "رضي الله عنه"، قال: سمعت رسول الله
"صلى الله عليه وسلم" يقول: "اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة
شفيعا لأصحابه. اقرأوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما
تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيابتان، أو كأنهما
فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما. اقرأوا سورة البقرة، فإن
أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة"^{٤٧}.

^{٤٤} السيوطي، الإتقان (الهيئة المصرية للكتاب)، السيوطي ١/١٩١.

^{٤٥} مما رواه (مسلم) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة
البقرة، الحديث ٨٠٤ عن أبي أمامة "رضي الله عنه": أن النبي "صلى الله عليه وسلم" قال:
اقرأوا الزهراوين: البقرة، وسورة آل عمران.

^{٤٦} أخرجه مسلم/ كتاب الصلاة/ باب استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد/
ح (٧٨٠).

^{٤٧} أخرجه مسلم/ كتاب الصلاة/ باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة/ ح (٨٠٤).

حديث النواس بن سمعان "رضي الله عنه"، قال سمعت النبي "صلى الله عليه وسلم" يقول: "يؤتى بالقرآن يوم القيامة، وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران، وضرب لهما رسول الله "صلى الله عليه وسلم" ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: كأنهما غمامتان، أو ظلتان سوداوان، بينهما شرق، أو كأنهما حزقان من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما"^{٤٨}.

حديث أبي هريرة "رضي الله عنه"، قال: وكلي رسول الله "صلى الله عليه وسلم" بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يخبث من الطعام، فأخذته، وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله "صلى الله عليه وسلم"، قال: إني محتاج، وعلي عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي "صلى الله عليه وسلم": "يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة". قال: قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة، وعيالا، فرحمته، فخليت سبيله. قال: "أما إنه قد كذبتك، وسيعود". فعرفت أنه سيعود، لقول رسول الله "صلى الله عليه وسلم" إنه سيعود، فرصدته، فجاء يخبث من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله "صلى الله عليه وسلم"، قال: دعني فإني محتاج، وعلي عيال، لا أعود، فرحمته، فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله

^{٤٨} أخرجه مسلم/ كتاب الصلاة/ باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة/ ح (٨٠٥).

"صلى الله عليه وسلم": "يا أباهريرة ما فعل أسيرك"، قلت: يا رسول الله شكنا حاجة شديدة، وعيالا، فرحمته، فخليت سبيله، قال: "أما إنه كذبتك، وسيعود". فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله، وهذا آخر ثلاث مرات تزعم لا تعود ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقراً آية الكرسي: الله لا إله إلا هو الحي القيوم، حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان، حتى تصبح. فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله "صلى الله عليه وسلم": "ما فعل أسيرك البارحة؟". قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله، قال: "ما هي؟". قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك، فاقراً آية الكرسي من أولها حتى تختم ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾. وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان، حتى تصبح - وكانوا أحرص شيء على الخير - فقال النبي "صلى الله عليه وسلم": "أما إنه قد صدقك، وهو كذوب. تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أباهريرة"، قال: لا، قال: "ذاك شيطان".^{٤٩}.

حديث أبي بن كعب "رضي الله عنه" قال: قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم": "يا أباهريرة، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: "يا أباهريرة، أتدري أي

^{٤٩} أخرجه البخاري/ كتاب الوكالة/ باب إذا وكل رجلا، فترك الوكيل شيئاً، فأجازه الموكل،

فهو جائز..... ح (٢٣١١).

آية من كتاب الله معك أعظم"؟ قال: قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، قال: فضرب في صدري، وقال: "والله ليهنك العلم أبا المنذر"^{٥٠}.

حديث عبد الله بن مسعود "رضي الله عنه"، قَالَ لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ "صلى الله عليه وسلم"، انْتَهَى بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، قَالَ: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾، قَالَ: فَرَأَشُ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ "صلى الله عليه وسلم" ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقْرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا^{٥١}.

حديث أبي مسعود البدرى "رضي الله عنه"، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ "صلى الله عليه وسلم": "الْآيَاتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقْرَةِ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ"^{٥٢}.

حديث ابن عباس "رضي الله عنهما"، قال: "بينما جبريل قاعد عند النبي "صلى الله عليه وسلم"، سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه، فقال:

^{٥٠} أخرجه مسلم/ كتاب الصلاة/ باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي/ ح (٨١٠).

^{٥١} أخرجه مسلم/ كتاب الإيمان/ باب في ذكر سدرة المنتهى/ ح (١٧٣).

^{٥٢} أخرجه البخاري/ كتاب المغازي/ باب/ ح (٤٠٠٨)، و مسلم/ كتاب الصلاة/ باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة/ ح (٨٠٧).

هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته"^{٥٣}.

تُعنى سورة البقرة بالتفاصيل، والشرح المستفيض، وهي تضع أسس وقواعد بناء أمة جديدة، سوف تشرق على العالم، وتأخذ على عاتقها مسؤولية تصحيح المسار البشري.

إنها سورة مدنية بامتياز، أول سورة نزلت في المدينة، وأطول سور القرآن الكريم، تبدأ متدرجة في تعريف قيمة الإنسان، وتقديمه إلى نفسه، ثم تبين له ميزة التقوى، وآية ثم آية تتدرج به، حتى تسن له الشرائع والقوانين والنواميس، التي هي فضل من الله عليه، ورفعته لمنزلته كإنسان حظي بتكريم إلهي وعناية إلهية.

ثم تعود به إلى أسلافه، وما قدّموه من خصال حميدة، حتى يشعر بأنه يقف على أساس متين من التقوى، وأن رسالة تصحيح المسار البشري هذه، هي رسالة متممة لتلك الرسائل، التي حملها أولئك الأسلاف. وكما أنها تُظهر أهل الصلاح في التاريخ البشري، كذلك

^{٥٣} أخرجه مسلم/ كتاب الصلاة/ باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة/ ح (٨٠٦).

تُظهر أهل الفساد، في حالة من الصراع بين نزعة الخير، ونزعة الشر. وهنا، فإن هذه السورة، التي استمر نزولها عشر سنوات، تبرز مزايا هذا الصراع، بالنسبة لأهل الصلاح، وهم يكتشفون قيمة الحياة، ويستمتعون بلذة مسؤوليتهم تجاهها، ومن ذلك يستمدون مشاعر البطولة والتفوق وألق النجاح، إذ أن هذه السورة تحض كل فرد من أبناء هذه الأمة، كي يسجل في محطات حياته، مواقف بطولية مميزة.

إن سورة البقرة هي سورة الشرع الإلهي في الناس، وهي سورة تبيّن حدود الله، وتضع الإنسان أمام مسؤوليته، كما أنها تبيّن له حقوقه وواجباته.

القراءة التدبرية لهذه السورة، تجعل الإنسان يقف أمام ما يتمتع به من خصال ومزايا، حيث ترسخ هذه السورة لديه معالم السلوك الإنساني الذي يتمتع به الإنسان.

خاتمة الكتاب

الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن الكريم، يحتاج إلى تهيئة بدنية وروحية، هذه التهيئة التي ترتقي بدرجاتها في منح القارئ المتلقي كنوز معاني القرآن.

لذلك فإن قراءة القرآن تختلف من موضع إلى آخر، من مناسبة إلى أخرى، من وقت زمني إلى آخر، من حالة نفسية معينة، يكون فيها الإنسان، إلى أخرى. إن اكتمال عوامل التهيئة، هو اكتمال لعملية تلقي الدرس القرآني.

وما هو غاية في الأهمية، أن الإنسان، في أي زمان ومكان، يمكن له أن يحظى بدرجات متقدمة من درجات إشراف قراءة القرآن، والتبرك بنوره، والتعرض لنفحات الله. ولكن هذا يحتاج إلى سعي جاد منه كي يغتنم التهيئة، بغية بلوغ ما يمكنني تسميته هنا بالقراءة الحاله، أي أنك تلج حالة القراءة، وتغدو على تماس بذروة تفاعلات هذه الحالة.

يستقطب القرآن الكريم ألوان وأقوام الناس، لغايات ومقاصد وأهداف ومآرب شتى. وعلى ذلك، فإن كل قراءة تكون رسولة حالتها:

- القراءة المبكية.
- القراءة الدعائية.
- القراءة التأملية.
- القراءة التعبدية.

- القراءة الاطمئنانية.
- القراءة الترتيلية.
- القراءة التجويدية.
- القراءة المقصدية.
- القراءة العلاجية.
- القراءة الإهدائية.
- القراءة النذرية.
- القراءة التشريعية.

يغتنى القرآن الكريم بمصالح وغايات ومطالب الناس، ويقدم لكل ذي حاجة حاجته.

إنه كتاب مبارك أنزله أنزله الله لك كي تكتشف مكونات نفسك، تستطلع أسرار ما تخفيه النفس، يعلّمك بأن المعرفة الكبرى والمجدية الأولى تبدأ من معرفتك لنفسك، وكلما عرفت نفسك جيداً، عرفت ربك جيداً، وكلما عرفت ربك جيداً، عرفت الإنسان جيداً، وكلما عرفت الإنسان جيداً، عرفت الطبيعة جيداً، وكلما عرفت الطبيعة جيداً، استنارت نفسك بنور الإنسان، لتستمتع بممارسة مزايا إنسانيتك.

تدرك أبعاد حقوقك في الحياة التي تعيش فيها، وتعلم معالم الواجبات التي عليك تأديتها، وهذا من شأنه أن يحقق في نفسك شيئاً من التوازن، ويهبك مزية حالة التسالم مع النفس. هذه الحالة التي تكون أساساً ومعيناً لك كي تكون في حالة تسالم وتصالح مع العالم

كافة، فترى كل إنسان في العالم يحمل شيئاً منك، وتراك تحمل شيئاً من كل إنسان في العالم.

تغدو في مرتبة إنسانية، ترفض فيها أن تكذب، بقدر ما ترفض أن يكذب عليك، ترفض أن تسرق، بقدر ما ترفض أن يسرق منك، ترفض تزني، بقدر ما ترفض أن يزني بك، ترفض تظلم، بقدر ما ترفض أن تُظلم، ترفض أن تُنمّ، بقدر ما ترفض أن تُنمّ، ترفض أن تشتم، بقدر ما ترفض أن تُشتم، ترفض أن تهين، بقدر ما ترفض أن تُهان، ترفض أن تُغتتاب، بقدر ما ترفض أن تُغتتاب.

ضمن مسار حالة متكاملة متوازية من روح المساواة الإنسانية، تبيّن لك بجلاء أنك إن قبلت أن تسرق، فعليك أن تقبل - أضعف الإيمان - بشجاعة أن تُسرق بمثل ما سرقت، أن يكذب عليك بمثل ما كذبت، أن يزني بك بمثل ما زنيت، أن تُظلم بمثل ما ظلمت، أن تُنمّ بمثل ما نممت، أن تُشتم بمثل ما شتمت، أن تُهان بمثل ما أهنت، أن تُغتتاب بمثل ما اغتبت.

مما يعلّمك إياه التدبر في آيات القرآن الكريم، أنه يرسخ في ذاتك حضور الله تبارك وتعالى، حتى يبلغ بك مرتبة متقدمة تلمس فيها بأنه سبحانه وتعالى معك في كل خطوة تخطوها، وفي كل هنيهة تدرّكك. عندئذ يستكين فؤادك بسكينة الخوف من البارئ، فتطيب نفسك بما ينشره القرآن الكريم إلى ذراتها من نور الله، عزّ اسمه.

فتدرك آنذاك لأول وهلة أن كل خوف به خصلة جبن، إلا الخوف من الله، يكون شجاعة خالصة، كل خوف يحمل شكلاً من أشكال

الجبن ، إلا الخوف من الله ، فهو أعلى مراتب الشجاعة.
﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

يُنْفِقُونَ﴾ السجدة/ ١٦ .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْدُورًا﴾
الإسراء/ ٥٧ .

يتحول خوفك من الله إلى حصانة تتحصن بها من أي خوف دونه، حينها يستكين في جنباتك يقين أن كل خوف من دون الله، إنما منبته اللاخوف من الله، وكل لاخوف من دون الله، إنما منبته الخوف من الله.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران/ ١٧٥ .

﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ النور/ ٣٧ .

تضعك قراءتك الاستثنائية لهذا الكتاب في قاعدة الحياة، وتبث إليك القوة، تنشر إلى خلاياك نفحة المسؤولية، فتسمي أكثر جدية، أكثر واقعية، أكثر عذوبة، حينها تتفوح منك رائحة مسك الإنسان، لأول مرة، وتبدأ في تلقي كل لحظة من لحظات الحياة، وأنت تترسخ وتزداد انفتاحاً وإشراقاً، كما لو أنك شجرة عامرة بالياسمين، في ذروة ربيع عامر، تُسر الناظر إليك، تُسر السامع إليك، تشرح نفس السائر

شترك.

يرتقي الانسان في درجات قراءة القرآن، وهي درجات متقدمة من قوة التلقي، حيث تنتشي النفس في محراب القراءة، تنهمر الدموع، يرق الفؤاد، تكون الحواس المكتشفة، وغير المكتشفة، في حالة استقبال لجمالية وخصائص دفقات عذوبة التلقي القرآني.

إنه يشدو بقراءة القرآن، في وضع نفسي مجيد، لا يتكرر إلا نادراً في العمر، يتمتع بلذة القراءة التدبرية، يتذوق غسل المعاني السامية، ليست ثمة موسيقى أعذب على سمع الروح، من رنين شدو الإيقاع اللغوي، ليست ثمة لآلى أنفس من لآلى الكلمات المتألثة في صفحات القرآن، بين أصابعه الذهبية.

يلج رحاب الكتاب المبارك، الذي يغدو كقبس من نور بين أصابعه الذهبية، وأي رعديد يقتحم مجلسه، ولحظاته التواصلية المباركة تلك، دون استئذان، يقتحم حنايا ذاك الخراب، سواء عن قصد، أو غير قصد، فيفسد على ذاك العابد، الذي ظفر بتلك المنزلة المتقدمة من قراءة استثنائية بين يدي الله، وكأنه يتعرف إليه أول مرة، يقطع ذاك الخيط التواصلية الذهبي بين السماء وبين الأرض، ويفسد على ذاك المنتشي، تلك النفحات النورانية، التي يستكين في ثناياها، وتستكين في ثناياها. عندئذ لا يخطر بباله، سوى كم من العمر سينتظر حتى تكتمل عوامل التهيئة تلك مرة أخرى، وهل سيكون محظوظاً، ويحظى بلحظات كتلك، خلال ما تبقى من العمر.

إن كل حالة من حالات قراءة القرآن، تمتاز بخصائصها ومزاياها،

وثمارها، ودرجات التفاعل معها في عملية تلقي جواهر القرآن، وهذه الخاصية لا تكون إلا للقرآن، الذي هو أكثر كتب الأرض قراءة على الإطلاق، بشكل يومي، إذ لا تمر لحظة على العالم، إلا ويقراً الملايين فيها القرآن، ولا تغيب شمس يوم واحد في العالم، إلا ويكون أكثر من مليار شخص قد قرأ شيئاً من القرآن، وليس من مسلم بلغ سن الرشد، إلا وقد قرأ القرآن، أو حفظ شيئاً منه، أو استمع إليه، أو استشهد بآيات منه.

ويُعد القرآن كتاب التشريع الأول لكل مسلم، فالناس يتزوجون وفق ما ورد في أحكام هذا الكتاب، ويطلقون، وينفقون أموالهم، ويتحاسبون، ويتسامحون.

إنه الكتاب الأكثر حضوراً في أياديهم، وأمام أعينهم، وفي وجدانهم، الكتاب الأسمى، الذي لا يجوز وضعه في مكتبة الكتب، إلى جانب سائر الكتب، بل يتخذ القرآن ركناً مميزاً منفرداً خاصاً به في البيت، ويوضع في قماش يُفصل له، ويُعلق قي صدر البيت، كي يبقى أمام الأعين، ولا يكون في ركن خفي. إنه دائماً يكون بمفرده، دون أن تحتك به كتب أخرى، ذلك أن سائر الكتب الأخرى هي كتب الناس، وهو الكتاب الذي يمتاز بأنه كتاب الله.

إن جميع الكتب الأخرى تحمل أسماء الناس، وهو يتفرد من بين سائر كتب الأرض بأنه يحمل اسم الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر/٩.

﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ

اختِلافاً كَثِيراً ﴿النساء/٨٢﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾
الأعراف/٢٠٤.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ
الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
يونس/٣٧.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ
وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ يوسف/٣.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ الحجر/٨٧.
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ الإسراء/٩.

﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ
الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ الإسراء/٨٢.

﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الإسراء/٨٨.
﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ الكهف/٥٤.

﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ النمل/٦.
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ القمر/٣٢.
﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ
اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحشر/٢١.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ الإنسان/٢٣ .

إن وجوه وألوان ومقاصد القراءة، التي ذكرتها، تجعل من القرآن كتاب الساعة بالنسبة لسائر مسلمي الأرض، وهذا ما يعزز بأن القرآن لا تعاد قراءته، بل يُقرأ قراءة جديدة مع كل قراءة، وهذا ما يجعل القارئ المواظب على قراءته، لا يشعر بأنه يقرأ للمرة المائة، أو للمرة الألف، رغم أنه يقرأ للمرة المائة، أو للمرة الألف، بشكل متسلسل، من القاب إلى القاب.

ولولا هذه العناصر المتجددة، ولو لم يكن هذا الكلام خالصاً من الله، لما كان بمقدور الإنسان، أن يقرأ القرآن أكثر من خمس مرات متتالية في العمر، لأنه كان سيشعر بأنه يعيد قراءة كلام مكرر، لا يحمل إليه جديداً في المبنى، أو المعنى، وكان سيرغم نفسه القراءة على مضض، بتكاسل، وضجر، وفي تلك اللحظات، كان سيتسرب إليه إحساس بأن كتاباً مملاً كهذا لا يمت بصلة إلى كلام الله. يمتلك القرآن الكريم مقدره دائمة ومتجددة على إدهاش قارئه، وكلما يكتشف علماً جديداً من قراءة جديدة، يكتشف مدى جهله، فهو كلما يزداد قراءة للقرآن، يزداد اكتشافاً لمدى جهله بالقرآن.

إنه يشعر بمتعة وحلاوة اكتشاف لآلي المعرفة، لذلك يندفع إلى قراءة جديدة، كي يمتلئ إحساساً ببهاء متعة الفتح، وهو يقف أمام معان جديدة، وإشراق فكري، وروحي، ومعرفي، وجمالي، وإيماني، جديد.

إن كل قراءة للقرآن هي قراءة جديدة، بكل مدلولات مكتشفات

الجديد، وكل قراءة هي فتح جديد من فتوحات الإنسان الناصعة، التي تسجل علامات فارقة في محطات حياته. ليست من قراءة قرآنية مكررة للقرآن، ولذلك فإن الإنسان لا يعيد قراءة القرآن، على قدر ما يتلقى نفائس جواهر القرآن لقياً جديدة، وتفعّل في طاقاته تفعيلاً جديداً، وتُشرق على ظلمته نوراً جديداً. وكما أن الإنسان لا يعيد استقبال السنة، على رأس كل سنة، بل يستقبل سنة جديدة، ولا يدخل في فصل مكرر، مع دخول فصل من السنة، ولا تشرق عليه شمس مكررة مع صبيحة كل يوم، بل يستقبل يوماً جديداً، فكذلك الإنسان لا يعيد قراءة القرآن، مهما بلغ في ختمه، بل إنه مع كل بدء للقراءة، يشرع في قراءة جديدة، تمتاز بكل معطيات الجديد.